دراسات فى تاريخ العالم الإسلامى

العالم الاسلامى
فى التاريخ الحديث والمعاصر

الجزء الأول

دكتور مصطفى محمد رمضان
أستاذ التاريخ الاسلامى الحديث
بجامعة الأزهر

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

من الموضوعات التى مازالت تحتاج منا الى جهد كبير فى الكتابة موضوع تاريخ العالم الاسلامى ككل ورصد حركة التحول فيه بجميع أقطاره رصدا كاملا وبصورة عامة تختلف عن الصور الاقليمية الهزيلة التى سادت فى الآونة الأخيرة ومزقت العالم الاسلامى فأفسدت التصور العام أو بعبارة أخرى أفسدت الرؤية الصحيحة • لأن تاريخ العالم الاسلامى قد زيفه الغرب عندما تغلب وهذا التزييف للاسف تسلل الى عقولنا وكتبنا عن طريق كتاب الغرب ومن لف لفهم والأخذ عنهم سواء بقصد أو بغير قصد •

ومن أهم الفترات التى زيفت فى تاريخ العالم الاسلامى فترة مطلع القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) عندما خططت البابوية للالتفاف حول العالم الاسلامى من الشرق ومحاصرته من أطرافه الشرقية ونجحت فى ذلك وساهمت البرتغال وأسبانيا فى هذا الميدان ، هذا التخطيط الذى أدخله الغرب فيما يسمى بالكشوف الجغرافية على الرغم من أن ما يتعلق بالشرق الاسلامى لا يمكن أن يدخل فى مجال الكشوف الجغرافية لأن الشرق كان مطروقا من قبل من جانب المسلمين ومعروفا لديهم ولدى الغرب معرفة قاصرة عنه • وابان هذا الالتفاف حول الشرق الاسلامى انتقل ميزان القوى فى العالم من البر الى البحر لصالح الغرب المسيحى وظهرت الدول البحرية التى سيطرت على مقدرات العالم كالبرتغال وأسبانيا ومن بعدهما هولندا ثم بريطانيا • وسيطرت هذه الدول البحرية متعاقبة على اقتصاد العالم فاختل التوازن بين المسلمين

والمسيحيين فى الميادين الحربية والاقتصادية والسياسية ، والدينية ، ففى المجال الحربى ظهرت الأمم البحرية التى هيمنت على مقدرات العالم فى أعالى البحار ، وسقطت الأمم التى كانت قوتها برية وتأخرت كالأمم الاسلامية وأصبحت الدول البحرية الغربية سيدة البحار ، وفى المجال السياسى أصبح لها بالتالى سيطرة سياسية كبيرة على شئون العالم السياسية واحتكرت التجارة العالمية فى أعالى البحار لصالحها وحاربت انتشار العقيدة الاسلامية فى البلاد المفتوحة . وحاولت نشر المسيحية فى تلك البلاد فاختل التوازن فى هذا الميدن أيضا لصالح المسيحيين وبدأت المسيحية تكسب أرضا جديدة فى مناطق كانت وقفا على المسلمين مثل أفريقيا وآسيا الشرقية والوسطى وزادت أعداد المسيحيين وبدأت تقل أعداد المسلمين ، وتقدم الغرب المسيحى وتأخر الشرق الاسلامى وانقلب المسلمون من الهجوم الى الدفاع وما زالوا حتى يومنا هذا .

وساعد فى ذلك أن الغرب بدأ يحتكر الحضارة والتقدم التكنولوجى لصالحه وخاصة فى ميدان المخترعات العسكرية الرادعة ولا يعطى للشرق الاسلامى منها الا ما مضى عليه الزمن ولم يعد مؤثرا فى المجال العسكرى .

ولا شك أن الزحف الأوربى على شرق العالم الاسلامى جاء فزلزل العالم الاسلامى زلزالا شديدا فى كثير من الميادين الاقتصادية والسياسية والعقائدية وبدأت التغييرات الخطيرة تظهر فى العالم الاسلامى ، وكان من أهمها كما سنرى اختفاء دولة المماليك وزحف الدولة العثمانية على الشرق العربى لملء الفراغ العسكرى الذى أحدثته هزيمة المماليك أمام القوى الأوروبية الزاحفة على الشرق الاسلامى وبدلا من أن تتعاون الدولة العثمانية مع الدولة المملوكية فى مصر هجمت عليها فاقتنصت أراضيها ، وانتقلت زعامة العالم الاسلامى من العرب الى الترك ونقل العثمانيون الخلافة الى اسلامبول ولكن الثقافة والحضارة الاسلامية تأخرت عن غيرها من الثقافات الأوربية لأن الزعامة ضاعت من العرب وكان

التقدم الذى أحرزه العالم الاسلامى باللغة العربية ، ولم يكن فى مقدور الترك أن ينهضوا بالتراث الاسلامى والعلوم الاسلامية لأن هذا التقدم قطع أشواطا طويلة باللغة العربية ومنعت العنصرية التركية الترك من ترك لغتهم ومواصلة الحضارة الاسلامية باللغة العربية فتمسكوا بلغتهم ولم يتوفروا على التراث الاسلامى العربى ليهضموه لا بالتركية ولا بالعربية لأن التراث العربى كان أكثر من أن يستطيعوا نقله الى التركية ، وظلوا أمة عسكرية وحالت طبيعتهم العسكرية دون أن يدفعوا الثقافة العربية الاسلامية دفعات الى الامام ، ووقع عبؤهم العسكرى على الشرق العربى لفترة طويلة وعلى الرغم من أنهم حموه فى فترة كان مهددا فيها من الغرب المسيحى الا أنهم أضروه ضررا بليغا ربما من غير قصد فقد أضروه فى مضمار الحضارة وأنسوه كثيرا من فنون التقدم العسكرية والحضارية فى فتـــرة عصر النهضة الأوروبى فبينما كان الغرب يتقدم كان الشرق العربى والاسلامى بصفة عامة يغط فى نوم عميق .

ولمـــا ضعفت الدولة العثمانية عسكريا تخطفتها يد الغرب المسيحى من كل جانب وسقطت جميع مناطقها العربية فى يد الغرب وكانت مهيأة لذلك فقد أضعفتها التبعية والعزلة لأن الدولة العثمانية لم تشرك العرب فى الجندية فأضعفت فيهم الروح القتالية ونسوا مسائل التسليح وتطويره لأنها كانت من مهام الدولة العثمانية وظل هذا الوضع فى البلاد العربية بصفة خاصة من ٣٠٠ سنة فى بعض المناطق الى ٤٠٠ سنة فى منـــاطق أخرى خضعت لها ، وعندما واجه العرب الغرب المسيحى بعد ســـقوط الدولة العثمانية وابان ضعفها كان من أهم المشاكل العويصة وما زالت هى مســـألة اعادة الروح العسكرية واعادة التسليح وتنظيم الجيوش تنظيما حديثا وتصنيع السلاح وما يتصل بذلك من المشاكل التى ســـتظل شغل المسلمين الشاغل حتى يتمكنوا من صنع سلاحهم بأنفسهم وتدريب

جيوشهم بروح اسلامية وأيد اسلامية دون اعتماد على الغرب فى هذا المضمار وهيهات أن يخلص لهم فى هذا المجال .

وفى غضون ذلك تغلغلت الامتيازات الأوروبية فى البلاد الاسلامية فشجعت الغزو الفكرى الغربى الذى كان كل همه تمزيق وحدة الفكر الاسلامى توصلا الى تمزيق وحدة العالم الاسلامى وأصبحت بلدان الخلافة العثمانية فى يد الاحتكارات الغربية وظهرت الأطماع الاستعمارية لاقتسام أملاك الدولة العثمانية التى أطلق عليها تركة الرجل المريض .

وحاول سلاطين العثمانيين أن يقوموا بمحاولات اصلاحية اتخذت النظام الغربى نموذجا لها ولم تكن الدعوة الى الاصلاح نابعة من الشعب بل جاءت من الحكام أى أنها ثورة من القمة وليست من القاعدة وكان الهدف الرئيسى لها تأمين مصالح الحكام والحفاظ على رجال السلطة والمحافظة على الاستبداد السياسى الذى دمر العالم الاسلامى ولهذا امتد الاصلاح فى المقام الأول الى اصلاح آلة الحرب والنظم العسكرية .

وقد فشلت هذه المحاولات الاصلاحية على أيام سليم الثالث (١٢٠٤ — ١٢٣٣ هـ) ومحمود الثانى (١٢٣٢ — ١٢٥٥ هـ) وغيرهما من السلاطين الذين أتوا بعدهما فى القرن الثالث عشر الهجرى نظرا لأن المحاولات لم تأخذ بعين الاعتبار الصيحات المخلصة المنبعثة من العالم الاسلامى وعلى الأخص فى الجزيرة العربية التى تنادى بالاصلاح على أساس التوحيد الخالص من كل دخيل وعلى أساس عقائد السلف وبدلا من أن تتعامل الدولة العثمانية مع هذه الصيحات التفتت اليها لتضربها كما سنرى فى صلب هذا البحث عندما نتحدث عن حركات اليقظة الاسلامية فى العالم الاسلامى لمواجهة التخلف والتمزق .

اننا نريد فى هذا العرض السريع التعرف على أخطاء الماضى التى أودت بالمسلمين الى هاوية التمزق والتخلف حتى وقعوا فريسة سهلة فى

يد الاستعمار وأعداء الاسلام وان عرضنا هذا فى الواقع عرض لمأساة المسلمين وانحدارهم بعد صعودهم فهو لذلك مؤلم فى كثير من جوانبه ، ومن منا يحب أن يروى مأساة المسلمين لكن لابد مما ليس منه بد . فنحن نهدف من هذا العرض استنهاض همم المسلمين لارتقائهم بعد سقوطهم وحثهم لاكتشاف ماضيهم المشرق وتعزيز الثقة بأنفسهم حتى يتمكنوا بفضل الله وعونه من ترشيد الحاضر وانارة الطريق للمستقبل والله من وراء القصد يهدى ويعين ..

دكتور مصطفى رمضان

٩ من ربيع الآخر ١٤٠٥ هـ

١ من ينـاير ١٩٨٥ م

الفصل الأول

تمهيـــد تاريخي :

ظهر الاسلام فى الجزيرة العربية على يد محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام وفى فترة وجيزة من الزمن سادت مبادىء الاســلام تلك الجزيرة ، فقد صهرت تلك المبادىء العرب من جديد وحولتهم من أمة ممزقة متنازعة متقاتلة على أتفه الأشياء الى أمة مترابطة ، وحولت ارادة القتال بينهم الى الدفاع عن الاسلام ومبادئه •

وانطلق المسلمون فى عهد الخلفاء الراشدين الى خارج الجــزيرة العربية يخرجون الناس من الظلمات الى النور ، وفى نحــو قرن من الزمان تمكنوا من السيادة على نصف الدنيا فى الشام ومصر والعــراق وفارس وما وراء النهر وشمال أفريقيا والأندلس • وقهروا أعظم قوتين يومئذ وهما امبراطوريتى الفرس والروم فزالت الأولى على يدهم وامتد الصراع مع الثانية • فأذهل المسلمون العالم يومئذ بتلك السرعة غــير العادية •

وكان هذا النجاح السريع بفضل سمو مبادىء الاسلام التى تمسك بها المسلمون الأوائل والتى غيرت حياة العرب وغيرهم من الأمم فنقلتهم من جور الحكام الى عدالة الاسلام السماوية ، فكانت بحق فتحا جديدا مشرقا فى حياة الأمم التى دانت بالاسلام •

واستمر الاسلام فى تقدم وانفتح المسلمون على معارف الدنيـا القديمة فى العصرين الأموى والعبــاسى الأول فاستوعبوها وصــاغوا حضارة اسلامية راقية ومتميزة فى العصر العباسى الثانى بلغت الذروة فى القرن الرابع الهجرى •

وفى النصف الأول من القرن السابع الهجرى اجتاح الأعصار المغولى المدمر بلاد الاسلام الشرقية الآسيوية ، فكانت كارثة عطلت سير الحضارة الاسلامية وتطورها الثقافى الهادىء فى دنيا الاسلام وحطم الكيان السياسى للدولة العباسية وفى سنة ٦٥٦ هـ اقتحم المغول بغداد بقيادة هولاكو فى وحشية مدمرة متعطشة للدم ، وأسقطوا الخلافة العباسية ، وداسوا التراث الاسلامى بأقدامهم عندما جعلوا من الكتب والمصاحف جسرا يعبرون عليه نهر دجلة •

وكان ذلك بسبب ضعف المسلمين وتنازعهم وانقسامهم ، فقد أضحى الجزء الشرقى من بلاد المسلمين ألعوبة فى يد الأتراك المتغلبين الذين زرعت حروبهم المتواصلة الدمار والخراب فى الدولة الاسلامية ، فأضعفت بذلك الخلافة الاسلامية ، وصار الخليفة فى بغداد ألعوبة فى يد الأتراك أيضا فسقطت بغداد فى يد المغول لقمة سائغة وفريسة هينة •

وطلب المغول من حكام مصر (المماليك) الاستسلام فردوا عليهم بهجوم ساحق شنوه عليهم فى فلسطين ، وأنزلوا بهم هزيمة حاسمة فى معركة عين جالوت قرب الناصرة سنة ٦٥٨ هـ (١٢٥٩ م) وتمكن المماليك بذلك من ايقاف الزحف المغولى عند حده وأنقذوا الحضارة الانسانية وما تبقى من الحضارة الاسلامية فى مصر والمغرب من عبث المغول •

وكانت غارات المغول أفظع كارثة حلت بالعالم الاسلامى بل بالانسانية كما قرر تلك الحقيقة المؤرخ عز الدين بن الأثير فى لهجة باكية مؤثرة فى معرض كتابته عن تلك الأحداث سنة ٦١٧ هـ (١٢٣٠ م) فيقول: « لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها ، كارها لذكرها ، فأنا أقدم اليه رجلا وأؤخر أخرى ، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الاسلام والمسلمين ، ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك ؟ فياليت أمى لم تلدنى ، ويا ليتنى مت قبل حدوثها وكنت نسيا منسيا ، الا أنى حثنى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ، ثم رأيت أن ترك

ذلك لا يجدى نفعا • فنقول : ان هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التى عقمت الأيام والليالى عن مثلها ، عمت الخلائق وخصمت المسلمين ، فلو قال قائل : ان العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم والى الآن لم يبتل بمثلها لكان صادقا ، فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها وما يدانيها »[١] •

ثم يستشهد بقول المولى عز وجل حين يقول : « واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال » •

ودخلت الخلافة الاسلامية بعد سقوط بغداد فى يد المغول فى طور جديد من أطوارها ، فبعد أن قوض المغول خلافة بنى العباس فى العراق عمد السلطان (الظاهر بيبرس) المملوكى الى اقامة الخلافة العباسية من جديد فى القاهرة عاصمة دولة المماليك رغبة منه فى أن يخلع على حكمه صفة شرعية وكان للمكانة التى نالتها مصر بانتصارها على التتر لأول مرة أثر كبير فى رفعتها فاتجه العالم الى مصر ورضى أن تكون دار الخلافة بها بعد العراق وأن تكون القاهرة بدل بغداد •

وقد شغر منصب الخلافة ثلاث سنين من سنة ٦٥٦ هـ الى سنة ٥٦٩ هـ ، وقد رأى المسلمون أن عملية اقامة خليفة مهما يكن ضعفه فانه رمز للوحدة الاسلامية وربما يصبح الرمز حقيقة فى يوم من الأيام •

فاستدعى الظاهر بيبرس رجلاً من نسل بنى العباس سنة ٦٥٩ هـ سمى بالمستنصر وقلده الخلافة فى القاهرة ، ولم يكن للخليفة العباسى فى مصر شيئا من السلطة فى ظل سلاطين المماليك من سنة ٦٥٩ — ٩٢٣ هـ فقد أدى نظام الخلافة الاسلامية فى هذه الفترة الى الانهيار • فانفصلت السلطة الزمنية السياسية عن السلطة الدينية ، حيث تقلد سلاطين

---

(١) عز الدين بن الاثير ، الكامل فى التاريخ ، جـ ١٢ ص ٣٦١ ، طبعة دار صادر للطباعة ، بيروت ١٣٨٦ هـ/١٩٦٦ م •

المماليك السلطة الزمنية السياسية وتركوا للخليفة العباسى السلطة الدينية مثل الظهور فى بعض الاحتفالات الدينية بمطلع العام الهجرى والولد النبوى الشريف ورؤية أهلة الشهور العربية والاحتفال بالعيدين وتنصيب أحد سلاطين المماليك بعد تغلبه على السلطة وحصوله عليها بالغلبة فيأتى بعد ذلك دور الخليفة من الناحية المظهرية فحسب • وتردت الخلافة الاسلامية فى هذه الفترة الى الحضيض فيذكر المؤرخ المصرى أحمد بن اياس فى حوادث سنة ٩٢٣ هـ أن الخليفة المتوكل على الله آخر الخلفاء العباسيين فى القاهرة كان من بين موارده بعض أموال صناديق النذور التى تجمع من أضرحة آل البيت بالقاهرة • وكان المتوكل على الله هو الذى يتــولى النظارة على مشهد السيدة نفيسة « ويقول ابن اياس أيضا بأن النظارة على ذلك المشهد كانت بيد الخلفاء من قديم الزمان »(٢) •

ومهما يكن من شيء فان سلاطين المماليك استفادوا من وجود الخليفة بالقاهرة ، فقد أسبغت عليهم هذه المسألة قوة وصيتا فى العالم الاسلامى وجعلت منهم سلاطين على العالم الاسلامى عامة لا ســلاطين مصــر وحــدها(٣) •

وفى غضون ذلك تعرضت منطقة القلب من العالم الاسلامى فى الشام ومصر لهجمات صليبية غادرة شنها الغرب المسيحى بهدف قهــر الاسلام فى عقر داره والقضاء على المسلمين ، وقد بدأت هذه الحروب عام ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) بالحملة الصليبية الأولى ثم انتهت بســقوط عكا فى يد المسلمين بقيادة السلطان المصرى الأشرف خليل بن المنصور قلاوون سنة ٦٩١ هـ (١٢٩١ م) وضــياع الممتلكات الصــليبية فى الشــام الى الأبد •

---

(٢) أحمد بن اياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، الطبعة الثانية ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٦٠ م ج ٥ ص ٢٩٢ •

(٣) الامام محمد أبو زهرة الوحدة الاسلامية ، ط ٢ ص ٢٢٢ •

وحفلت فترة الحروب الصليبية بالعديد من التجارب والعبر المستفادة بالنسبة للمسلمين والصليبيين على السواء • وقد تبلورت هذه الدروس المستفادة بالنسبة للصليبيين فى وصية كتبها لويس التاسع ملك فرنسا الذى قاد الحملة الصليبية السابعة على مصر فى عام (١٢٤٩ م) حيث نزل فى دمياط وزحف على المنصورة حيث منى فيها بهزيمة نكراء فى موقعة عرفت بموقعة المنصورة عام ١٢٥٠ م وفيها تم أسر لويس وسجن بالمنصورة فى دار ابن لقمان التى لا تزال على حالها الى الآن ثم أفتدى نفسه من الأسر بمبلغ من المال وعاد الى بلاده يجر أذيال الخيبة والفشل •

وقد أتاحت فترة السجن للويس فرصة هادئة للتفكير بعمق فى السياسة التى يجب على الغرب اتباعها بعد ذلك اذا ما فكر فى غزو الشرق الاسلامى وصاغ هذه السياسة فى وصية ، وكانت أهم بنود هذه الوصية هى :

أولا : تحويل الحملات الصليبية العسكرية الى حملات صليبية سلمية تستهدف الغرض نفسه ، ويكون سلاح الحملات الجديد هو اثارة الخلافات بين الأوساط الاسلامية واشاعة التفكك فى وحدة المسلمين فينهار بذلك الاسلام •

ثانيا : استخدام من يمكن اغراؤهم من مسيحيى الشرق فى تنفيذ سياسة الغرب •

ثالثا : انشاء قاعدة للغرب فى قلب الشرق العربى يتخذها الغرب نقطة ارتكاز لقوته الحربية للقضاء على الاسلام وعين لذلك ساحل الشام[٤] ثم أضاف الغرب بعد ذلك مصر ، واتضحت بذلك أهمية الشام

---

(٤) محمد على الغتيت ، الشرق والغرب من الحروب الصليبية الى حرب السويس ، المرحلة الأولى فى الصراع بين الشرق والغرب ، الدار القومية للطباعة ، القاهرة ، لم تذكر سنة الطبع ، ص ٦٥—٦٦ •

ومصر باعتبارهما القاعدة المعنوية والاستراتيجية للدفاع عن الاســلام الى كونهما رأس جسر يمكن للغرب عبوره متسللا الى آسيا وأفريقيا[٥] .

وسوف نرى فيما بعد كيف حاول الغرب الاستفادة من بنود هذه الوصية سواء فى مجال استعمار الشعوب الاسلامية أو فى مجال الغزو الفكرى فيها .

أوضـــاع المغرب الاسلامى والأندلس :

هذا عن شرقى العالم الاسلامى وقلبه أما فى غربى العالم الاسلامى فان الأندلس كانت قد تغير حالها من الوحدة الى التمزق بسبب تفــرق أهلها فان تلك البلاد التى عاشت ردحا طويلاً من الزمن نحو سبعة قرون فى ظل وحدة سياسية قوية أصبحت ممزقة تجد فى كل ناحية أمــيرا ودولة ، وصدق قائلهم حين قال :

ألقاب مملكة فى غير موضـــعها　　　كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد

وانتهى بهم هذا التفرق الى دمار ، وأخذ الأسبان يقتطعون منهـا الاقليم تلو الاقليم ، وبينما كانوا هم متفرقين بدأ عدوهم يتحد ، فاتحد فرديناند ملك (أرجونة) وايزابيلا ملكة (قشتالة) ، فى مملكة واحدة عن طريق الزواج السياسى بين الملكين سنة ١٤٦٩ م ذلك الزواج الذى نتج عنه أسبانيا الحديثة التى تمكنت فى عهدهما من توحيد شــبه جزيرة الأندلس ما عدا البرتغال ، وفى عام ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) سقطت غرناطة آخر حصن للمسلمين فى أيديهما وطرد الأسبان ملكها « الزغبى » أى المشئوم وهو عبد الله بن أبى الحسين بن سعد بن بنى الأحمر ، وتم اخراج عمه أبى عبد الله « الزقل » أى الشجاع من مالقة ، وتم بذلك اقصــــاء المسلمين عن الأندلس وبعدما استولى الكاثوليك على غرناطة أبرمو صلحا مع أبى عبد الله ضمن للمسلمين حرية العبادة ، ولم يمر عليه زمن يسير حتى نكث الملكان العهد وأخذا يضطهدان المسلمين الذين لم يجدوا بدا

---

(٥) المرجع السابق ، ص ٨٤ .

من الفرار بعدما ضيق عليهم الكردينال «فراى دون فرنسيسكو خمينيس» المعروف عند العرب « بابن الخميس » الذى كان الوزير الأول للملكين الكاثوليكيين ، وتنصر الكثيرون ممن بقى من المسلمين فى الأندلس وأخفوا الاسلام وخرج من خرج فى سنة ٩٠٦ هـ (١٥٠١ م) ومما زاد ابن خميس قوة وجرأة وصية الملكة ايزابيلا التى قالت فيها بتاريخ ٢٤ من نوفمبر ١٥٠٤ م (٩٠٩ — ٩١٠ هـ) قبل موتها ما يلى :

« أطلب من ابنتى الأميرة والأمير زوجى أن يهتما بأمور الايمان (أى الدين) المقدس وأن يشتغلا بدون انقطاع بغزو أفريقيا وبمحاربة الكفار فى سبيل الدين (تعنى محاربة المسلمين) »(٦) .

وقد أثارت هذه المحن التى توالت على الأندلس فى تلك الفتـــرة المظلمة من تاريخها لوعة الشعر والأدب فبكاها الشـــعراء والأدباء يوم لا ينفع البكاء ولا يجدى .

ونظم شاعر العصر أبو الطيب صـــالح بن شريف الرندى مرثيته الشهيرة التى ما زالت تعتبر حتى اليوم من أروع المراثى القومية وأبلغها تأثيرا فى النفس ، وفيها يبكى قواعد الأندلس الذاهبة ويستنهض همم المسلمين لانجاد الأندلس وغوثها ، ولكن لا سميع ولا مجيب ، على الرغم من أن الدولة العثمانية الفتية كانت قد نشأت منذ زمن بالمشرق الاسلامى واشتد عودها وتمكنت فى سنة ١٤٥٣ من فتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، ولكنها كانت مشغولة بالتوغل فى أوربا من ناحية الشرق ، وكانت تستطيع أن تمد يد العون الى المسلمين فى الأندلس ولكن ذلك لم يحدث ، كما كانت هناك الدولة المملوكية التى بدأت تضمحل فى مصـــر

---

(٦) عبد الحميد بن أبى زيان ، دخول الأتراك العثمانيين الى الجزائر ، طبع الجزائر سنة ١٣٩٣ هـ/١٩٧٣ م ص ١٤ ، ولقد توفيت ايزابيلا فى نفس السنة ١٥٠٤ ، ومن الجدير بالذكر أن زوجها الملك فرديناند توفى ســـنة ١٥١٦ وملك من بعده حفيده شارل الخامس ١٥١٦ تحت وصـــاية الوزير ابن الخميسى وانفــرد شارل بالسلطة من ســـنة ١٥٢٧ م وتخلص من ابن الخميسى وقيل ان حاشيته دست له السم فى الطعام .

والشام ، وكانت مشغولة بالتجارة وكثرة الفتن والانقلابات فلم تفعل شيئا .

واليك بعض ما جاء فى مرثية الرندى التى خلدت ذكر ناظمها على كر الأحقاب :

لكل شىء اذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش انسان
هى الأمور كما شاهدتها دول ... من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقى على أحد ... ولا يدوم على حال لها شان
فجائع الدهر أنواع منوعة ... وللزمان مسرات وأحزان
وللحوادث سلوان يهونها ... وما لما حل بالاسلام سلوان
دهى الجزيرة أمر لا عزاء له ... هوى له أحد وانهد ثهلان

* * *

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية ... وأين شاطبة أم أين جيان
وأين قرطبة دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شان
وأين حمص وما تحويه من نزه ... ونهرها العذب فياض وملآن
تبكى الحنيفية البيضاء من أسف ... كما بكى لفراق الالف هيمان
على ديار من الاسلام خالية ... قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما ... فيهن الا نواقيس وصلبان

* * *

يا راتعين وراء البحر فى دعة ... لهم بأوطانهم عز وسلطان
وحاملين سيوف الهند مرهفة ... كأنها فى ظلام النقع عقبان

أعندكم نبأ عن أهـل أندلس فقد سرى بحديث القوم ركبـان
فيارب أم وطفـل حيل بينهمـا كما تفـرق أرواح وأبـدان
وطفلهمثل حسن الشمس اذ طلعت كأنمـا هى ياقوت ومرجـان
يقـودها العلج للمـكروه مكرهة والعين باكيـة والقلب حـيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمـد ان كان فى القلب اسلام وايمان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم أسرى وقتلى فما يهتز انسان
لماذا التقاطع فى الاسلام بينكم وأنتم يا عبـاد الله اخـوان(٧)

وكان سقوط الأندلس فى يد المسيحيين نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الاسلام وقف المسلمون بعدها موقف الدفاع ومازالوا حتى يومنا هذا • وأغرى هذا النجاح الأوربيين بمحاصرة العالم الاسلامى •

وكانت خطة الأسبان فى الأندلس تتلخص فى رغبتهم فى القضـاء نهائيا على اهالى المسلمين فى الأندلس تمهيدا لاقامة دولة تعتمد قبـل كل شىء على مواطنين أسبانيين مسيحيين • كما تشتمل هذه الخطة على تطويق أقاليم المغرب العربى واحتلال موانيه المطلة على البحر المتوسط ، واحتلال أقاليم أفريقيا الواقعة الى جنوبه ان لم تتمكن من احتلال المغرب العربى نفسه وتحويله الى المسيحية وتحويل ميدان الحرب من الأندلس الى بلاد المسلمين وظهرت اذ ذاك السفن الأوربية الحربية التى كان دأبها الوحيد قطع الطريق على السفن العربية ونهبها والهجوم على السـواحل المغربية ومحاولة احتلال الأراضى واقامة مراكز استعمارية سـماها الأسبان « بربسيديوس » وسماها البرتغاليون « فرونيتراس »(٨) •

---

(٧) راجع هذه المرثية كاملة فى كتاب : نفح الطيب ج ٢ س ٥٩٤ — ٥٩٥ وفى كتاب أزهار الرياض ، ج ١ ص ٤٧—٥٠ •
(٨) عبد الحميد بن أبى زيان : دخول الأتراك العثمانيين الى الجزائر ، ص ١١ •

وكان المغرب العربى فى تلك الآونة يرزح تحت آفة الانقسام التى هى أشد الآفات فتكا بقوة المسلمين ، وجعلت ممالك المغرب تضعف شيئا فشيئا بسبب الخصومات التى بين الزيانيين وأبناء عمهم بنى مرين منذ نشوء مملكتهما ، وبينهما وبين الحفصيين فى تونس الذين أخذوا يتوسعون فى المغرب الأوسط ولم يستطع بنو زيان[٩] ردهم وحماية رعاياهم بشرق الجزائر فى وقت ظهر البرتغاليون فى شواطىء المحيط الأطلسى ، ومن جهة أخرى تكونت طوائف فى الصحراء الجزائرية والتونسية وانفردت بالحكم وانفصلت عن السلطة المركزية لتلمسان أو تونس أو فاس ، وزاد الطين بلة سيطرة العرب الرحل فى الهضاب العليا وتجبرهم على المدن والقرى وازدداد عسفهم وظلمهم ، وتعديهم على الأهالى وفرضوا عليهم الاتاوات والضرائب غير الشرعية ، وتكونت لصوصية فى الصحارى وفى الجنوب وأخذت العصابات تقطع الطرق وتحجز القوافل الآتية من وسط أفريقيا أو الذاهبة اليها ، وتكونت اقطاعية مغربية فى الأقطار الثلاثة فى العائلات البارزة العربية والبربرية أخذت تفرض نفسها على الممالك المرينية والوطاسية والزيانية والحفصية التى أصبحت تحسب لها حسابا وتدخل نفوذها فى الاعتبار وتمنحها الأموال وتستعين بها فى الشدائد .

وتكونت عصبيات بحرية كونت شبه جمهوريات بحرية فى شواطىء البحر المتوسط والمحيط الأطلسى مثل طرابلس وجربه وبجاية وجزائر بنى مزغنة وشرشال ووهران وتطوان وسلا وغيرها[١٠] .

كانت هذه هى الحالة التى كان عليها المغرب فى وقت تقوى فيه الأسبان بسبب اكتشافهم أمريكا وكسبهم الثروات الواسعة ، كما حاول البرتغاليون الالتفاف حول العالم الاسلامى عبر جنوب أفريقيا ، وذلك بفضل نهضتهم ، وتأخر المسلمين ، تلك النهضة التى اعتمدت على العلوم

---

(٩) كانت تلمسان عاصمة بنى زيان .
(١٠) المرجع السابق ، ص ١١ — ١٢ .

الاسلامية التى كان المسيحيون يتلقونها عن المسلمين فى الجامعات العربية بالمشرق والأندلس والمغرب وصقلية ، وبفضل الحروب الصليبية التى مكنتهم من نقل العلوم والتقدم الاسلامى الى بلادهم • فى الوقت الذى بدأت فيه المدنية الاسلامية فى الاضمحلال •

وكان من بين الأسباب التى جعلت الغرب يتفوق عسكريا على المسلمين هو اختراعهم للاسلحة النارية وأهمها البندقية والمدفع تلك الأسلحة التى احتكرها الغرب لصالحه فأحدثت خللا فى ميزان القوى لصالح الغرب المسيحى ولم يتمكن الشرق الاسلامى من الاهتداء الى صنعها وأخذ يعتمد على استيرادها بشروط مجحفة وأخذ الغرب يطورها لصالحه ويحتكرها الى يومنا هذا ولا يبوح بسرها للشرق الاسلامى الا فى الأشياء التافهة التى لا تحسم الموقف العسكرى ، وعندما استطاع الأسبان والبرتغاليون أن يركبوا المدافع على السفن الشراعية المتقدمة كان ذلك ايذانا بانقلاب ميزان القوى من الشرق الى الغرب ومن البر الى البحر وايذانا بميلاد امبراطوريات بحرية كالأسبان والبرتغاليين ومن بعدهم الهولنديون ثم الانجليز ، وسوف نرى فيما بعد كيف أن الأوربيين سينجحون فى اقتحام معاقل الشرق الاسلامى ، ولا يملك المسلمون سوى الاستسلام لهم بسبب قوتهم القاهرة •

التآزر التركى المغربى للدفاع عن شمال أفريقيا :

لقد حاول أبناء المغرب العربى فى تلك الآونة الحرجة من تاريخ بلادهم الدفاع عن سفن المهاجرين الأندلسيين ، ووقف هجمات السفن المسيحية على أساطيلهم وموانيهم ، تلك الهجمات التى نشرت القرصنة على نطاق واسع فى المنطقة وكان رد الفعل الطبيعى لدى أبناء المغرب أنهم عملوا على الثأر والانتقام من المسيحيين وسفنهم بعد كل حادثة تقع للمسلمين الفارين من وجه الأسبان ، ولقد أطلق الأوروبيون فى كتبهم على أعمال المسلمين المغاربة فى الدفاع عن الأندلسيين وعن الشواطىء المغربية اسم القرصنة ، ولكن فى هذا تجن على الحقيقة ، فهى عملية دفاع

ضد المعتدين الأوروبيين وأسمها الحقيقى هو الجهاد البحرى ، وسمى (ابن خلدون) القرصان (غزاة البحر) • وقد بدأت هذه الأعمال البحرية على أيامه فى أواخر القرن الثامن الهجرى ومطلع التاسع الهجرى •

وله وصف دقيق لهذه الحروب البحرية وادراك لما كان يجرى من تحول فى ميزان القوى البحرى لصالح الأوروبيين نتأمله فيما يلى :

« وكانت أمة الفرنجة وراء البحر الرومى فى الشمال قد صار لهم تغلب ودولة بعد انقـــراض دولة الروم فملكوا جزائره وسردانية وميـــورقة وصقلية وملأت أساطيلهم فضاءه ثم تخطوا الى سواحل الشام وبيت المقدس فملكوها وعادت لهم سورة التغلب فى هذا البحر بعد أن كانت سورة المسلمين فيه لا تقاوم الى آخر دولة الموحدين بكثرة أســـاطيله ومراكبه فغلبهم الفرنج وعادت السورة لهم ، وزاحمتهم أساطيل المغرب لعهد بنى مرين أياما ، ثم فشـــل ريح الفرنجة واختـــل مركز دولتهم بافرنسة ، وافترقت طوائف فى أهل برشلونة وجنوة والبنادقة وغيرهم من أمم الفرنجة النصرانية ، وأصبحوا دولا متعددة ، فتمت عزائم كثيرة من المسلمين بسواحل أفريقيا لغزو بلادهم ، وشرع فى ذلك أهل بجاية منذ ثلاثين سنة فيجتمع النفير والطائفة من (غزاة البحر) ويصطنعون الأسطول ويتخيرون له الأبطال الرجال ثم يركبونه الى سواحل الفرنجة وجزائرهم على حين غفلة فيتخطفون منها ما قدروا عليه ويصـــادمون ما يلقون من أساطيل الكفرة فيظفرون بها غالبا ويعودون بالغنائم والسبى والأسرى ، حتى امتلأت سواحل الثغور الغربية من بجاية بأسراهم تضج طرق البلد بضجة السلاسل والأغلال عندما ينتشرون فى حاجاتهم ويغالون فى فدائهم بما يعتذر منه أو يكاد ، فشق ذلك على أمم الفرنجـــة وملأ قلوبهم ذلا وحسرة وعجزوا عن الثأر به ، وصرخوا على البعد بالشكوى

الى السلطان بافريقية فصم عن سماعهم وتطارحوا سهمهم ونكلهم فيما بينهم وتداعوا لنزال المسلمين والأخذ بالثأر منهم »[(١١)] ٠

وتلك الحروب البحرية التى اصطلح على تسميتها فى القـــرون المتأخرة بالقرصنة هى فى الحقيقة كما ذكرنا اختراع أوربى ، وحتى الكلمة دخيلة على العربية فلا يوجد فى اللغة العربية بديل لها وهى فى الغالب معربة فى القرن التاسع الهجرى ، وهى مشتقة من « كورسه » بالايطالية و« كورس » بالفرنسية وقد بدأت القرصنة منذ أواخر القرن الثـــامن الهجرى بصفة عنيفة بين المسلمين والنصارى ودامت أكثر من خمســة قرون ، بدأها النصارى من مختلف البلدان المجاورة للبحر المتوســـط ، ومهر فيها الأتراك وأهل الجزائر ، وازدادت شدة بعد استيلاء فرديناند وأيزابيلا على غرناطة سنة ١٤٩٢ م ٠

ويزعم المؤرخون الأوروبيون أنها كانت من أعمال المسلمين انتقاما من المسيحيين الذين أخرجوهم من بلادهم ، نعم لقد أورث هذا الطرد حقدا شديدا فى قلوب أهل الأندلس المهاجرين فأرادوا الانتقـــام من الغاصبين الظالمين ، وأشهروا الحرب عليهم لعلهم يسترجعون مساكنهم وأموالهم ، وكان الأوربيون يفعلون مثلما يفعل المسلمون بل أكثر من سبى وقتل وفتك واستعباد وبيع الأسرى رقيقا وارغام هؤلاء على العمــل المرهــق ، ويبيعون الرجال والنســاء والأطفـــال وينصرونهم اكراها ، ويستخدمونهم فى منازلهم وفى حقولهم وحدائقهم ، ولكن المؤرخين نسبوا تلك الأعمال الى المسلمين فقط كراهية وظلما ٠

ويذكر تاريخ الاستعمار أن أسبانيا ابان سيطرتها على المستعمرات فى الدنيا الجديدة ، جنت من وراء ذلك ثراء طائلا ، وتسبب هذا الثراء

---

(١١) عبد الرحمن بن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، طبعة دار الكتاب اللبنانى سنة ١٩٥٩ ، ج ٦ ، ص ٩٠٢ ٠

فى حقد الدول الأوربية الأرخى وسال له لعاب المغامرين الأوروبيين ، وسمع المغامرون الأروبيون بقوافل الأسبان البحرية المحملة بالمعادن الثمينة فى طريقها بالمحيط الأطلسى الى أسبانيا فتعرضوا لها وقاموا بالسطو عليها فى المحيط الأطلسى وكان هؤلاء اللصوص وغيرهم من القراصنة الأوروبيين .

وهكذا كان الأوربيون أول من احترف القرصنة البحرية فى المحيط اطلسى ولكنهم ألصقوها بغيرهم من المسلمين الذين كانوا يدافعون عن أنفسهم أمام الزحف الاستعمارى من المغاربة وسكان الخليج العربى .

ويذكر التاريخ أن قراصنة القديس يوحنا تأسست جماعتهم فى بيت المقدس عام ١٠٧٠ م بمعونة الصليبيين والبابوية فى روما ، وبعد أن طرد المسلمون الصليبيين من الشام نقلت هذه الجماعة مقرها الى قبرص عام ١٢٩٢ م مؤقتا ، ثم انتقلوا الى رودس عام ١٣٠٦ م واستقروا بها عام ١٣٠٩ م وقد ساعدوا بحماس شديد كل الحملات الصليبية المتوجهة الى مصر ، وآسيا الصغرى وخاصة الاستيلاء على أزمير عام ١٣٤٤ ونهب الاسكندرية عام ١٣٦٥ ، وظلوا برودس الى أن نجح السلطان سليمان القانونى فى اجلائهم عنها عام ٩٢٩ هـ (١٥٢٢ م)[١٢] وتمركزوا فى مالطة بعد ذلك وظلوا يمارسون القرصنة فى البحر المتوسط ضد السفن والموانى الاسلامية الى أن قضى عليهم نابليون بونابرت وهو فى طريقه الى مصر سنة ١٧٩٨ لأنهم كانوا أعداء للثورة الفرنسية التى عادت البابوية وحاربتها .

ولعل من الجدير بالذكر أن القرصنة ظلت باقية من العصور الوسطى حتى سنة ١٨٥٦ حيث انعقد مؤتمر باريس لتصفية حرب القرم وقرر

---

(١٢) محمد كمال الدسوقى : « العثمانيون وقراصنة رودس » بحث منشور فى مجلة مركز البحث العلمى بجامعة أم القرى ، العدد الثانى ، سنة ١٣٩٩ هـ .

المؤتمر الغـــاءها ، ومن الغـــريب أن الولايات المتحـــدة الأمريكيـــة وأسبانيا والمكسيك امتنعت اذ ذاك عن الالتزام بالغـــائها ، وان كانت الولايات المتحدة وأسبانيا حرمتا على نفسيهما ذلك فيما بعد ســـنة ١٨٩٨ م(١٣) •

وبدأ البرتغاليون يحتلون الموانى المغربية المطلة على المحيط الأطلسى وبدأ الأسبان أيضا يحتلون الموانى المغربية المطلة على البحر المتوسط •

فاحتل الأسبان المرسى الكبير سنة ١٥٠٥ م ووهران سنة ١٥٠٩ م حيث قتلوا أربعة آلاف مسلم وأسروا ثمانية آلاف واحتلوا احدى الجزر الصغيرة المواجهة للشاطىء الافريقى• واتخذوها قاعدة حربية للهجوم على ذلك الشاطىء وضربه بالقنابل ، ولم تكن هذه الجزيرة تبعد عن الشاطىء الا بمسافة ٣٠٠ متر وهى الجزيرة التى أصبحت فيما بعد نواة لبنـــاء مدينة الجزائر عاصمة دولة الجزائر الحالية •

وفى عام ١٥٠٨ احتلوا حجر باديس ، وفى العام التالى استولوا على بجاية وفى سنة ١٥١٥ احتلوا ميناء طرابلس وقاموا بتدبير منشآت المدينة كما استولوا على وهران وغيرها من المدن الساحلية ، وبذلك تناثرت على طول الساحل الشمالى لافريقية ابتداء من طرابلس الى المغرب الأقصى محطات عسكرية اتخذها الأســـبانيون ومن قبلهم البرتغاليون جيـــوبا صليبية(١٤) •

وابان هذا الصراع بين المسلمين من ناحية والأسبان والبرتغاليين من ناحية أخرى تطلعت أنظار المغاربة الى اخوانهم المسلمين فى الشرق العربى من أجل مؤازرتهم فى كفاحهم المصيرى لئلا تتكرر المأساة التى

---

(١٣) عبد الحميد بن أبى زيان : مرجع سبق ذكره ، ص ١٧—٢٢ •
(١٤) د• عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها • الجزء الثانى ، ص ٩٠١ ، طبعة مكتبة الانجلو المصرية ، القـــاهرة ١٩٨٠ •

وقعت فى الأندلس وخاصة أن العدو بدأ ينفذ الأسلوب الذى أوصى به لويس التاسع ملك فرنسا وهو احداث الوقيعة بين زعماء المسلمين ونصرة فريق منهم على فريق آخر وهو أسلوب فرق تسد . فجاءهم الرد من الأتراك المناضلين فى البحر ، وكان من أبرز الأسماء التى لمعت فى مجال مؤازرة المغاربة هما الأخوين التركيين « عروج » و« خير الدين » بربا روسا الذين دافعا عن المغرب الاسلامى دفاعا مستميتا لتكوين وحدة مغربية تقف أمام الأطماع المسيحية فى وقت تهدد المغرب الاسلامى بالزوال .

ويرجع نسب عروج وخير الدين الى والدهما يعقوب بن يوسف كان تركيا يعيش فى جزيرة مدلى ببحر الأرخبيل من بقايا الفاتحين المجاهدين وكان متزوجا من سيدة أندلسية ولدت له ذرية من بينها عروج وخير الدن ، ونشأ أولاد يعقوب نشأة اسلامية صلبة وترعرعوا فى حجر الجهاد الاسلامى العنيف يوم كانت الملحمة عامة وعارمة فى البر والبحر بين المسيحية والاسلام ، واذا كان الدم الأندلسى يجرى فى عروقهم عن طريق والدتهم كان نداء الدم قد قادهم للجهاد فى الحوض الغربى من البحر المتوسط حيث كانت دولة المسلمين تذل وتهان وتنقرض بالأندلس(١٥) .

توجه عروج(١٦) الى الناحية الغربية من البحر المتوسط وطلب من سلطان تونس الحفصى (محمد بن الحسن) أن ترسو سفنه فى موانى بلاده فقبل السلطان بشرط أخذ أخماس الغنائم من بضاعة ورق وسفن ، واتخذ عروج أولا جزيرة (جربه) مركزا وسماه أو منحه سلطان تونس لقب الولاية على هذه الجزيرة وحط رحاله بها منذ سنة ١٥٠٠ م وأخذ

---

(١٥) احمد توفيق المدنى ، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا ، ص ١٥٠ — ١٥٧ ، نقلا من عبد الحميد بن ابى زيان ، مرجع سبق ذكره ص٣٩ .

(١٦) ولد عروج سنة ١٤٧٤ م وكانت ولادة اخيه خير الدين حوالى ١٤٨٦ ، المرجع السابق ، ص ٢٢٦ .

ينطلق منها ويغدو اليها غازيا سواحل الافرنج ثم اتخذ تونس قاعدة له بصفة عامة • وكان يصحبه فى جهاده أخوه خير الدين •

أنواع المجاهدين فى جيش عروج :

كان عروج يستعين بالمجاهدين من مختلف النـواحى المغربية من الجزائر وتونس والمغرب ومن الزنوج ومن أسرى الأوربيين الذين اعتنقوا الاسلام الذين يسميهم النصارى بالمرتدين ، والعنصر الغالب والقوى فى جيش عروج أهل الأندلس الذين طردوا من ديارهم أو فروا منهـا ، وكانوا أشد الناس صلابة فى الحروب وبفضلهم كان ينتصر عروج على أعدائه لشجاعتهم وشدة بأسهم وهم أقوى الناس عداوة للاسبان لمـا قاسوه من اضطهاد وتشريد من جانبهم • وكان عروج قد أسدى اليهم معروفا بنقله اياهم من السواحل الأسبانية الى المغرب وخلصهم من قبضة عدوهم ، وقد حمل منهم ما يزيد على عشرة آلاف مهاجر فى سفنه كما حمل منهم أخوه خير الدين من بعده ما يزيد على ٧٠٠٠٠ر٧٠ سبعين ألفـا فى سبعة أسفارا أو أكثر •

وكان المحاربون الأتراك فى سفن عروج قليلين جدا بالنسبة لسائر الأجناس ويذكر عبد الحميد بن زيان أن عدد الأتراك الأولين الذين كان يحارب بواسطتهم عروج وأخوه خير الدين كان ضئيلا جدا يعـد على أصابع اليد وكانوا من اليونان والشركس وأهل الروطى والألبانيين وكانوا جميعا ينتسبون للاتراك افتخارا بهم(١٧) •

وبعد موت فرديناند عام ١٥١٦ وخلفه شارل الخامس على حـكم أسبانيا نجح عروج فى دخول الجزائر فى هذه السنة وتملكها ودخل فى صراع مع الأسبان بها وقابلته مشاكل كثيرة من أصعبها موقف العـرب

---

(١٧) المرجع السابق ، ص ٤٣—٤٤ •

عملاء الأسبان بتلك البلاد • واستشهد على اثر بعض المعارك مع الأسبان حول تلمسان فى ٢٩ سبتمبر ١٥١٨ (١٣ من رمضان ٩٢٣ هـ)[١٨] •

كان عروج يبلغ من العمر عندما قتل أربعة وأربعين عاما ومما يذكر أنه كانت له لحية حمراء فأطلق عليه عروج بربروس ، أى ذو اللحيــة الحمراء ، وقد لحق هذا اللقب بعد وفاته باسم أخيه خير الدين وفاقت شهرته به شهرة عروج بهذا اللقب الذى أصبح لصيقا بخير الدين[١٩] •

وتولى من بعده أخوه خير الدين بربروسا الذى وجد صعوبة فى مقاومة الأسبان فى جو زادت فيه الخيــانات العربية ضــده من الحــكام السابقين فى شمال أفريقيا ، فوجد من الأفضل أن يدخل فى خدمة السلطان العثمانى ويعمل باسمه ،و من ثم طلب حماية السلطان سليم ، وقد منحه السلطان سليم لقب (بك بكوات أفريقيا) وأرسل اليه عددا من جنــود الانكشارية ثم سمح له بتجنيد الأهالى فى الدولة العثمانية نفسها لمساعدته فى عملياته الحربية فى غرب البحر المتوسط ودخلت الجزائر رسميا تحت السيادة العثمانية اعتبارا من عام ١٥١٩ ودعى للسلطان سليم على المنابر فى المساجد وضربت العملة باسمه[٢٠] ، وتمكن خير الدين من أن يستولى على المنطقة الساحلية من الجزائر ويستولى على القلعة التى بناها الأسبان على الجزيرة السالفة التى أصبحت عاصمة الجزائر فيما بعد سنة ١٥٢٩ :

وقد عمل خير الدين على تزويد أسطوله بوحدات بحرية خفيــفة وسريعة الحركة وأصبح أسطوله مرهو بـالجانب فى الحوض الغــربى للبحر المتوسط ومنحه السلطان العثمانى أيضا لقب (قبودان باشــا)

---

(١٨) المرجع السابق ، ص ٧٩ ، عبد الحميد بن ابى زيان : دخــول الأتراك الجزائر •

(١٩) عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية ، جـ ٢ ص ٩٠٧ـــ٩٠٨•

(٢٠) المرجع السابق ، جـ ٢ ص ٩١٢ •

وأعطاه القيادة العامة للاساطيل العثمانية فى تلك النواحى ، وحاول خير الدين توحيد أقطار شمال أفريقيا •

وأصبح خير الدين بذلك أكثر من مجرد أمير للبحر فقد غدا أميرا لدولة كبيرة وان كانت متحدة مع الدولة العثمانية وأصبح الحارس الأمامى للدولة العثمانية فى البحر المتوسط ، وكانت تسنده جميع قوات هذه الدولة فى صراعه مع الغرب •

ومن ناحية أخرى فقد بذل السلطان سليمان المشرع جهودا كبيرة فى تخليص طرابلس من يد الأسبان وقراصنة القديس يوحنا سنة ١٥٥١ م وعين عليها أول وال عثمانى هو مراد أغا فى نفس العام ، كما تمكنت الدولة العثمانية من اعادة تونس الى رحاب الحكم الاسلامى سنة ١٥٧٤ م •

موقف الأشراف السعديين فى مراكش :

كان للاشراف من آل بيت الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام أهمية كبيرة فى تاريخ بلاد المغرب منذ أن وصل الى مراكش (ادريس بن عبد الله الشريف) فى عام ١٧٢ هـ (٧٨٨ م) قادما من الحجاز وأسس دولة الأشراف الأدارسة بها وبنى مدينة فاس •

وابان الزحف البرتغالى الأسبانى على شمال أفريقيا كانت المغرب فى يد (الأسرة الوطاسية) التى فشلت فى الدفاع عن مراكش حتى سقطت جميع ثغورها فى أيدى البرتغاليين والأسبان ، وابان ذلك أيضا تطلعت أسرة شريفة هى أسرة الأشراف السعديين الى قيادة المغرب فى محنته ودخلت فى صراع ضد الدولة الوطاسية التى فقدت احترام المسلمين فى المغرب ، ونجح (محمد المهدى السعدى) فى القضاء على الأسرة الوطاسية ودخل مدينة فاس عام ١٥٤٩ م وتطلع الى تحرير الثغور

المغربية فاسترد « أصيلة » و« القصر الصغير » عام ١٥٤٩—١٥٥٠ م[٢١]، ولم يبق للبرتغاليين سوى سبتة وطنجه ومزغان •

والواقع أن الأشراف السعديين فى مراكش قاموا بدورهم فى الجهاد الدينى ضد الأسبان والبرتغاليين ، غير أنهم لم يقتنعوا بالانضمام الى الدولة العثمانية والانضواء تحت لوائها ، لأنهم اعتبروا أنفسهم أحق من العثمانيين بزعامة العالم الاسلامى والخلافة الاسلامية لأنهم أهل البيت الشريف ، واذا كانت الظروف تفرض على أحد القوتين الخضوع للقـوة الأخرى فليس هناك من المسلمين من يجادل فى أحقيـة الأشراف فى السيادة وحاولت قيادة الأشراف السعديين فى مراكش الاعتزاز بموقفهم وزعامتهم ومن ثم وقع صدام مؤسف بين الأشراف السعديين والجزائريين فى المغرب وحاولت كل دولة منهما النيل من الأخرى وكان الوقت يقتضى وحدتهما أو على الأقل تضامنهما أمام الزحف الأوربى على العـالم الاسلامى فى تلك الآونة •

---

(٢١) د. عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية ، مرجع سبق ذكره جـ ٢ ص ٩٣٣—٩٣٤ .

الفصل الثانى

الالتفاف الأوروبى

حول العـــالم الاســـلامى

من الأخطاء التى وقعت وما زالت تقع فى دراسة ظاهرة الالتفاف الأوروبى حول العالم الاســـلامى فى مطلع العصور الحديثـــة هى أن الجامعات الاسلامية تدرس هذه الظاهرة كما زيفها الغرب المســـيحى لنا على أنها نشأت فى البداية بدافع بحث الأوروبيين عن ظروف اقتصادية أفضل وبسبب تنافسهم فى المجال الاقتصادى انطلقوا فى مجال كشـــف أماكن حيوية لهم واستعمارها •

والواقع لكل من يدرس هذه الظاهرة ويدقق فى الظروف والملابسات السياسية والدينية التى صاحبتها يدرك غير ذلك ، يدرك اذا كان منصفا أن دوافعها كانت صليبية منذ البداية متعصبة مسرفة فى عدائها للمسلمين واضحة فى أهدافها ضدهم •

فقد بدأت قصة هذا الالتفاف الاستعمارى حول العالم الاسلامى مع نهاية القرن التاسع الهجرى « الخامس عشر الميلادى » عندما تم أخراج المسلمين من الأندلس ، وكانت خطة الأسبان تتلخص فى القضاء نهائيا على الأهالى المسلمين تمهيدا لاقامة دولة تعتمد قبل كل شىء على مواطنين أسبانيين مسيحيين ، كما تشمل هذه الخطة على تطويق أقاليم المغـــرب الاسلامى واحتلال موانيه المطلة على البحر المتوسط والمحيـــط الاطلسى واحتلال أقاليم أفريقيا الواقعة الى جنوبه ان لم تتمكن من احتلال المغرب الاسلامى نفسه وتحويله الى المسيحية • ونجح الأسبان والبرتغاليون فعلا فى احتلال بعض الموانى بالمغرب الاسلامى ، وامتد الصراع فى

هذه الجبهة زمنا طويلا حيث صمد المسلمون فى الدفاع عن شمال أفريقيا كما رأينا ، وذلك بفضل تضامن المغاربة مع الأتراك فى جهادهم ، وخرج المسلمون من هذه التجربة بقصة عظيمة من قصص التضامن النادرة فى حياتهم تعطيهم مفتاح النصر على عدوهم ان هم أرادوا لذلك سبيلا •

واتفق الأسبان والبرتغاليون على الالتفاف حول العالم الاسلامى وتوزعت أدوارهم ، فبينما يلتف البرتغاليون جنوبا حول أفريقيا ، ينطلق الأسبان نحو الغرب عبر الأطلسى بقصدالوصول الى شرق بلاد المسلمين بعدما تأكد لديهم كروية الأرض ، وذلك ليتمكنوا من حصار المسلمين واحكام القبضة عليهم •

والذى يؤكد هذا المخطط أنه عندما وصل الأسبان الى أمريكا لأول مرة أطلقوا على سكانها اسم الهنود الحمر ظنا منهم أنهم وصلوا الى شرقى بلاد المسلمين حيث بلاد الهند ، وسموا جزرها التى كانت أول محطة لرحالهم اسم « جزر الهند الغربية » وهذا يدل على ما فى نفوسهم من رغبة وعلى ما فى جعبتهم من مخططات ، ويبدو من هذا تفاهم الأسبان والبرتغاليين فى سير كل منهما فى اتجاه معين بحيث لا يتعارضان مع بعضهما ولا يصطدمان معا أبدا •

وركز الأوربيون فى كتاباتهم على أن العوامل التى دفعت الأوروبيين الى الشرق هى عوامل الكشف الجغرافى وحب المعرفة ثم أضافوا العامل الاقتصادى الذى يكمن فى رغبة البرتغاليين فى المشاركة فى أرباح التجارة الشرقية ، وأن البرتغاليين وقعوا تحت تأثير أهالى جنوه عندما كانت البندقية تحتكر الأسواق المصرية ، فاتجه أهالى جنوة عندئذ الى ملوك أسبانيا والبرتغال لتشجيعهم على الوصول الى الهند للقضاء على ثروة البندقية عدوتهم اللدود •

وانساق وراء هذه الأقوال كثير من الكتاب المسلمين وأدخلوا هذه الهجمة الاستعمارية الشرسة على شرقى العالم الاسلامى فى مجال

الكشوف الجغرافية والمنافسة الاقتصادية • وما زالت تدرس حتى يومنا هذا في مدارسنا وجامعاتنا في مناهج الجغرافيا وحركة الكشوف والتنافس الاقتصادي بين الدول الغربية وبين الشرق والغرب • واستبعد المزيفون تماما العوامل الدينية المبنية على الحقد والرغبة في القضاء على المسلمين ونشر المسيحية في الشرق وهي العوامل التي كانت واضحة في أقوال من خططوا لهذه الهجمة كما سنرى فيما يلي :

وآن لنا أن نتحرر من ذلك التزييف المتعمد الذي صاغه الغرب لنا ووضع في مناهج التعليم في بلادنا يوم أن كان الاستعمار ضاربا أطنابه فيها ويده من حديد يأمر وينهى ويوجه التربية والتعليم فيها الوجهة التي يريدها وتخدم أغراضه وتخفي أحقاده •

وللاستاذ محمود شاكر الكاتب الاسلامي والجغرافي المبدع محاولة طيبة لتوضيح الدوافع التي دفعت أوروبا للقيام بالهجوم على الشرق الاسلامي يبرز فيها الدافع الديني الصليبي بعد أن أهمله المؤرخون وغيرهم من الكتاب زمنا طويلا ، وينعى باللائمة على أولئك الذين ينقلون الآراء الأوروبية بلا تمحيص ولا تدبر ويؤكد على أن هذه المعلومات المزيفة والمغلوطة « ان بقيت كما هي ، وكما أوردتها أوربا بالذات فاننا سنبقى في مكاننا لا نتحرك ولا نتقدم في كتابة تاريخنا بأنفسنا شيئا ، وسنبقى تبعا لأوربا ومعلوماتها وتاريخها وكتاباتها ، نقلد دون ادراك ، ونأخذ من غير وضوح في الرؤية ونحاضر من غير روية ونتكلم من دون علم ونكتب دون مناقشة لا نختلف عن البدائيين ان لم نقل عن بعض أنواع الحيوان ، اننا بحاجة الى أن نناقش الفكرة قبل أخذها ونمحص الموضوع قبل عرضه على مجتمعنا وقبل تقديمه لأبنائنا وأجيالنا »[1] •

---

(١) انظر : محمود شاكر ، الكشوف الجغرافية ، دوافعها — حقيقتها من منشورات المكتب الاسلامي ، بيروت سنة ١٣٩٢ هـ/١٩٧٣ م ، ص ٤ •

ولا شك أن العوامل الدينية من أقوى العوامل التى دفعت الأوربيين للالتفاف حول العالم الاسلامى وفى طليعتهم البرتغاليون والأسبان • فعقب اجلاء المسلمين عن الأندلس فى أواخر القرن الخامس عشر ازداد مسيحيوا شبه جزيرة الأندلس تحمسا وشراسة فى مطاردة المسلمين خارجها وانتقل نشاطهم الى شمال أفريقيا وغربها يتعقبون المسلمين وراودتهم الآمال فى امكان محاصرة الاسلام عن طريق البحر وطعنه من الخلف وخاصة فى آسيا وأفريقيا •

وكان ثمة أمل يراود البرتغاليين ويرجون تحقيقه وهو الاتصال بملك الحبشة المسيحى لتطويق البلاد الاسلامية كوسيلة للقضاء على الاسلام • بل ان هذه الروح الصليبية استهدفت أيضا تحويل الحبشة الى المذهب الكاثوليكى وربطها بكنيسة روما وفصلها عن الكنيسة القبطية الأرثوذكسية بمصر وتكوين جبهة صليبيةم ع الحبشة ضد المسلمين ولقد ساعد على هذه الرغبة فى الاتصال بالأحباش ما روجه الأوروبيون من أساطير حول مملكة الحبشة ، فقد انتشرت فى أوروبا منذ القرن الثانى عشر الميلادى أسطورة القديس يوحنا ، وتحكى هذه الأسطورة أن بطريرك مسيحى اسمه القديس يوحنا أسس امبراطورية مسيحية كبرى فى الشرق وحكم الهند والصين والحبشة ، التى كانت تعتبر الجزء الغربى من تلك الامبراطورة ، وتحكى الأسطورة أنباء عجيبة عن هذه الامبراطورية وملكها المقدس ، وأن بلاده تنتج الذهب والأحجار الكريمة والتوابل وأن أمله الوحيد هو زيارة بيت المقدس ومحاربة أعداء الصليب وفى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى تبلورت هذه الأسطورة لدى الأوربيين بأن القديس يوحنا هو ملك الحبشة وتلاشت فكرة أنه ملك للصين أو الهند • وشاع بين الأوربيين فى نهاية القرن الخامس عشر أن ملكة هذه المملكة أرسلت رسالة الى البرتغاليين تعرب فيها عن رغبة الحبشة فى مخالفة البرتغاليين فوافق البرتغاليون على عرض الحبشة وامدادها بالمعونة العسكرية اللازمة ضد المسلمين •

وان رائحة الحقد والدوافع الصليبية لتبدو واضحة من الرسائل المتبادلة بين ملك البرتغال عمانويل (١٤٩٥ — ١٥٣١ م) وملكة الحبشة الينى فقد جاء فى احدى هذه الرسائل :

« باسم الله والسلام على عمانوئيل سيد البحر وقاهر المسلمين القساة الكفرة ، تحياتى اليكم ودعواتى لكم ، لقد وصل الى مسامعنا أن سلطان مصر جهز جيشا ضخما ليضرب قواتكم ويثأر من الهزائم التى ألحقها به قوادكم فى الهند ، ونحن على استعداد لمقاومة هجمات الكفرة بارسال أكبر عدد من جنودنا فى البحر الأحمر والى مكة أو جزيرة باب المندب ، واذا أردتم نسيرها الى جدة أو الطور وذلك لنقضى قضاء تاما على جرثومة الكفر ولعله قد آن الوقت لتحقيق النبوءة القائلة بظهور ملك مسيحى يستطيع فى وقت قصير أن يبيد الشعوب الاسلامية المتبربرة ، ولما كانت قواتنا متوغلة فى الداخل وبعيدة عن البحر الذى ليس لنا فيه قوة أو سلطان فان الاتفاق معكم ضرورى ، اذ أنكم أهل بأس شديد فى الحرب البحرية(٢) .

وكانت رحلات البرتغاليين الأولى تواقة للاتصال بمملكة الحبشة ولقد شجعت البابوية فى وما هذا المخطط الصليبى لغزو الاسلام فى عقر داره ، وتورط بعض البابوات فوصفوا الاسلام فى مراسيمهم بأنه طاعون(٣) ، وطالبوا ببذل الجهود لتنصير سكان المناطق التى يستولى عليها البرتغاليون والحيلولة بينهم وبين اصابتهم بالطاعون الاسلامى، وشجعت البابوية عملية الانخراط فى البحرية البرتغالية والاسبانية ، وكان البابا يعد المشتركين فى تلك الحملات بالنجاة من النار يوم الحساب وكانت

---

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٩ — ٣١ وأنظر أيضا : حامد عمار : علاقة الدول المملوكة بالدول الأفريقية .

(٣) انظر : د. عبد العزيز الشناوى ، أوربا فى مطلع العصور الحديثة الطبعة الأولى ، القاهرة سنة ١٩٦٩ ، الجزء الأول ، ص ٩٤ .

السفن تخـــرج ناشرة أشرعتها وعليها الصلبان مرسومة يرافقها دعــاة المسيحية المتعصبون لنشرها فى جميع البلاد المفتوحة ، ولقد عبر عمانوئيل ملك البرتغال الذى قامت فى عهده أول حملة بحرية الى الشرق عن أهم هذه العوامل فى خطبة طويلة نقتبس منها ما يلى :

« ان الغرض من اكتشاف الطريق البحرى الى الهند هو نشـــــر المسيحية والحصول على ثروات الشرق[٤] ».

كما عبرت الحملة الأولى بقيادة فاسكودا جاما فى يوليو ١٤٩٧ عن أغراضها خير تعبير ، فقد كانت سفينة القيادة تعلق فوق ساريتها علمــا كبيرا رسم عليه صليب ضخم ، ولقد قيل يومئذ ان الصليب والمدفع كانا رمزى القادم الجديد الذى دخل الى الشرق وكان رفع الشـــعار الدينى واستعمال القوة الضاربة ضد التجار المسلمين هو الذى دفعنا الى وصف هذه الحملات بأنها حملات صليبية .

ولقد سيطرت على الأسبان والبرتغاليين فى القرن العاشر الهجرى فكرة تحويل أعدائهم المسلمين الى المسيحية فى كل مكان يتواجدون فيه آسيا وأفريقيا وما حولها من جزر ، وكانت حملاتهم البحرية هى الوسيلة للوصول الى قلب العالم الاسلامى .

وكان المؤرخون المسلمون المعاصرون لاحداث الهجوم البرتغالى على شرقى العالم الاسلامى يفهمون هذه الأحداث على حقيقتهـــا ويدركون مراميها قبل تعرضها للتزييف بعد ذلك على يد المؤرخين الأوروبيين ، فها هو المؤرخ المسلم زين الدين الملباوى الذى أرخ للنفوذ البرتغالى فى

---

(٤) انظر : د. السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ، الطبعة الثانية ، من منشورات معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ســـنة ١٩٧٤ ، ص ٤٦ــ٤٧ .

(٥) انظر : د. أنور عبد العليم : ابن ماجد الملاح ، ص ٤٣ــ٤٤ .

البحار الشرقية ، وعاش فى غضون القرن العاشر الهجرى يشير الى الأهداف الدينية الصليبية بقوله :

« ثم ان بغيتهم العظمى وهمتهم الكبرى قديما وحديثا تغيير دين المسلمين وادخالهم فى النصرانية نعوذ بالله من ذلك[٦] .

اليهود يتجسسون لصالح الأوروبيين :

كان للمسلمين معرفة بالملاحة وعلوم البحار وكانوا متقدمين على أوربا فى هذا الميدان حتى مطلع القرن العاشر الهجرى ، وكان لهم نشاط ملاحى فى أرجاء المحيط الهندى وأرخبيل الملايو وبحر الصين فضلا عن البحر المتوسط (بحر الروم) والبحر الأحمر والخليج العربى ، وقد بذل الأوروبيون جهودا كبيرة فى التعرف على علوم المسلمين ومعرفتهم فى هذا الميدان ، وكان فى طليعة من بذلوا جهودا فى هذا الصدد الأسبان والبرتغاليون واستعانوا باليهود فى مجال الترجمة العربية وفى مجال التجسس ، وكان اليهود قد التجأوا الى البرتغال ومعهم علوم العرب وخرائطهم وجداولهم الفلكية ، وكانوا قد ترجموها الى العبرية . وكان لهذه العلوم الاسلامية أكثر الأثر فى تقدم البرتغاليين فى مجال الرحلات البحرية[٧] وقد ساعد اليهود على نجاحهم فى عمليات التجسس معرفتهم باللغة العربية . وقاموا برحلات بين المشرق والمغرب برا وبحرا لغرض جمع معلومات من الطرق البحرية من الغرب الى الشرق وعن الرحلات التجارية الى الهند والصين وعن مقدرة المسلمين العسكرية والبحرية وتظاهر هؤلاء بأنهم مسلمون .

ففى سنة ١٤٨٧ م أى قبل رحلة فاسكو دا جاما بعشر سنوات قام

---

(٦) انظر : زين الدين المليبارى ، تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتكاليين ، لشبونة ١٨٩٨ م ، ص ٤٦ .

(٧) انظر : د. أنور عبدالعليم : ابن ماجد الملاح ، ص ٤٢ـ٤٤ .

جماعة من الجواسيس اليهود متخفين فى زى المسلمين بالسفر الى مصر وكان على رأس هؤلاء الجواسيس :

الفونسو دى بايفا	Alfonso de Paiva
بيرو دى كوفيلهام	Rero de Covilham

وذكر الكاتب الايطالى المعاصر « انجلو بسكى » فى كتاب طبع حديثا عن جدة أن بيرو دى كوفيلهام من بين الرحالة الذين زاروا جدة فى سنة ١٤٨٧[٨] .

وقد انخرط هؤلاء الجواسيس فى قافلة الحج المتجهة من المغرب الى الحجاز عبر مصر ثم أقلعوا من السويس الى جدة متظاهرين بالاسلام ، وفى جدة استقلوا سفينة متجهة الى الهند ، وفى هذه الرحلة تمكنوا من جمع كثير من المعلومات عن طريق التجارة ووضع مراكزها الاسلامية بالهند ثم عادوا الى البرتغال عن طريق مصر ، وفى القاهرة التقى هؤلاء الجواسيس ببعثة تجسس يهودية أخرى كانت تضم ابراهام دى بيا ، ويوسف لاميجو وانضموا الى هذه البعثة واتجه الجميع الى هرمز ، ومروا فى طريقهم على « زيلع » ومنها الى الحبشة ، ثم عادوا الى مصر ومنها الى البرتغال ، وقد استطاعت هذه المجموعة الحصول على بعض الخرائط العربية عن المحيط الهندى ، وجمعوا معلومات تفصيلية عن التيارات البحرية والرياح الموسمية فى هذا المحيط ، وكيفية التخلص من منطقة الهدوء الاستوائى التى بقيت لغزا صعب حله لدى الأوروبيين حيث تهدأ الرياح فى هذه المنطقة الاستوائية ولا تتحرك السفن التى تسير بالشراع وهى المعروفة فقط آنذاك ولا يمكن التنقل شمالا الا فى الربيع مع حركة الشمس الظاهرة ، وفى الخريف جنوبا مع تلك الحركة .

---

(1) Angelo Pesce, Jiddah Portrait of an Arabian City, Falcom, Press, Italy 1977. P. 30

واستطاعوا أن يعرفوا أحوال جيش المماليك أقوى الدول الاسلامية آنذاك والتى تسيطر على شرق افريقيا والسواحل العربية فى البحر الأحمر وتساعد المسلمين فى حربهم ضد الأحباش والنصارى ، كما تعرفوا على أوضاع البلاد الداخلية . وعندما عادت هذه البعثة الى البرتغال قدمت كل هذه المعلومات الى السلطات الحاكمة فى لشبونة فاستعانت بها فى رحلاتها القادمة الى جنوب أفريقيا وشرقها الى الهند(٩) .

فضل المسلمين على البرتغاليين فى الوصول الى الهند :

كان للمسلمين معرفة دقيقة بالبحار وعلومها كما سلف أن ذكرنا ، وقد نقل اليهود هذه المعرفة الى البرتغاليين فتعلم البرتغاليون استخدام آلات الملاحة الاسلامية وخاصة البوصلة البحرية والاصطرلاب ووردة الرياح لمعرفة اتجاه الريح فى المحيطات ، وبعد أن اجتاز البرتغاليون رأس الرجاء الصالح فى سنة ٩٠٣ — ٩٠٤ هـ) ١٤٩٧ — ١٤٩٨ م (بقيادة فاسكو دا جاما لم يتحركوا من شرق أفريقيا الى الهند الا بمعونة بعض البحارة المسلمين .

ذلك أن فاسكو دى جاما اتجه شمالا الى سفالة وموزمبيق وممباسا وهى موانى اسلامية حيث قوبلوا باستقبال غير رحب ، وقد قام فاسكو دى جاما بقصف موزمبيق مما كون لدى سكان الساحل الأفريقى انطباعا مبكرا عن وحشية القادمين ، وفى « ماليندى » وهى الى الشمال قليلا من ممباسا . والتى كون البرتغاليون علاقة طيبة مع ملكها ، وقد كانت ماليندى هى نقطة الانطلاق الى المياه المفتوحة عبر المحيط الهندى بين أفريقيا والهند . حيث استطاع د ى جاما الحصول بضربه حظ على خدمات

---

(٩) انظر : عبد العزيز الشناوى ، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة مرجع سبق ذكره ، ص ٩٧ ، جـ ٩٨ .

وانظر أيضا : محمود شاكر : الكشوف الجغرافية ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٥—٢٦ .

بحار عظيم سماه البرتغاليون (معلموكنكا) أو « مولموكانا »[١٠] ويبدو أن هذا كان اسمه الفنى وعرفت شخصيته الحقيقية فيما بعد فى كتب بعض المؤرخين المسلمين مثل قطب الدين النهروانى فى كتابة البرق اليمانى فى الفتح العثمانى وابن ماجد أعظم بحار عربى يومئذ واسمه الكامل « أحمد بن ماجد النجدى » وهو من منطقة نجد فى وسط الجزيرة العربية كما يوحى بذلك اسمه ، وهو صاحب أفضل موسوعة عربية لعلوم البحار تحت عنوان :

« الفوائد فى أصول علم البحار والقواعد » ومن كتبه أيضا : « حاوية الاختصار فى علم البحار » كذلك ألف ثلاثين مؤلفا شعريا عبارة عن أراجيز بها ارشادات ملاحية لبيان طرق الملاحة بين السواحل والموانى المختلفة • ومعلومات ابن ماجد ليست مجرد معلومات نظرية يسردها فى علوم البحار وانما معلومات طبقها ابن ماجد عمليا أى أنه نقل المعرفة النظرية الى الطريق التجريبى العملى وهذا ما يشير اليه فى كتابه الفوائد فى قوم :

« ولم نستفد فى زماننا هذا شيئا له صيحة كعلومنا وتجاربنا واختراعاتنا التى فى كتابنا هذا ، لأنها مصممة مجربة وليس على التجريب شىء أحسن منه »[١١] •

---

(١٠) أحمد بن ماجد : كتاب الفوائد فى أصول البحار والقواعد ، تحقيق ابراهيم خورى وعزة حسن ، نشر فى دمشق سنة ١٩٧١ ، ص ١٦٠ •

(١١) انظر : قطب الدين النهروانى : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، طبعة دار اليمامة بالرياض ، ص ١٨—١٩ •

وانظر : يحيى بن الحسين : غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، القسم الثانى ، ص ٦٣٠—٦٣١ ، هامش ٥ •

وانظر : د• أنور عبد العليم : الفوائد فى أصول علم البحار ••• لابن ماجد ، بحث نشر فى مجلة تراث الانسانية المجلد الخامس ، عدد ٤ ص ٢٧٤، وكذلك لنفس المؤلف كتاب ابن ماجد الملاح من سلسلة أعلام العرب رقم ٦٢ وانجلوبسكى Angelo Pesce : op. cit., p. 70.

وبعض مؤلفات ابن ماجد فى المكتبة الأهلية فى باريس وبعضها فى مكتبة لينينجراد بروسيا وغيرهما ، وقد نشر بعض هذه المؤلفات وعلق عليها الفرنسى « جبرييل فران » والمستشرق الروسى « تيودور شرموفطكى » والكاتب العربى ابراهيم خورى ، وقد أيدوا جميعا ما ذكره قطب الدين النهروالى فى كتابه « البرق اليمانى ... » من أن فاسكو دى جاما لم يتمكن من الوصول الى الهند الا بفضل أحمد بن ماجد الملاح الذى صاحبهم فى الوصول الى الهند مرشدا لهم . وكذلك يقرر هذه الحقيقة المؤرخ الايطالى الرحالة أنجلوبسكى فى كتابه الذى نشر عن تاريخ جدة فى عام ١٩٧٧ .

وبعد مقابلة فاسكو دى جاما مع ابن ماجد اقتنع فاسكو دى جاما بمعرفة ابن ماجد بعد أن أراه خريطة بالمحيط الهندى بكل المخططات التى اتبعها المسلمون وعندما أراه فاسكو دى جاما الاسطرلاب الخشبى الذى يستخدمه فى رحلته لم يكن ذلك محل غرابة من ابن ماجد وقال له ان كثيرا من بحارة البحر الأحمر يستخدمون النجوم ويستخدم البحار نجوما معينة فى الشمال والجنوب وأيضا بعض النجوم التى تظهر فى الشرق والغرب ولا يستخدمون مثل هذه الأدوات ولكنهم يستخدمون أدوات أخرى والتى أحضرها ليريها لفاسكو دى جاما وكانت على شكل ثلاثة أطباق .

وقد أبحر دى جاما مع البحار العربى ، وبعد الابحار لمدة عشرين يوما وصلوا الى هدفهم وظهرت أمامهم جبال شامخة وهى الجبال التى تقع شرق كاليكوت على الساحل الغربى للهند وقد ظلوا ثلاثة أيام أخرى حتى وصلوا الى الشاطىء فى ٢٠ من مايو ١٤٩٧ المسمى ساحل الملبار .

ويعتبر هذا التاريخ نقطة تحول فى تاريخ العالم الاسلامى حدث أثره فى موانى الخليج العربى وموانى البحر الأحمر والبحر الأبيض الاسلامية .

وكان بثغر كاليكوت جالية كبيرة العدد من التجار المسلمين العرب ، وقيل ان فاسكو دى جاما حياه فى كاليكوت نفسها عربيان من تونس

خاطباه باللغة القشتالية ، ولذلك نجد بانيكار فى كتابه آسيا والسيطرة الغربية يعلق على هذا قائلا : فأين اذن أهمية استكشاف فاسكو دى جاما[١٢] .

وفى السواحل الهندية اكتشف البرتغاليون الأسعار الحقيقية للبضائع الشرقية ومروا بأماكن تجمعها على ساحل الملبار واكتشفوا الفوائد العظيمة التى ستجنى منها ، والشىء الثانى وهو على جانب كبير من الأهمية أنهم تأكدوا من تفوق السفن البرتغالية على السفن العربية والهندية حيث أن المدافع التى كان يستخدمها البرتغاليون غير معروفة فى المحيط الهندى ، وواجه المسلمون نتيجة لذلك تنافسا قويا على تجارة الهند ، وتعرض سلاطين مصر الذين كانوا يتحكمون فى كل طرق هذه التجارة الى الغرب لفقدان مصالحهم ، وأخطر من ذلك أصبح المسلمون مهددون فى عقر دارهم وأصبح البرتغاليون على وشك تحقيق حلمهم القديم وهو التحالف مع مسيحى الحبشة الشرقيين للهجوم على الاسلام وأرضه وأتباعه ومصالحه .

وقضى البرتغاليون ما يقرب من ثلاثة أشهر ونصف فى المياه الهندية قبل أن يبحروا فى طريق عودتهم الى بلادهم مع تغيير موسم الرياح فى رحلة العودة ، ففى أغسطس ١٤٩٨ م رحل دى جاما عائدا الى البرتغال فوصلها بعد عام تقريبا أى فى سبتمبر ١٤٩٩ م واستقبلته لشبونة عاصمة البرتغال استقبال الفاتحين ، بعد رحلة استمرت حوالى عامين التى أبحر فيها حوالى ٢٤ ألف ميل .

البرتغاليون يبنون مراكز استعمارية فى الشرق :

تركز نشاط البرتغاليين بعد وصولهم الى الهند فى تثبيت أقدامهم على شواطىء المحيط الهندى ومهاجمة السفن والمراكز التجارية الاسلامية

---

(١٢) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ، ص ٢٠ .

فى جميع جهات المحيط واستغلوا بعض الخلافات بين حكام الهند فى التدخل لنصرة فريق على آخر كما تدفعهم وصاياهم للتفريق بين الأشقاء مما أعطى لهم فرصة لتدعيم نفوذهم على الساحل الهندى واقامة بعض الحصون البرتغالية •

واتصف نشاط البرتغاليين الاستعمارى فى هذه المرحلة بامتزاج العوامل الصليبية بالعوامل الاقتصادية ، فقد حرصوا على نشر المسيحية فى المناطق المحيطة بمستعمراتهم التى أقاموها ، وكانت حملاتهم تضم بعض القساوسة لهذا الغرض واتصف موقفهم من المسلمين بالعداوة والعنف فقاموا بطرد المسلمين من مراكزهم التجارية بالهند وسواحل أفريقيا ، وطاردوا السفن التجارية الاسلامية وعملوا على اغراقها والاستيلاء عليها ، فقد قام فاسكو دى جاما أثناء رحلته الثانية الى الهند بمهاجمة احدى السفن الاسلامية التجارية وكانت تخص سلطان مصر واسمها « ماريام » أو « مريم » وكانت فى رحلة لها الى جدة وكانت تحمل أعدادا كبيرة من الحجاج الذين واجهوا حتفهم وكانت هذه السفينة مسالمة غير مسلحة واستولى على ما بها من بضائع ثم أمر باغراقها بما تحمل من ركاب[١٣] •

وبعد هذا الحادث توجه الأسطول البرتغالى الى « كناتور » وتقع الى الشمال من « كاليكوت » ، وكان حاكمها على خلاف مع حاكم كاليكوت فعقد معاهدة صداقة معه ثم عاد بعد ذلك الى كاليكوت طالبا من سكانها تعويضا على الخسائر التى لحقت به اثر اعتدائهم على سفنه دفاعا عن أنفسهم وتصرف معهم بقسوة شديدة لطخت اسمه بالعار ، فعندما اقترب من الميناء وجد به خمسين سفينة غير مسلحة فأسر خمسين شخصا من السكان كرهائن وأرسل للزاموربن تهديدا بأنه اذا لم تلب طلباته فانه سيبدأ حربا مبتدئا بقتل الخمسين رهينة ، ولما لم يأته أى جواب فانه

(١٣) انظر : Angelo Pesce : op. cit., p. 73.
وانظر أيضا : بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ، ص ٤٠ ، ٤١ •

شنق الخمسين سجينا وقطع أيديهم وآذانهم وأرسلها الى المدينة ، ثم بدأ ضرب المدينة بالمدفعية حتى تهدمت واحترق عدد من منازلها بما فى ذلك القصر الملكى ، ثم توجه الى « كونتشين » جنوب كاليكوت حيث عقد معاهدة أخرى مع ملكها •

وتحرشت السفن الاسلامية بأسطول فاسكو دى جاما ووقعت الحرب بين المسلمين يساعدهم الزامورين والبرتغال ، وقد رتب فاسكو دى جاما أسطوله وهو عائد الى « كناتور » فقسمه الى قسمين :

أحدهما : مكون من ثلاث سفن وخمسة قوارب تحت قيادة (سيدرى) وأمر هذه السفن أن تبحر قرب الشاطىء وتدمر كل شىء يصادفها •

أما القسم الآخر : فكان مكونا من عشر سفن أبحر بها وسط البحر وفى صباح ١٢ من فبراير ١٥٠٣ بينما كانوا مبحرين بهذا الترتيب شاهدوا أسطول كلكتا الذى كان متأهبا للحرب يتقدم نحوهم مكونا من ٢٩ سفينة بقيادة بحار عربى ذو سمعة طيبة اسمه « خواجة بار » بالاضافة الى عشرات من القوارب السنبوك بقيادة « خواجة قاسم » وللوهلة الأولى فانه يظن أن الغلبة ستكون للقوات الاسلامية ، ولكن الأسطول البرتغالى كان أحسن تسليحا حيث توجد المدافع القوية لدى البرتغاليين ، وبعد معركة عنيفة سيطر البرتغاليون على الموقف وكان النصر حليفهم ونهبوا كثيرا من الغنائم بعد المعركة من السفن ، فوجدوا فى احدى السفن تمثالا ذهبيا يزن ٤٠ رطلا يرجح أنه كان لبعض الهنود مع جوهرتين كبيرتين •

وبعد ذلك غادر فاسكو دى جاما مياه الهند الى لشبونة التى وصلها سنة ١٥٠٣ محملا بالغنائم المنهوبة من السكان والتجار المسلمين ، فلم تكن هذه الغنائم من التجارة الحرة ولكن نهبا من سفن المسلمين الهنود ومن سفن العرب وكانت هذه الحمولة تقدر بنحو ٢٤ ألف دوكات ذهبا وكانت تتكون ٣٥٠٠ طن بهارات و ٥٠٠ طن من الفلفل والذهب • ويقول

أنجلو بسكى معلقا على ذلك : « فاذا كان غرض البرتغاليين من الهند قد تحقق فان طريقتهم كانت شاذة ومتناقضة مع طريقة العرب الذين عملوا بالتجارة منذ مئات السنين بدون أى محاولة لتخريب الدولة والتأثير على سكانها أو القضاء على التنافس »(١٤) •

وكان دى جاما ابان رحلته الثانية (١٥٠٢ م) قد كلف أحد قادته بالاقامة الدائمة عند مدخل البحر الأحمر ومعه خمس سفن لمهاجمة السفن الاسلامية ولمنعها من الابحار فى مياه المحيط الهندى الا بتصريح خاص من البرتغاليين ونجح هذا القائد فى مهمته الى حد كبير فقد قام فى رجب سنة ٩٠٨ هـ (يناير ١٥٠٣ م) بمهاجمة سبع سفن عربية واستولى عليها كما قتل بعض ركابها وأسر بعض الآخر •

وفى سنة ٩١٣ هـ هاجم البرتغاليون بقيادة « البوكيرك » جزيرة « سوقطرة » واستولوا عليها وتقع فى مدخل خليج عدن لاغلاق البحر الأحمر ومحاولة القضاء على تجارة المسلمين وأقام البرتغاليون فى « سوقطرة »بعض التحصينات لهذا الغرض « كما هاجم البوكيرك عدن فى نفس السنة ولكنه فشل فى اقتحامها ، فتوجه الى الخليج العربى لأحكام السيطرة البرتغالية عليه وبذلك بدأ فى عملية غزو الخليج العربى فى سنة ٩١٣ هـ وما بعدها وبدأ البرتغاليون غزو المراكز التجارية به وأهمها من الجنوب الى الشمال « قلهان » و« قريات » و« مسقط » و(صحار) و« خورفكان » و« هرمز » و« البحرين » و(القطيف) و« البصرة » وارتكب البرتغاليون من الأعمال والفظائع ما يضيق المجال هنا عن ذكرها ، وكانت دليلا واضحا على أن نفوسهم الحاقدة لا ترويها الا الدماء •

وقضوا على مملكة هرمز الاسلامية التى كانت تتحكم فى مدخل الخليج العربى طوال قرنين من الزمان قبل الغزو البرتغالى وتخضع

---

(14) Angelo Pesce : op. cit., pp. 74 — 75.

لها غالب الامـارات الممتـدة من البحـرين والقطيف حتى السـاحل العمـانى(١٥) .

---

(١٥) يرجع تكوين مملكة هرمز البحرية الى أواخر القرن السابع الهجرى ومطلع القرن الثامن . عندما وصلت غارات المغول الى الشـاطىء الشرقى للخليج العربى ودمرت مدينة هرمز القديمة الواقعة على الساحل فانتقل أهلها الى جزيرة فى مياه الخليج مقابلة لمدينة هرمز تسمى جزيرة « جرون » وأطلقوا عليها اسم « هرمز الجديدة » وبمضى الزمن تمكنوا من الانتشار التجارى فى كثير من موانى الخليج وجزره وغدا لهؤلاء التجار سلطنة تحولت الى مملكة عرفت « بمملكة هرمز » فرضت سيطرتها فى الخليج وظلت حتى قضى عليها البرتغاليون ، وكان يحكمها ابان الهجوم البرتغالى ملك صغير يسمى سيف الدين تحت وصاية معلمه الشيخ خواجه عطار ، وتأتى أهمية مملكة هرمز من كونها تقع فى مضيق فى مدخل الخليج العربى أخذ اسمها وظل يعرف بمضيق هرمز الى وقتنا هذا .

انظر : صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العـربى ، ص ٩ — ١٠ .

الفصل الثالث

أوضاع المشرق الاسلامى فى مطلع القرن العاشر الهجرى

كان بالمشرق الاسلامى فى أواخر القرن التاسع الهجرى ومطلع القرن العاشر عدة ممالك اسلامية بعضها ضعيف فى الهند وجنوب شرقى آسيا وبعضها قوى فى منطقة الشرق الأوسط ، وهى سلطنة المماليك السنية فى مصر والشام وجزيرة العرب ، و سلطنة العثمانيين السنية فى آسيا الصغرى وشرق أوربا ، ثم مملكة الصفويين الشيعية فى فارس .

ولم تتحد هذه القوى من أجل الوقوف فى وجه أوربا المعتدية التى تخطط للالتفاف حول العالم الاسلامى من الشرق ونجحت فى السيطرة عليها . لأن العالم الاسلامى فى المشرق لم يصل حتى الى التضامن المفروض فى الملمات وانما حدث العكس وهو التضارب والتجارب وقت الشدائد ، واستغلت الدولة العثمانية فترة ضعف سلطنة المماليك بسبب الضربات البرتغالية التى وجهت اليها فى الهند والبحار الشرقية لتحتل بلادها ؛ فى وقت كان الاخاء الاسلامى يفرض عليها أن تمد يد العون لها فى محنتها .

وقبل أن نفصل القول فى هذا الموضوع لابد لنا أن نلقى الضوء على تلك القوى الاسلامية التى أشرنا اليها سلفا ، لكى يقف القارىء على أوضاعها التى دت الى سقوط بعضها بسبب ضربات الغزو الأوربى ، وهوان البعض الآخر وتخاذله وخيانته لشقيقه وقت الشدة ، واستجداء فريق ثالث وتحالفه تحالفا محرما مع الغزاة الجدد ، مما أعطى فرصة للاستعمار الأوروبى أن يستغل الى أبعد الحدود مبدأ فرق تسد بين القوى الاسلامية .

سلطنة المماليك فى مصــر :

كانت دولة المماليك (٦٤٨ ــ ٩٢٣ هـ/ ١٢٥٠ ــ ١٥١٧ م) تضـم القسم الأكبر مما نسميه الشرق الأوسط الآن حيث كانت تسيطر على مصر وبلاد الشام (فلسطين وسوريا ولبنان والأردن) والحجاز ثم اليمن فى أخريات أيامها ، وبعض الجزيرة الفراتية واقليم العواصم والثغور وهو القسم الجنوبى من آسيا الصغرى وكانت هذه اجزاء كثيرا ما تدخل فى سلطان ملوك مصر فى معظم العصور الاسلامية ، وكان بنو رمضان الذين تسلطنوا فى طرسوس وما يليها يولون من قبل المماليك •

وبذلك يتضح أن السلطان المملوكى قانصوه الغورى (٩٠٦ــ٩٢٢ هـ) الذى عاصر نهاية انهيار الدولة كان يدير ملكا واسعا فى مصر والأقطـار التى تتبعها وكان الغورى والسلاطين المماليك من قبله الزعامة بين ملوك المسلمين وذلك لأمرين :

أولهما : أن سلاطين المماليك كانوا يقومون بخدمة الحرمين الشريفين وحمايتهما وعلى الرغم من اهتمامهم بالألقاب الدينية ومنها لقب « خادم الحرمين » فقد تولوا من هذا الملك الواسع السلطة الزمنية فقط وتركوا ما عداها للخليفة العباس فى القاهرة الا أنهم اهتموا بلقب « خــادم الحرمين الشريفين » أو كما كان يقال أحيــانا « حامى حمى الحرمين الشريفين » •

ثانيهما : وجود الخلافة العباسية فى القــاهرة منذ ســقوطها فى بغداد • وصارت للمماليك بذلك زعامة معترف بها فى جميع الأقطـار الاسلامية ، ولم يكن أحد ينازعهم هذه الزعامة حتى أن العثمانيين أنفسهم وهم من أقوى الممالك الضاربة فى العالم يومئذ كانوا يقــرون للمماليك

بهذه الزعامة ، ومن يطلع على الرسائل المتبادلة بين سلاطين آل عثمان ومماليك مصر يدرك تلك الحقيقة(١) .

ومن ثم نجد فى كتاب ابن اياس « وهو هم مؤرخ عاصر نهاية المماليك » كثيرا من أخبار البعثات الدبلوماسية أو ما كان يطلق عليهم فى ذلك الزمان الرسل أو القصاد الذين كانوا يترددون بين الغورى وبين زعماء الأقطار الاسلامية يومئذ ، وذلك مثل العثمانيين ، وسلاطين الهند وايران والعراق وأمراء آسيا الصغرى وبلاد السودان والحبش ، ومن بلاد الكرج وأوروبا ، وجزر البحر المتوسط وكانت مصر يومئذ مأوى الكثير من الأمراء المغلوبين على أمرهم يلجأون الى مصر ليستنجدوا فيها بسلاطين المماليك أو يقيموا فيها آمنين .

يقول ابن اياس فى حوادث شهر ربيع الآخر ٩١٨ هـ : « ومن العجائب أن فى هذا الشهر اجتمع عند السلطان نحو من أربعة عشر قاصدا ، وكل قاصد من عند ملك على انفراده ، فمن ذلك : قاصد شاه اسماعيل الصوفى (الصفوى) وقاصد ملك الكرج وقاصد ابن رمضان أمير التركمان (فى أذنه وطرسوس) وقاصد من عند ابن عثمان ملك الروم(٢) وقاصد يوسف ابن الصوفى خليل أمير التركمان وقاصد صاحب تونس ملك المغرب ، وقاصد من مكة ، وقاصد الملك محمود ، وقاصد ابن درغل أمير التركمان ، وقاصد من عند نائب حلب ، وقاصد من عند حسين

---

(١) كثير من تلك الرسائل محفوظ فى « منشئات السلاطين » التى جمعها فريدون بك فى القرن الحادى عشر الهجرى . وبعضها فى كتاب : ساطع الحصرى ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٢٠—٢٦ .

(٢) كان يطلق على آسيا الصغرى يومئذ بلاد الروم ، وعلى سكانها الروم وذلك على الرغم من استيطان الأتراك السلاجقة لها والأتراك العثمانيين من بعدهم ، وكان يطلق على سلطان العثمانيين كما قال ابن اياس « ملك الروم » وكل من يأتى من آسيا الصغرى يقال عنه « رومى » ، وذلك لسيطرة الرومان السابقة على هذه البلاد زمنا طويلا فالتصقت بهم صفة الرومانية وإن كانوا أصبحوا خليطا من الرومان والأتراك والتركمان والمغول ومن سكان البلاد الأصليين قبل مجيء هؤلاء جميعا الى آسيا الصغرى .

الذى توجه الى الهند (حسين الكردى نائب جدة) وقاصد ملك الفرنج الفرانسة ، وقاصد البنادقة وقاصد على دولات ، وغير ذلك قصاد من عند جماعة من النواب[٣] .

وكان بلاط الغورى على جانب كبير من الأبهة والعظمة فيذكر ابن اياس فى مراسيم الاحتفال بمبعوث الشاه اسماعيل الصفوى ما يلى :

« وفيه (أى فى شهر ربيع الآخر سنة ٩١٨ هـ) فى يوم الأحد سابع عشر منه عزم السلطان على قاصد شاه اسماعيل الصوفى فجلس معه فى المربع الذى بالميدان وفرجه على لعب الكرة ، ثم دخل به الى البحرة التى ببستان الميدان ، وأظهر فى ذلك اليوم أنواع العظمة بحضرة القاصد . ومد له هناك أسمطة حافلة حتى أدهشه مما رأى فى ذلك اليوم من حسن النظام وتزايد العظمة »[٤] .

وكان السلطان الغورى ملكا مهيبا يميل الى الأبهة فى ملابسه ومواكبه ، كما كان محبا للتنعم ، مولعا بالفنون الجميلة ، ومحبا للموسيقى والغناء ، وكان يلهو أحيانا بلعب الكرة ويحضره مبارياتها كثيرا فى ملاعب ميدان الرميلة بالقلعة ، وكان يلهو أحيانا أخرى بمشاهدة نطاح الكباش والثيران ولعب الكلاب والصقور والفهود .

وتمكن سلاطين المماليك من تشييد كثير من القصور والمساجد والمدارس والخانقاوات والأسبلة والأسواق ، وجعلوها فى أبهى زينه وما زالت آثار عصرهم ماثلة أمامنا الى اليوم دليلا واضحا على ثراء عصرهم ومن هذه العمائر الباقية مدرسة السلطان المنصور قلاوون وقبته وبقايا بيمارستانه بالنحاسين بحى الجمالية الحالى بالقاهرة ومجموعة ابنه

---

(٣) انظر : محمد بن اياس ، بدائع الزهر فى وقائع الدهور ، الطبعة الثانية ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة سنة ١٩٦٠م ، جـ ٤ ، ص٢٦٨—٢٦٩ .

(٤) المصدر السابق ، ذات المكان .

السلطان الناصر محمد بجانبها ومدرسة السلطان حسن ابن الناصر محمد بالقلعة ، ومدرسة السلطان برقوق ومجموعة السلطان قانصوه الغورى (الجامع والقبة والمكتب والسبيل بالغورية) بالقاهرة ٠

وكان السلطان الغورى من أعظم البناة للعمائر الاسلامية بالقاهرة وغيرها من أجزاء مملكته فكان مولعا بتشييد العمائر والتأنق فيها ، تدل على ذلك آثاره الباقية ، فقد أنشأ بجانب المجموعة السالفة جامعا عند القلعة ، وبنى خان الخليلى وخانا وأحواضا فى طريق الحجاج عند العقبة ورباطا ومارستانا فى مكة وقصرا عند مقياس النيل بالروضة ، وأنشـأ الميدان الكبير عند قلعة صلاح الدين بالقاهرة ، وهو الميدان المعـروف بميدان الرميلة ، وأضاف اليه أحواضا وأبنية ، وعمر قاعة البيسرية وقاعة العوامدية والدهيشة بالقلعة وغير ذلك من الأبنية المدنية والحربية والقلاع والحصون فى مصر والحجاز والشام ٠

والذى مكن المماليك من اقامة تلك الحضارة الزاهرة فى العصـور الوسطى ذلك الثراء البالغ بسبب تمكنهم من السيطرة على طريق التجارة بين الشرق والغرب فجنوا بذلك أرباحا طائلة مكنتهم من اقامة العمـائر الزاهرة وتكوين الجيوش القوية ، ومن ثم خفت وطأتهم على الشعوب التى حكموها لاعتمادهم على موارد خارجية بل ان شعوبهم أدلت بدلوها هى الأخرى فى مجال التجارة العالمية فعندما راجت التجارة بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى عن طريق البحر الأحمر اشتركت فيهـا الأوساط الشعبية أيضا وخاصة فى منطقة الشرق الأوسط فأخذ الأفـراد يستثمرون أموالهم فى هذه التجارة عن طريق نظام المضاربة الاسلامى فقد كان التجار يمولون من مجموعة من الأفراد أصحاب رؤوس الأموال ولهـؤلاء الممولين نصيب فى الربح غير محدد عند عـودة التـاجر من تجارته ٠

وتزخر مجموعة وثائق الجنيزة[٥] بالعديد من الوثائق التى هى عبارة عن عقود تجارية على نسق نظام المضاربة الاسلامى عقـــدت بين التجار والمولين الذين اشتركوا فى نقل هذه التجارة العالمية مما يدل على أن هذه التجارة العالمية فى العصور الوسطى عاد نفعها على الشعوب بعد الحكام • وأحدثت رواجا اقتصاديا مرموقا فى منطقة الشرق الأوسط•

ولكن فترة حكم المماليك الجراكسة (٧٨٤–٩٢٣هـ) ١٣٨٢–١٥١٧ م أتسمت بعدم الاستقرار فى الحكم ، فقد كثر تعاقب سلاطين المماليك على الحكم فى سرعة فائقة ، حتى أن بعضهم ما كاد يعتلى العـــــرش أياما حتى يعزل مما يشهد على عدم الاستقرار ومدى الاضطراب الذى أصاب سلطنة المماليك فى ذلك العصر ، بل ان أحد سلاطين المماليك لم يبق سلطانا سوى ليلة واحدة ، فنسمع أن خاير بك اعتلى العرش سنة ٨٧٢ هـ (١٤٦٨ م) بعد عزل (تمربغا) ، وكان اعتلاؤه العرش فى المساء وتم عزله فى الصباح التالى ، مما جعل ابن اياس يطلق عليه « سلطان ليلة »[٦] •

ولم تستقر الأوضاع فى عصر سلاطين المماليك الجراكسة الا فى عصرين هما :

١ — عصر السلطان الأشرف قايتباى ٨٧٢ — ٩٠١ هـ (١٤٦٨ — ١٤٩٦ م) •

---

(٥) مجموعة وثائق الجنيزة عبارة عن عشرة آلاف وثيقة حفظها اليهود فى معبدهم بالفسطاط ومقبرتهم بالبساتين على مقربة من القاهرة لمدة قرون طويلة قبل أن تأخذ طريقها الى مكتبة جامعة كمبرج وغيرها من مكتبات الغرب الأوروبى وهى ترجع الى العصور الوسطى ، الفاطمية والأيوبية والملوكية وقليل منها من بداية العصر العثمانى ومعظمها يرجع الى العصرين الفاطمى والأيوبى • وتغطى فترة زمنية طويلة تمتد من ٣٥٨–٩٤٥هـ/٩٦٩–١٥٣٨ م أى ما يقـــرب من ٦٠٠ سنة انظر د• حســـنين ربيـــع ، وثائق الجنيـــزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصـــادى لموانى الحجـــاز واليمن فى العصـــور الوسطى ، بحث قدم الى الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجـــزيرة العربية بجامعة الرياض ، ابريل ١٩٧٧ م •

(٦) ابن اياس ، بدائع الزهور ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢ ، ص٨٨–٨٩•

٢ ـ وعصر السلطان قانصــوة الغورى ٩٠٦ ـــ ٩٢٢ هـ (١٥٠١ ـــ ١٥١٦ م) •

وتسببت هذه الفوضى المملوكية فى سوء أحوال المملكة المصرية ، وبدأ ذلك فى أواخر عهد السلطان قايتباى فقد قدر له أن يحكم حتى جاوز الثمانين من عمره واستبد به المرض فى شيخوخته ، وعندما توفى قايتباى فى سنة ٩٠١ هـ عاد الصراع وكثر القتال على الحكم بين المماليك ، ولم تهدأ الأحوال الا عندما اعتلى قانصوه الغورى كرسى السلطنة فى ٩٠٦ هـ (١٥٠١ م) ولعل الميتة الوحشية التى تعرض لها كثيرون من ســـلاطين المماليك الأواخر عند عزلهم هى التى جعلت قانصوه الغورى يتهرب من منصب السلطنة عندما عرضه عليه الأمراء وامتنع عن تولى الســـلطنة وبكى[٧] بيد أنه قبل فى النهاية ذلك المنصب بعد أن اشترط عليهم عدم قتله اذا أرادوا خلعه[٨] •

ولم يكد السلطان الغورى يتولى السلطنة حتى أثبت أنه رجل قوى صلب العود على الرغم من أنه كان قد جاوز الستين من عمره[٩] وعلى الرغم من اعتقاد المماليك أنه ضعيف يمكن التلاعب به عمل بسرعة منذ اللحظة الأولى على اعادة الأمن والاستقرار الى العاصمة ، وملأ مناصب الدولة بمن يثق فيهم من كبار الأمراء ، ثم اتجه الى علاج ازمة الماليـــة بعد أن أفلست خزنة الدولة بسبب اعتراض البرتغاليين للتجارة الشرقية واعتدائهم على السفن الاسلامية التى كانت تحمل هذه التجارة •

وعلى الرغم من أن الدولة كانت فى حاجة ملحة الى المال بعد أن نضب معين التجارة فى عصر الغورى مما اضطره الى فرض كثير من

---

(٧) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤ •

(٨) عبد الرحمن الرافعى ، وسعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ، الطبعة الأولى ، دار النهضة العربية ، القاهرة سنة ١٩٧٠ ، ص ٥٢٥ •

(٩) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٥ •

الضرائب لمواجهة البرتغاليين وتحصين ثغور البحر الأحمر واعداد أسطول قوى لمجابهة البحرية البرتغالية المتقدمة ، على الرغم من ذلك الا أنه يؤخذ على الغورى جمع المال بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة ، واتباع سياسة تعسفية فى اشباع خزانة الدولة ، فمجع ضرائب عشرة أشهر مقدما دفعة واحدة ، ولم يكتف بفرض الضرائب على الأراضى والحوانيت والعقارات وانما تجاوز ذلك الى الطواحين والمعديات والسفن ، ودواب النقل حتى الأوقاف الخيرية هذا الى جانب أنه تلاعب فى العملة لتستفيد الخزانة من الفارق بين العملة الجيدة والعملة الرديئة ، وضاعف المكوس والرسوم الجمركية ، مما أنزل بالتجار على وجه الخصوص أضرارا بالغة .

وأثقلت تلك الاجراءات كاهل الشعب المصرى والشامى والحجازى فى وقت بدأت المنافسة البرتغالية للتجارة المصرية فى البحار الشرقية تلقى بظلها على الحياة الاقتصادية داخل دولة المماليك ، وعلى الرغم من ذلك فان الغورى ظل يصرف كثيرا من الأموال على مظهر بلاطه ، وفخامته ولم يقلع عن أسلوب الفخفخة والعظمة حتى فى أحلك الظروف الاقتصادية وأصبحت مماليكه وخيوله وجواهره ومطبخه السلطانى مضرب الأمثال ، كما اشتهرت مجالسه الأدبية التى ضمت الشعراء والأدباء والعلماء[١٠] .

***

سـلطنة العثمانيين :

الظروف والملابسات السياسية التى ظهر فيها العثمانيون :

كانت العناصر التركية والمغولية تعمر الأقاليم الشاسعة الواقعة بين حدود فارس و الصين القديمتين ، ولم يكن فى استطاعتها أن تتخطى أسوار احدى هاتين الامبراطوريتين الكبيرتين ، ولكنها ظلت تقوم بدور

---

(١٠) انظر بحثا قيما عن مجالس السلطان الغورى للدكتور عبد الوهاب عزام .

الوسيط فى نقل الحضارة بينهما ، وكانت قوة الامبراطورية الفارسية تحول بينهم وبين التدفق غربا الى بلاد الشرق الأدنى •

وبعد أن اخترقت الجيوش الاسلامية حزام فارس الى مواطن الأتراك فيما وراء النهر وبلاد خوارزم ، أقبل الأتراك يدخلون فى رحاب الاسلام وعندما أخذت الدولة الاسلامية فى الضعف فى العصر العباسى الثانى أحست العناصر التركية بضعف السلطة المركزية وبدأت تحاول انشاء دولة تركية اسلامية على أنقاض الدولة العباسية المنهارة • ثم تمكنوا من انشاء أول دولة تركية فى ظل الخلافة العباسية وهى دولة الأتراك السامانية(١١) •

وكان قيام هذه الدولة حافزا لكثير من القبائل التركية على الزحف الى منطقة الشرق الأدنى فى أوائل القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) وكان من أهمها عناصر القبائل السلجوقية فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) وعلى أثر ذلك زاد النفوذ التركى السلجوقى فى البلاط العباسى واستبد السلاجقة بالخلفاء فى بغداد ، وكان للسلاجقة فضل فى توحيد الدولة الاسلامية • وتمكنوا من هزيمة الدولة البيزنطية فى موقعة ملاذكرد فى سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧١ م) ووصلت أملاكهم الى بحر مرمرة وسيطر السلاجقة بعدها تماما على آسيا الصغرى ، وصار الأناضول مهجرا تقصده العناصر التركية زاحفة من وسط آسيا(١٢) •

غير أن ذلك الصرح الشامخ الذى بناه الأتراك السلاجقة ما لبث أن انهار بعد وفاة ملك شاه السلجوقى سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) فقد انقسمت الدولة السلجوقية بعده الى دويلات صغيرة مزقت الكيان

---

(١١) حسين مؤنس : الشرق الاسلامى فى العصر الحديث ، ص ص ١٨—١٩ •

١٢ محمد فؤاد كوبريلى : قيام الدولة العثمانية ، ص ط من المقدمة •

السلجوقى وعرفت هذه الدويلات بدويلات الأتابكة، وفقد أمراء السلاجقة سلطانهم بعد أن استبد بهم الأوصياء عليهم المعروفون بالأتابكة .

وشهدت أحداث القرن السادس الهجرى (١٢ م) ظهور عماد الدين زنكى أتابك الموصل ، ومن بعده ابنه نور الدين محمود ثم صلاح الدين الأيوبى الذين حاولوا توحيد المشرق العربى ضد الزحف الصليبى ، كما شهد هذا القرن أيضا سقوط الدولة الفاطمية الشيعية فى مصر ، واستيلاء صلاح الدين الأيوبى على التركة الفاطمية فى مصر وتصديه للصليبيين فى الشـــام .

وفى أواخر النصف الأول من القرن السابع الهجرى (١٣ م) دخل فى الأناضول عنصر جديد هو العنصر المغولى اذ لم يكد المغول ينتصرون على السلاجقة فى معركة (كوسة طاغ) أى الجبل الاقرع سنة ٦٤١ هـ (١٢٤٣ م) حتى أخـــذوا يســـتوطنون بقبـــائلهم وجيوشـــــهم فى الأناضول[١٣] .

وكان يقابل هذا التكاثر المستمر فى الجانب الاسلامى نقص مستمر فى الجانب المسيحى فى الأناضول حتى صار المســيحيون منذ القــرن السابع الهجرى عناصر تذكارية فى جنوب الأناضول[١٤] بسبب اســـلام بعضهم وهجرة البعض الآخر .

وقد تركت العناصر المغولية وسط الأغلبية التركية بالاناضــول ، حتى اذا مازالت دولة الايلخانيين المغولية التى أسسها هولاكو فى الأناضول سنة ١٢٥٣ (٦٥١ هـ)[١٥] دخلت العناصر المغولية بحسب أماكنها الجغرافية فى خدمة الامارات المختلفة التى تمخض عنها الوضع السياسى فى نهاية

---

(١٣) محمد فؤاد كوبريلى : المرجع السابق ، ص ى .

(١٤) المرجع السابق : ص ل ، م .

(١٥) المرجع السابق ، ص ٧٣—٧٦ .

القرن السابع الهجرى (١٣ م) وتقدر تلك الولايات بنحو ست عشرة ولاية (أو دويلة) على الأقل من بينها ولاية آل عثمان .

ولا زالت هناك بعض المشكلات التى تتصل عن كثب بقيام الدولة العثمانية وتحتاج من الباحثين الى كثرة التوفر على دراستها لحلها أو الاجابة عليها اجابة معقولة ، ولعل من أهم هذه الأسئلة : فى أى زمان وفد الأتراك العثمانيون على الأناضول ؟ وفى أى زمان اعتنق العثمانيون الاسلام ؟

وتجمع المصادر القديمة على أن العنصر الذى أنجب أسرة عثمان والذى يعتبر بالضرورة النواة الأولى للدولة العثمانية ، عنصر غزى أى تركى لا يفترق فى ذلك عن أغلبية الترك الذين وفدوا مع السلاجقة[١٦] وتنتمى أسرة عثمان الى قبيلة (قابى خان) التى تنقلت ردحا من الزمان ابان القرن الثالث عشر فى الأناضول بقيادة زعيمها سليمان جد عثمان ثم بقيادة ابنه أرطغول من بعده ثم بقيادة عثمان بن أرطغول الذى أعطى اسمه من بعد لقبيلته التى غدت امبراطورية مترامية الأطراف ، وكانت هذه القبيلة تخضع نظريا لا عمليا لسلاطين قونية ، وشهدت العناصر التركية بآسيا الصغرى فترة الاضطراب بسبب الزحف المغولى على الأناضول مما سبب لها كثيرا من التنقل والترحال الاجبارى من مكان الى آخر ، وبعد موت (جنكيزخان) فكر سليمان جد عثمان فى العودة بقبيلته الى موطنه الأصلى بآسيا الوسطى بعد سكون العاصفة المغولية بيد أنه غرق عند مخاضة على نهر الفرات قرب حلب ، ودفنه أبناؤه بجوار قلعة جعبر داخل الحدود السورية الحالية عام ٦٢٩ هـ (١٢٣١ م) وما زال قبره هناك معروف باسم (ترك مزارى) أى مزار الترك[١٧] .

---

(١٦) المرجع السابق ، ص ١٨ .

(١٧) انظر : ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ، الطبعة الثانية ، بيروت سنة ١٩٦٠ م ، ص ١٣ — ١٤ . وانظر أيضا : عبدالسلام عبد العزيز فهمى : السلطان محمد الفاتح ، دمشق سنة ١٣٩٥ هـ ، ص ١١ .

وبعد موت سليمان انقسم بنوه من بعده ، فمنهم من فضل مواصلة المسير الى مقصد أبيهم • ومنهم من آثر البقاء فى تلك النواحى وكان على رأس الفريق الثانى أرطغرل بن سليمان الذى قاد رجاله متوغلا فى آسيا الصغرى ، وتروى الحوليات العثمانية أنه بينما كان أرطغرل يسير بمن تبعه من قبيلته فى وهاد الأناضول شاهد جيشان يقتتلان أحدهما من المغول بقيادة (أوكتاى بن جنكيزخان) والآخر علاء الدين السلجوقى سلطان قونيه (١٢١٩ — ١٢٣٥ م) فدفعته غريزته الحربية للتوقف حتى تحقق من انكسار الجيش السلجوقى وعندئذ أسرع بالانضمام اليه وهاجم جيش المغول بقوة وشجاعة عظيمتين حتى وقع الرعب فى قلوبهم وأعمل فيهم السيف ، وانتهت المعركة بهزيمة الجيش المغولى[١٨] وكان ذلك فى عام ٦٣٠ هـ (١٢٣٢م) وبعد انتهاء المعركة عقدت أواصر الصداقة والمحبة بين علاء الدين السلجوقى وأرطغرل وكافأه علاء الدين على مساعدته له باقطاعه قطعة من الأرض على حدود الدولة البيزنطية قرب مدينة (بروسه) تسمى (اسكى شهر)[٢٠] ومنحه لقب « سلطان أونى » أى مقدمة السلطان لوجود قبيلته فى مقدمة جيوشه واتخذ أرطغرل الهلال شارة السلاجقة — شعارا له على أعلامه وبيارقه ، وهو الرسم الذى لا تزال ترفرف به أعلام الأتراك حتى الآن[٢١] •

وسار علاء الدين يعتمد فى حروبه مع مجاوريه وخاصة الدولة

---

(١٨) محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٣٩—٤٠ •

(١٩) عبد السلام عبد العزيز فهمى : مجع سبق ذكره ، ص ١٢ •

(٢٠) اسكى شهر : أو كما يكتبها البعض أحيانا كلمة واحدة « اسكيشهر » مكونة من لفظتين تركيتين : اسكى : معناها قديم ، وشهر معناها مدينة فتكون بمعنى : المدينة القديمة • واسكى شهر تقع فى الجزء الغربى من اقليم الأناضول الأوسط على نهر بورصوق وهو فرع من نهر سقاريا •

(٢١) انظر : د• عبد الزيز الشناوى ، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، طبعة الانجلو المصرية بالقاهرة سنة ١٩٨٠ ، جـ ١ ، ص ٣٥ ، هامش رقم ١ •

البيزنطية على أرطغرل ورجاله ، وكان عقب كل انتصار يمنحه أرضـــا جديدة ، وكانت هذه الامارة الصغيرة (اسكى شهر) هى مهـد الدولة العثمانية ، ففيها ولد عثمان بن أرطغرل سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) الذى تنتسب اليه الدولة العثمانية ، وفيها دعم أرطغرل أقدام قبيلتـه فى الأناضول وفيها تمكن من تحويل قومه من نظام القبيلة المتنقلة الى نظام الدولة المستقرة التى بدأت تنمو وتتسع بالتدريج على حساب الامبراطورية البيزنطية بالأناضول حتى أصبحت امبراطورية مترامية الأطراف • وغدت من أكبر الدول الاسلامية التى شهدها التاريخ •

ولما توفى أرطغول سنة ٦٨٧ هـ (١٣٨٨ م) خلفه فى حكم الامارة ابنه عثمان فسار على نهج والده فى تدعيم سلطانه فى امارته الناشـئة باتصاله الوثيق بخلفاء علاء الدين السلجوقى ، وواتته الفرصة عنـدما تحطمت هيبة سلاجقة الروم أمام غارات المغول وفر آخرهم سنة ٦٩٩ هـ (١٣٠٠ م) هاربا ولجأ الى الامبراطور البيزنطى الذى غدر به وقتله ، فاستقل بامارته ولم يلبث أن ضم اليها بقية الامارات التركية الأخـرى التى قامت بالأناضول بعد الغزو المغولى ، واندمجت هذه الامارات التركية فى امارة عثمان على توالى الأيام وسمو أنفسهم عثمانيين أيضا ، وبذلك ورث العثمانيون سلاجقة الروم متوسلين فى سبيل ذلك حينا بالمصـاهرة وحينا بالمال وحينا بالقهر والغلبة •

وتدعمت حركة عثمان دينيا عندما اتصل بشيخ الطرق الصوفية فى الأناضول وهو الشيخ « اده بالى » أدب عالى وأكثر من التردد عليه وكان رجلا صالحا ومن العلماء المسلمين المتعمقين فى الدراسات الدينية ، وكان هذا العالم يقيم فى قرية مجاورة لمدينة اسكى شهر • وفى خلال زياراته له تعمقت أواصر المحبة بينهما وتوجت هذه الصلة بأن تزوج عثمان ابنة

هذا الشيخ واسمها « مال خاتون » ثم قلده الشيخ سيف الجهاد فى سبيل الله وبذلك قويت حركة العثمانيين روحيا وأصبح لها دعاة يقوون من روح الجنود المعنوية ، الأمر الذى يجعلهم يستبسلون فى الجهاد ، ويحتقرون الموت فى ساحات القتال .

واذا كان أرطغرل والد عثمان قد بنى أساس الدولة العثمانية ودعمها سياسيا باتصاله بعلاء الدين السلجوقى ، فان عثمان قد دعم الدولة بروح الجهاد الدينى عندما اتصل بشيخه ووالد زوجته الشيخ آدب عالى ، وتحمس عثمان لعقيدته الدينية ، وأخضع حكمه لمشورة الفقهاء المسلمين ، وصارت من رسومهم باسلامبول أن يتقلدوا سيف عثمان من امام جامع أبى أيوب الأنصارى حيث تتم البيعة لهم ، ومن ناحية أخرى أظهر الأمير عثمان مقدرة فائقة فى وضع النظم الادارية لامارته بحيث قطع العثمانيون على عهده شوطا بعيدا على طريق التحول من نظام القبيلة المتجولة الى نظام الادارة المستقرة ، مما ساعدها على توطيد مركزها وتطورها تطورا سريعا الى دولة كبرى ، واعدادها للدور الضخم الذى قامت به بعد ذلك.

وأخذ عثمان يوسع أراضيه بالتدريج مستغلا الفوضى والاهمال المسيطرين على الأراضى البيزنطية بالأناضول ، وكان أول صدام بينه وبين البيزنطيين فى « قوين حصار » سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠١م) ولم تستطع بيزنطة لمدة طويلة أن تتحرك ضد عثمان ، فقد كانت مشغولة بالقلاقل والفتن فى العاصمة وفى البلقان ، وسقطت فى يد العثمانيين أماكن كثيرة كان عليها أن تدافع عن نفسها بقواتها المحلية ، فسقطت (بروسة) فى يدهم سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٦ م) .

ثم نقل العثمانيون عاصمتهم فى هذه السنة (٧٢٦ هـ) الى

« بروسه »[٢٢] • وفى هذه السنة توفى عثمان فى بروسه ودفنه بنـوه فيها فى مقبرة فخمة بعد وفاته ، وشيد العثمانيون فى هذه المدينة كثيرا من المنشآت الاسلامية الرائعة وصارت محطا لرحال الأتراك النازحين من بلاد تركستان بآسيا الوسطى • وولى الحكم من بعد عثمان ابنه (أورخان) ٧٢٦ — ٧٦١ هـ (١٣٢٦ — ١٣٥٩ م) الذى واصل تنظيم الدولة على أسس ادارية وحربية وطيدة الأركان[٢٣] •

وقد وجد آل عثمان فى غربى الأناضول مجالا واسعا لتوجيه نشاط عشيرتهم الفتية نحو الحرب والجهاد لفتح الأقاليم البيزنطية وادخالها فى حوزة الاسلام ، واقدامهم على الجهاد بهذه الصورة صار يجذب اليهم عددا غير قليل من المتطوعين من مختلف الامارات التركية الاسلامية التى قامت على أنقاض الدولة السلجوقية •

وسار العثمانيون فى حكمهم على هدى الاسلام ، وكانوا متحمسين له • وكان للاسلام أثر كبير فى مستقبل العثمانيين لا يقل عن الأثر الذى تركه الاسلام فى مستقبل عرب شبه الجزيرة العربية قبل العثمـانيين بسبعة قرون فقد عبأهم الاسلام بشعور اسلامى دافق وجعلهم متحمسين للاسلام • واجتمع لهم الى جانب العاطفة الدينية المتأججة روح عسكرية طاغية بحيث غدت سمة بارزة فى الأتراك العثمانيين ، وقد استمدوا هذه

---

(٢٢) أصبح لبروسة مركز كبير فى العالم الاسلامى منذ أن اتخـذها أورخان ابن عثمان عاصمة للدولة ، وضرب فيها أول سكة فضية لها قيمتها وهى الاقجة سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٧ م) وظلت بروسة عاصمة للدولة العثمانية حتى فتح العثمانيون القسطنطينية فانتقلت حاضرتهم اليها ، ونزح من بروسة كثير من الأتراك الى العاصمة الجديدة •

انظر : د• عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية ، مرجع سبق ذكره ، جـ ١ ، ص ٤٢ ، هامش ١ •

(٢٣) عبد السلام عبد العزيز فهمى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٤ •

الروح العسكرية من بيئتهم الأصلية فى سهول آسيا ، ثم عمل السلاطين على تعميقها فى نفوسهم فلازمتهم طوال تاريخهم الحافل[٢٤] .

وقد استفاد العثمانيون عندما اجتازوا الدردنيل سنة ١٣٤٥ فى عهد أورخان ، وأخوا يتغلغلون فى القارة الأوروبية فى البلاد التى سموها « روم ايلى » أو « روملى » فى المراجع العربية (أى ديار الروم) فقد كانت تلك البلاد تعتبر من الوجهة الشرعية دار حرب وجهاد ، فيسوغ فيها الاسترقاق ، ولذلك ابتكر آل عثمان فى عهد أورخان طريقة تضمن لهم تكوين جيش دائم يحسن الحرب والجهاد ، فأخذوا يقومون من وقت لآخر بغارات على ماوراء حدودهم فى البلاد النصرانية بقصد استرقاق الأطفال ، وكانوا يعودون من تلك الغارات بعدد كبير من الأطفال الصغار الذين كانوا يودعونهم فى مؤسسات خاصة لتنشئتهم نشأة اسلامية عسكرية ، وكان هذا الجيش هو الذى عرف بالانكشارية ، وهذه الكلمة محرفة من الأصل التركى ، « بنى تشرى » بمعنى النوع الجديد أو النظام الجديد[٢٥] .

وكان أفراد هذه الطائفة لا يعرفون بطبيعة الحال — شيئا من أصلهم ونسبهم فما كانوا يشعرون بارتباط نحو أسرة غير أسرة الجيش الذى ينتسبون اليه وكانوا ينشأون على الديانة الاسلامية ويتشبعون بفكرة الجهاد منذ نعومة أظفارهم يؤمنون بأن الجهاد من فرائض الاسلام فيذهبون الى ساحات القتال وهم يقولون فى قرارة أنفسهم : « اما غازى واما شهيد » بمعنى أن عليهم أن ينتصروا على الأعداء فيكونوا من الغزاة ، واما أن يموتوا خلال الحرب ، فيدخلون فى زمرة الشهداء الأبرار .

وصفوة القول أن هذا الجيش كان ينشأ للحرب والجهاد ويستعد

---

(٢٤) د. عبد العزيز الشناوى ، أوربا فى مطلع العصور الحديثة ، ص ٥٢٩ .

(٢٥) ساطع الحصرى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٦ — ٦٧ .

لذلك من كل الوجوه المادية والمعنوية ، ويعتبر هذا الجيش فى نظر بعض المؤرخين أول جيش دائم عرفه التاريخ •

وبعد أن عبر العثمانيون الدردنيل واستولوا على (غاليبولى) استوفدوا كثيرا من أتراك الأناضول وكذلك بعض العشائر التركمانية فوطنوهم هناك وفر قسم من أهل تراقيا أمام الزحف العثمانى وعمر الأتراك القادمون من الأناضول أماكنهم الخالية •

وبدأت بيزنطة التى احتفظت بمركزها كعاصمة قرونا طويلة تحس بالخطر العثمانى بأوسع معانيه • ولما تولى مراد الأول العرش فى سنة ٧٦١ هـ (١٣٥٩ م) كان الأتراك قد استقروا نهائيا على ساحل أوربا متخذين من « غاليبولى » نقطة متقدمة لعملياتهم الحربية •

وتقدمت الفتوحات فى « تراقيا » ووفق مراد فى مدة سلطنته التى استمرت حتى سنة ٧٨١ هـ (١٣٧٩ م) فى تحقيق غايته وهى بسط سلطان العثمانيين بصورة ثابتة على البلقان •

وسارت فتوحات الدولة العثمانية بسرعة حتى عهد السلطان الرابع بايزيد الأول ٧٩٢ — ٨٠٥ هـ (١٣٨٩ — ١٤٠٢ م) الملقب بالصاعقة « يلدرم » لحمله على أعدائه فى معارك القتال بطريقة خاطفة وسريعة ، وصارت الدولة فى عهده امبراطورية راسية القواعد فى الأناضول والبلقان فقد قضى نهائيا على مملكة البلغار وقضى على قوة الصرب تماما ، بيد أنه كان سىء الحظ بغزو التتار لبلاده فقد اجتاح تيمور لنك الأناضول وطلب من بايزيد التسليم فى سنة ٨٠٥ هـ (١٤٠٢ م) فتقابل بايزيد مع تيمور لنك بجيش أقل من جيوش المغول فى معركة (أنقرة سنة ١٤٠٢ م) فانتصر المغول فى هذه المعركة وأسر بايزيد بعد المعركة ومات فى أسر تيمور لنك وقامت حرب أهلية بين أبناء بايزيد من بعده استمرت نحو عشرة أعوام تعرضت الدولة خلالها للتمزق ، ولكن انتهى هذا التنازع

بانتصار السلطان محمد الأول (٨٠٥ — ٨٢٤ هـ) على اخوته فى سنة ١٤٢١ م •

وفى عهد السلطان محمد الأول تغلغل العثمانيون فى شبه جـزيرة البلقان حتى أتموا فتح جميع أقسامها ثم توسعوا فى الأناضـول حتى أوصلوا حدودهم الى جبال طوروس ، وأصبحوا متاخمين لدولة المماليك •

وقد توج العثمانيون هذه الانتصارات بفتح القسطنطينية سـنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣م) على يد السلطان محمد الثانى ٨٥٥—٨٨٦ هـ (١٤٥١ — ١٤٨١ م) الذى استحق لقب الفاتح منـذ ذلك التاريخ ، ولقد حقـق العثمانيون بذلك أمنية ظلت تراود المسلمين منذ صدر الاسلام ، وكان من أول الأعمال التى قام بانجازها محمد الفاتح بعد فتحها عمل يرمز الى هذه الحقيقة ، ويمثل كفاح المسلمين الأوائل الذين حاولوا فتح عاصمة الدولة البيزنطية ، اذ بادر الفاتح الى تشييد مسجد الصحابى الجليل أبى أيوب الأنصارى الذى استشهد عند أسوار المدينة فى احدى المحاولات الاسلامية المبكرة لفتحها فى القرن الأول الهجرى ثم دفن أمام أسوارها سنة ٥٠ هـ (٦٦٩ م)[٢٦] •

وفى مطلع القرن العاشر الهجرى (١٦ م) ومع بداية التفـاف الأوربيين حول الشرق الاسلامى، كانت الرياح العثمانية تنذر بعصر جديد تتحرك فيه القوة العثمانية الضاربة نحو الشرق ، وذلك بسبب الفـراغ العسكرى الذى حدث فى منطقة الشرق الأوسط الناتج عن ضعف الدولة المملوكية فى مصر الأمر الذى أغرى العماثيين بملء هذا الفراغ ، ومن

---

(٢٦) يذكر القرمانى فى كتابه « أخبار الدول وآثار الأول » بصدد التعرف على قبر أبى أيوب الأنصارى ، وان السلطان محمد الفاتح التمس معـرفة مكان القبر باجتهاد أحد الصالحين الذين رافقوا محمد الفاتح فى حملته الموفقة ويدعى الشيخ شمس الدين فأمر السلطان بأن تبنى قبة فوق القبر وألحـق بها جامعا فخما هو من أهم المساجد والمعالم الاسلامية الان فى اسلامبول ، وكان من رسوم سلاطين بنى عثمان أن يتقلدوا سيف الجهاد من امام مسجد أبى أيوب الانصارى لدى توليهم السلطة فى احتفال اسلامى مهيب •

ناحية أخرى بسبب النزاع المذهبى بين الدولة الصفوية الشيعية الناشئة فى فارس وبين الدولة العثمانية السنية •

الدولة الصفوية فى فارس :

ظهر الصفويون على مسرح الحياة السياسية فى فارس فى مطلع القرن العاشر الهجرى (١٦ م) عندما تمكن اسماعيل الصفوى من دخول تبريز (سنة ٩٠٧ هـ) عاصمة الآق قويونلو التركمان السنة وأعلن نفسه ملكا على فارس وأعلن المذهب الشيعى مذهبا رسميا فى جميع أنحاء البلاد •

وكانت ايران (فارس) منذ هبت عليها العاصفة المغولية أشبه شيء بالكرة يتنازعها أمراء من الترك حينا ومن المغول حينا آخر ، وفى مطلع القرن العاشر الهجرى تمكن الصفويون من توحيد البلاد والقضاء على جميع الكيانات المتناثرة من التركمان وبقايا المغول •

ويرجع نسب الصفويين الى أسرة آرية كانت تعيش فى أردبيل وهى مدينة تقع فى شرقى اقليم آذربيجان قريبا من بحر قزون ، وتصل الكتب التى أرخت للصفويين نسب اسماعيل الصفوى مؤسس دولتهم الى جده الأكبر الشيخ صفى الدين الأردبيلى (٦٥٠ — ٧٣٥ هـ) وتصل الكتب أيضا نسب صفى الدين هذا الى الامام الحسين بن على بن أبى طالب [٢٧] ، والى آل ساسان أيضا •

ويبدو أن انتساب هذه الأسرة الى الحسين من الأمور المختلقة فهى من أصل آرى قديم ، وكانت تسكن فى منطقة آذربيجان ، وان الذين يقولون بانتساب الصفويين لآل البيت أرادوا أن يكسبوا الأسرة أحقيتها فى الحكم نظرا لأن نظرية الحق الالهى التى أودعت فى الأسرة الساسانية كانت ذات أثر عظيم فى تاريخ الفرس والتشيع ، ويعتقد الفرس أن الحسين بن على قد تزوج (شهربانو) ابنة يزدجرد الثالث آخر ملوك

---

(٢٧) بديع جمعة ، أحمد الخولى : تاريخ الصفويين وحضارتهم ، جـ ١ ، القاهرة سنة ١٩٧٦ ، ص ٢٨ •

آل ساسان واستنادا الى هذا أصبح الأئمة من الشيعة لايمثلون حق أهل بيت النبوة وخصائصها فحسب ، بل يمثلون حق الملك وفضائله أيضا من حيث كونهم يتمتعون بانحدارهم من أطل مزدوج من بيت الرسالة ومن آل ساسان ، ومن هنا نشأت هذه العقيدة السياسية[٢٨] •

والذين يقولون بانتساب الصفويين الى أصـــل آرى قديم يريدون تأكيد دور الصـــفويين فى بعث القومية الفارســـية التى ظهـــرت على أيديهم •

وعلى كل حال فقد تعلم الشيخ صفى الدين فى صغره العلوم الدينية والعقلية ثم تعمق فى أسرار المحبة الالهية وتصوف وأصبح مرشدا لجماعة من المتصوفة والدراويش وفكر فى الرحيل الى فارس ولكنه نزل بشيراز حيث اتصل بالشاعر سعدى الشيرازى واتصل بالشيخ زاهد الكيلانى الذى تزوج ابنته وعهد اليه الشـــيخ زاهد بمقام الارشـــاد فى طريقته الصوفية ، ثم عاد الى أردبيل ومات بها سنة ٧٣٥ هـ •

وبعد موت الشـــيخ صفى الدين خلفه فى الدعـــوة ابنه الشيخ صدر الدين موسى (٧٠٤ — ٧٩٤ هـ) ثم حفيده خواجه على (ت ٨٣٠ هـ) ثم الشيخ ابراهيم المعروف بشيخ شاه (ت ٨٥١ هـ) ثم الســـلطان « جنيد » الذى قتل فى عام ٨٦٠ هـ ثم الســلطان حيدر والد اسـماعيل الصفوى الذى قتل أيضا عام ٨٩٣ هـ •

ولقد ساعدت الظروف السيئة التى حلت بايران على يد التيموريين فى التفاف المريدين حول دعاة الصفويين من أجداد اســماعيل وازدياد نفوذهم يوما بعد يوم وقد حظى منهم الشيخ « خواجه على » برعاية تيمور سنة ٨٠٥ هـ فلم ينزل بأتباعه أذى فأعطت هذه الرعاية أرضا صالحة

---

(٢٨) محمد اسماعيل جمال الدين ، دولة الاسماعيلية فى ايران ، ص ٨ ، وأنظر أيضا ، د. بديع جمعة واحمد الخولى : مرجع سبق ذكره ، ص٣٨ •

لدعايات الأسرة الصفوية التى بدأت فى تعميق الأفكار الشيعية لدى أتباعها على يد خواجه على الذى يعتبر أول من اعتنق المذهب الشيعى من أولاد الشيخ صفى الدين ودعا اليه الأتباع صراحة •

***

وفى عهد « جنيد » اكتسبت الجماعة قدرة أوسع على الحركة وبدأت تكشف عن رغبتها فى الملك عندما عمل جنيد على تحويل جماعته الدينية الى حركة سياسية معتمدة على عدد المريدين الضخم فكان أول اجراء اتخذه فى هذا السبيل هو اطلاقه على نفسه لقب سلطان بدلا من لقب شيخ وفى هذا اشارة الى الرغبة الكامنة فى السلطة ، وتابع خططه السياسية بتدعيم عسكرى فجند أعدادا كبيرة فى مقر أسرته فى أردبيل واستطاع أن يقيم بها حكما مستقلا[٢٩] •

تيقظت الكيانات السياسية فى فارس لهذه النهضة الصفوية ، ولم تغفر لها تطلعها للسلطة ، وكانت أقوى الكيانات الحاكمة فى فارس أسرتى التركمان ١ — قراقويونلو ٢ — وآق قويونلو[٣٠] ومعنى الأولى : الخروف الأسود ، ومعنى الثانية : الخروف الأبيض وسبب هذه التسمية يرجع الى أن اسرتين اتخذتا الخروف الأسود والخروف الابيض رمزين على علميهما فغضب « جهانشاه » التركمانى رئيس الأسرة الأولى وأجبر جنيدا على الرحيل الى ديار بكر ، ولما كانت الأسرة الثانية فى نزاع مع الأولى فقد استغلت هذا الحدث لصالحها واستقبل رئيسها « أوزن حسن » : أى حسن الطويل زعيم الصفويين جنيدا وأحسن وفادته وزوجه أخته •

ولكن جنيدا عاد الى أدربيل ، ولما رأى كثرة المريدين من حوله لعبت السلطة برأسه فأقبل على تدريب المريدين تدريبا عسكريا ، وتوجه بهم الى شيروان مهاجما حاكما ولكنه منى بالهزيمة وقتل عام ٨٦٠ هـ ، وتعد

(٢٩) المرجع السابق ، ص ٣٣—٣٤ •
(٣٠) نفس المرجع ، ص ١٢ •

هذه الحرب — وان كانت قد انتهت لغير صالح الصفويين — بمثابة ظهور للصفويين على مسرح الحياة السياسية والعسكرية كقوة تنافس على عرش فارس •

وتولى حيدر بن جنيد رئاسة الصفويين • وحاول الانتقـام من حاكم شيروان قاتل أبيه ، فأعد جيشا لهذا الغرض وميزه بأن جعل أفراده يرتدون قلنسوة حمراء ومنذ ذلك الوقت صار أتباع الشيخ حيدر يعرفون أو يلقبون (بالقزلباشية)[٣١] أى أصحاب الرؤوس الحمراء ، غير أنه فشل بعد اتحاد التركمان ضده وتمكنوا من هزيمته وقتله وتفريق جماعته سنة ٨٩٣ هـ ومنذ ذلك التاريخ انقسمت ايران على نفسها وزاد الصراع بين البيت الصفوى الناشىء ومنافسيهم من التركمان • واتسع نطاق هذا النزاع •

وأدت هذه الحالة الى زيادة الفوضى فى فارس ، ونشر الفساد فى شتى أنحاء البلاد ، وقد ساهمت هذه الأوضاع فى ظهور المدعى الجـديد لعرش ايران وهو الشاه (اسماعيل بن حيدر) ، الذى وجد تأييدا كبيرا من الفرس وذلك لميلهم منذ صدر الاسـلام الى الأفكار الشـيعية • فصادفت الدعوة الصفوية الشيعية هوى فى نفوسهم ، لأن الناس فى ذلك الزمان قد ضاقوا ذرعا بظلم واجحاف أنماط الحكم المتناثرة فى فارس ، وفقدوا الأمل فى حياة مستقرة ، فلجأوا الى حلقات الأسرة الصـفوية الصوفية بحثا عن الراحة النفسية ، ولم يكتفوا بذلك بل صاروا مريدين وأتباعا يضحون فى سبيل نصرة شيخهم وزعيمهم •

---

(٣١) كان هذا الغطاء يتكون من اثنتى عشرة ثنية حمراء تمثل كل منهـا اماما من ائمة الشيعة الاثنى عشرية ، ومنذ ذلك الوقت صار اتباع الصفويين يعرفون باسم القزلباش أى ذوى الرؤوس الحمراء ، وقد اعتنق هذا المذهب نحو تسع قبائل تركمانية سميت بقبائل القزلباش تضافرت على خدمة البيت الصفوى وتدعيم كيانه واقرار المذهب الشيعى الاثنى عشر مذهبا رسميا فى فارس .

وقد ساعدت هذه العوامل أجداد اسماعيل على الانتقال من شيوخ طريقة صوفية الى مؤسسى دولة ذات أهداف سياسية ومذهبية غـيرت وجه فارس ، ونهض جنيد جد الشاه وحيدر والده نهضة حربية للجهاد من أجل الوصول الى السلطة اعتمادا على فدائيـة واخلاص الأتبـاع القزلباشية الذين لايهدفون الى شىء سـوى التضحية فى سبيل نصرة شيخهم ومرشدهم •

الشاه اسماعيل الصفوى :

ولد اسماعيل الصفوى فى ٢٥ من رجب سنة ٨٩٢ هـ(٣٢) قبل مقتل والده بعام وقد ساءت حالته بعد مقتل والده حيدر ، وزادت سوءا بقتل أخيه الأكبر (سلطان على) فاضطر الى اللجوء الى حاكم لاهيجان فى المناطق الغربية من فارس فحماه ورباه تربية دينية وعسكرية وتجمـع أتباع القزلباش عليه مرة أخرى ، وكون منهم جيشا فى عـام ٩٠٥ هـ (١٥٠٠ م) وفكر فى الانتقام من قاتل والده حاكم شيروان فتوجه بهم اليه فى عام ٩٠٦ هـ وكان فى سن الرابعة عشرة من عمره ، يرافقه جيش من سبعة آلاف مقاتل استطاع أن يهزم بهم جش حاكم شيروان الذى اعتصم فى شماخى •

وكان لحياة الاضطهاد التى عاشها اسماعيل وأسرته ، ومقتل جده ووالده وأخيه وتعرضه هو للقتل من أعدائه وهو صغير أكثر من مـرة كان لهذا أثره الكبير فى نفس ذلك القائد الصغير ، فظهر عليه أثناء المعركة وبعدها روح القسوة والعنف والوحشية ، فأحرق جسد خصمه (فرخ يسار) حاكم شيروان ، وأقام برجا من رؤوس القتلى ، وتعدت وحشيته الأحياء الى الأموات فنبش مقابر حكام شيروان ومثل برفاتهم • وكان لهذا أثر كبير فى ارهاب أعدائه ، كما كان للغنائم التى استولى عليها من شيروان أثرها الكبير أيضا فى تدعيم قوته المالية ، ومن ناحية أخرى كان

---

(٣٢) يوافق هذا التاريخ ١ من يونيو ١٤٨ م من السنة الميلادية .

لهذا الانتصار أيضا أثره الواضح فى تشجيع كثير من الايرانيين للالتفاف حول اسماعيل واعتباره منقذا لهم من دوامة الأسر الحاكمة الدخيلة على فارس •

واشتد ساعد اسماعيل فتوجه الى تبريز عاصمة تركمان الأق قويونلو، ودخلها فى سنة ٩٠٧ هـ دخول المنتصرين • وتصرف بعنف شديد تجاه خصومه ، فقطع أوصال الكثير من الرجال والنساء والأطفال ، وأرغم كل من بقى فى المدينة على قبول علامة الشيعة القزلباشية ، وقتل فى هذه المذبحة أكثر من عشرين ألف شخص • ثم أمر باخراج جثث الكثيرين من رؤساء أعدائه من القبور وأحرقها[٣٣] وغير ذلك من ضروب الفظائع التى تقشعر لهولها الأبدان ، وأعلن اسماعيل نفسه فى « تبريز » ملكا على فارس ولقب نفسه بلقب « المظفر شاه اسماعيل الهادى الوالى ؟ » ، وأصدر عملة باسمه ، وأعلن المذهب الشيعى مذهبا رسميا فى جميع أنحاء فارس ، وعلى الرغم من نصيحة علماء الشيعة له بالتريث نظرا لأن ثلاثة أرباع سكان تبريز من السنة ، وقالوا له ربما قاوم هؤلاء ملكه ، الا أنه أجابهم بقوله : « لا يهمنى هذا الأمر فالله وحضرات الأئمة المعصومين معى وأنا لا أخشى أحدا وباذن الله تعالى لو قال أحد من الرعية حرفا فسأسحب سيفى ولن أترك أحدا يعيش » ثم أمر المؤذنين أن يرددوا قول الشيعة فى الآذان « أشهد أن عليا ولى الله ، وحى على خير العمل »[٣٤] •

وتمكن اسماعيل على هذا النحو من فرض المذهب الشيعى فى فارس بحد السيف واستسلم الناس له قهرا ما عدا البعض الذى قاوم فلاقى حتفه على يده ، وفى خلال عشرة أعوام من تاريخ اعتلائه العرش استطاع أن يخضع كل فارس ، وبدأ يفكر فى جلب أتباع القزلباش من آسيا الصغرى موطن العثمانيين ، وطلب من بايزيد الثانى العثمانى بالسماح لمريدى الصفويين بزيارة أردبيل المقر الروحى لشيوخهم ، وكان

(٣٣،٣٤) بديع جمعة وأحمد الخولى : مرجع سبق ذكره ، ص ص ٥٤ــ٥٥ •

بايزيد مسالما محبا للأدب والفلسفة غير ميال للصدام باسماعيل فأرسل اليه فى سنة ٩١٠ هـ سفيرا هنأه بفتح العراق وفارس وعرض عليه اقامة علاقات ودية بين البلدين •

غير أن العلاقات بدأت تسوء بين العثمانيين والصفويين عندما حاول اسماعيل نشر مذهبه فى الأناضول بعد أن دعم مركزه فى العراق سنة ٩١٤ هـ بادخال كربلاء والنجف كمدن مقدسة للشيعة فى حوزته ، وبدأ يتطلع الى نشر نفوذه فى الشام والجزيرة العربية ويمد حبال المودة للمماليك نكاية فى العثمانيين ، وعندما تولى سليم الأول ابن بايزيد الحكم فى اسلامبول سنة ٩١٨ هـ عزم على تأديب الشاه ووضع حد لأطماعه لأنه اعتبر أن دعوته الشيعية المتعصبة خطر على أمن وسلامة دولته • وخاصة أن أطماعه كانت تهدف الى تحطيم النظم السنية الاسلامية المعاصرة له وساعده على هذا الاعتقاد السرعة الخارقة التى نجح بها فى فارس والعراق •

وفى سنة ٩٢٠ هـ واجهت الدولة الصفوية عاصفة عثمانية كادت تقضى عليها لولا أن ساعدتها الأقدار • وذلك أن سليم الأول زحف عليها فى هذه السنة بجيش جرار دخل به تبريز عاصمة الصفويين ، وكاد يقضى على دولتهم لولا أن الانكشارية تمردت وامتنعت عن التقدم لاشتداد البرد ، فقفل راجعا الى اسلامبول •

وعلى الرغم من هزيمة الصفويين الا أنهم عادوا الى تجميع صفوفهم حول اسماعيل ولم يستطع العثمانيون القضاء عليهم كما فعلوا مع المماليك فيما بعد ، ذلك لأن حركة الصفويين كانت بجانب أنها حركة شيعية ، فقد كانت حركة قومية لتجميع شتات الفرس يشترك فيها الشعب الفارسى كله ، واستمر الصراع بين الصفويين والعثمانيين زمنا طويلا ، وظلت الدولة الصفوية طوال القرن العاشر الهجرى (١٦ م) تواجه خطرين على جبهتين : العثمانيون فى الغرب ، والأوزبك فى أفغانستان من الشرق ، وكلاهما من السنة •

وفى غضون ذلك كان البرتغاليون قد وصلوا الى البحار الشرقية كما سلف أن أشرنا ، وتوغلوا فى الخليج العربى وقضوا على مملكة هرمز الاسلامية وكثر توغلهم فى البحر الأحمر واستعدوا للالتحام الفاصل بالقوى الاسـلامية •

الدولة الطاهرية والزيديون فى اليمن :

فى مطلع القرن العاشر الهجرى (١٦ م) كانت « اليمن » تتوزع بين قوى عديدة ، فمنطقة الشمال الجبلى كانت موزعة بين عدد من الأئمة الزيديين حـول صعدة وصـنعاء وذمار والأشراف فى منطقة الجـوف الشرقية •

وفى الجنوب كانت هناك سيادة سنية شافعية تركز نفـوذها فى مناطق عدن وحضرموت وزبيد ونتيجة لذلك وجد فى اليمن نظامان :

١ — نظام الأمامة الزيدية :

والذى بدأ ينمو فى اليمن الشـمالى منـذ وصـول الامـام الهادى الرسى فى صـعده فى سنة ٢٨٠هـ وهو يحيى بن الحسـين من نسل على بن أبى طالب ، وينسب المذهب الزيدى الى زيد بن على ابن الحسين بن أبى طالب • وقد وصل هذا المذهب الى درجة كبيرة فى الشمال غير أن الذى أضعفه هو ظهور أكثر من امام فى زمن واحد مما أضعف قوته أمام القوى السنية فى الجنوب والتى كانت تسيطر على النواحى السهلية فى اليمن والثغور الهامة •

٢ — نظام الملك السنى فى الجنوب :

وقد كانت تمثله الدولة الطـاهرية التى بدأت فى سـنة ٨٥٨ هـ (١٤٥٤م) وتعتبر آخر الدول السنية التى تولت الحكم فى اليمن ، وكان

بنو طاهر فى أول أمرهم عمالا للدولة الرسولية[٣٥] فى (عدن) و (لحج) فخرجوا عليها وأسسوا دولة لهم على أنقاضها وقد حاول ملوك هـذه الأسرة منذ البـداية توحيد اليمن تحت سـيطرتهم فلم يتمكنوا من ذلك لاصطدامهم بالأئمة الزيديين فى الشـمال ، وظلت البلاد مقسـمة بين الطاهريين والزيديين حتى بداية العصر العثمانى وقد اعتمـد الطاهريون فى صراعهم على قوة مواردهم الاقتصادية التى كانوا يجبونها من التجارة التى كانت تمر بموانى اليمن الجنوبية وعلى الأخص ميناء عدن الذى كان يتحكم فى مدخل البحر الأحمر •

وفى سنة ٨٩٤ هـ تولى آخر سلاطين آل طاهر وهو السـلطان « عامر بن عبد الوهاب » فعمل على توسيع رقعة أملاكه فقد ورث حوالى ثلثى اليمن عند توليته الحكم ، أما الثلث الباقى فقد كان موزعا بين عدد من الأئمة الزيديين ، وتمكن عامر بن عبد الوهاب الطاهرى من احتـلال صنعاء سنة ٩١٠ هـ وبينما كانت قوات عامر بن عبد الوهاب تواصـل جهودها لتوحيد اليمن ظهر امام قوى فى « حجه » سنة ٩١٢ هـ وبدأ فى توحيد الكيانات الزيدية فى الشمال ويزحف على الجنـوب وهو الامام « شرف الدين » يحيى ابن شمس الدين •

وظل عامر طوال فترة حكمه يرسل الحملات الى جهات اليمن المختلفة للقضاء على مقاومة الزيديين وتدعيم سلطانه فى المنطقة الشمالية وكاد ينجح فى القضاء على مقاومتهم لولا ما حدث من ظهور البرتغاليين فى البحار الشرقية ، وأدى الحصار البحرى الذى فرضه هؤلاء على السواحل العربية الجنوبية ومطاردتهم للسفن اليمنية الى ضعف ايرادات الدولة الطاهرية الضخمة التى كانت ترد اليها من التجـارة الشرقية فلم يستطع عامر الوقوف أمام خصـومه من ناحية ، ومن ناحية أخرى لم يسـتطع الدفاع عن المصـالح التجارية اليمنية أمام الأطماع البرتغالية من ناحية أخـرى •

---

(٣٥) حكمت الدولة الرسولية اليمن فى الفترة من ٦٢٦ — ٨٥٦ هـ .

وكان المفروض أن تتعاون مصر واليمن وهما الدولتان المتضررتان من أثر الزحف البرتغالى ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، فقد كان عامر ابن عبد الوهاب مشغولا بحروبه الداخلية لتوحيد اليمن ، ومن ناحيـــة أخرى فقد كان اليمن يفتقر الى أسطول حربى قوى مزود بالأســلحة النــارية .

وعلى الرغم من أوضاع عامر بن عبد الوهاب الداخلية وضعف قدرته الحربية الا أنه أمر بتجهيز حملة بحرية فى ســنة ٩١٢ هـ (١٥٠٧ م) لمحاربة البرتغاليين فى الهند مكونة من (أربع عشرة سفينة) من ســفن النقل العادية تحمل (ستمائة مقاتل يمنى) بالاضافة الى بعض العلماء والفقهاء وطلبة العلم الذين تطوعوا للجهاد ضد البرتغاليين ، وأبحرت هذه الحملة من ميناء عدن فى ١١ من مارس سنة ١٥٠٧ (٢٧ من شوال سنة ٩١٢ هـ) ولم تكن سوى فريسة سهلة للبرتغاليين نظرا لأن المصادر اليمنية قد صمتت حينئذ عن ذكر أنباء تلك الحملة التى كانت أضعف بكثير من القيام بمهمتها الصعبة[٣٦] .

وترتب على فقدان هذه الحملة تماما أن السلطان عامر لم يفكر فى ارسال حملة أخرى الى الهند بعد تجربته الأولى هذه ، كما أنه عجز من ناحية أخرى عن حماية سواحله أمام هجوم البرتغاليين عليها .

الالتحام بالقوى الاسلامية :

كان من الطبيعى أن تتحد القوى الاسلامية سواء الشيعية أو السنية فى مواجهة خطر مشترك أصبح يهدد كل المسلمين فى عقر دارهم ولكن على العكس من ذلك فقد انفرد البرتغاليون بالمماليك وبدلا من أن يتلقى المماليك المساعدة من أشقائهم فى محنتهم امتدت اليهم أطماع العثمانيين

---

(٣٦) لم يشر الى هذه الحملة سوى ابن الديبع فى كتابه « الفضل المزيد على بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد » .

ولاذ الصفويون لحماية أنفسهم بمهادنة البرتغاليين بل ذهبوا الى أبعد من ذلك فى التعاون معهم وهو التحالف كما سنذكر ذلك فيما يلى :

وتفصيل ذلك أن الشرق الاسلامى تأثر بالوجود البرتغالى فى البحار الشرقية ، ولكن هذا التأثير بدرجات متفاوتة فبصفة عامة تأثر المسلمون جميعا لأن هذا الوجود نتجت عنه نتائج خطيرة أضرت بأوضاع الدعوة وعملية نشر الاسلام فى تلك الأصقاع فأوربا التى كانت تهدد العالم الاسلامى من الشمال أصبحت تحاصره من الشرق والجنوب مما قاب موازين القوى فى العالم لصالح النصارى وبدأ المسلمون بعدها ينقلبون من الانتشار الى الانكماش ومن خطة الهجوم الى الدفاع عن أنفسهم أمام الزحف الأوروبى الذى كان البرتغاليون طليعته وفى أعقابهم أتى الأسبان والهولنديون والانجليز وغيرهم .

وتأثرت سلطنة المماليك وسلطنة الطاهريين باليمن وممالك الهند تأثرا مباشرا فى أوضاعها الاقتصادية بسبب احتكار البرتغاليين لتجارة الشرق وتحويلهم لها الى رأس الرجاء الصالح وكان من البديهى أن تعمل هذه القوى التى تأثرت تأثيرا مباشرا على استرداد سيطرتها وطرد الغزاة الذين جاسوا خلال الديار وكانت ممالك الهند مفككة وضعيفة وان كانت أقواها هى مملكة « كجرات » فى الشمال الغربى وكانت عاصمتها « أحمد أباد » وأهم موانيها « ديو » و« سورات » فأرسل سلطانها الى الغورى سلطان المماليك بمصر يستعين به ويطلب منه بعض الأسلحة والمدافع الحديثة ، كما استنجد حاكم « كاليكوت » وكان يدعى الزامورين Zumorin بالسلطات المصرية .

وكان من البديهى أن يستنجد سلاطين الهند بالغورى ، فقد كانت الدولة المصرية حينئذ من أقوى الممالك الاسلامية ان لم تكن أقواها على الاطلاق ، وكان لها مصالح اقتصادية مباشرة فى الهند والمحيط الهندى كما سلف أن شرحنا ، وكان لديها الأسلحة النارية الحديثة التى يمتلكها البرتغاليون وأهمها المدافع فقد حصلت عليها من البندقية .

ولبت مصر استغاثة المسلمين الهنود وعرب جنوب الجزيرة العربية ومسلمي شرق أفريقيا ، وتركزت خطتها تجاه البرتغاليين على تقوية وضعها العسكرى فى أقاليم البحر الأحمر وتحصين سواحله للدفاع عن الأماكن المقدسة الاسلامية فى الحجـــاز ، وعلى الأخص ثغور جـــدة وســـواكن وعدن •

وأعد الأشرف قانصوة الغورى حملة بحرية بقيادة الأمير حســـين الكردى غادرت القاهرة فى جمادى الآخرة سنة ٩١١ هـ (نوفمبر ١٥٠٥ م) وقد تكونت هه الحملة من المصريين والمغاربة المهاجرين الى مصـــر من وجه الاضطهاد والاستعمار الأسبانى والبرتغالى فى الأندلس والمغرب ، وكان المغاربة يؤلفون معظم أفرادها لأنهم كانوا من البحارة[٣٧] ، وكان اشتراكهم فى هذه الحملة بدافع الانتقام من الأوربيين الذين أخرجوهم من ديارهم ودأبوا على تعقبهم فى سواحل أفريقيا الشمالية والغربية •

ولسنا نعرف شيئا عن تعداد جنود هذه الحملة وكان عدد ســـفن الحملة نحو ثلاث عشرة سفينة مجهزة بالمدافع طبقا لما ذكرته المراجـــع العربية[٣٨] على أنه انضم اليها كثير من السفن الهندية لملكة كجرات ، واشترك أسطول السامرى (أو الزامورين) حاكم كاليكوت فكان مجموع السفن المصرية والهندية مائة سفينة أكثـــرها فاعلية الســـفن المصرية لتسلحها بالمدفعية ، وكان يعاون القائد رجل مغربى أطلق عليه ابن اياس الخواجا « نور الدين على المســـلاتى المغربى » وكان يرأس جمـــاعة المغاربة[٣٩] ويرأس السفن الهندية لملكة كجرات القائد البحرى (مالك اياس) حاكم ديو •

وتذكر بعض المراجع الأجنبية أنه كان على متن الســـفن بعـــض

(٣٧) انظر ابن اياس ، مصدر سبق ذكره ، ج ٤ ص ص ٨٤ — ٨٥ •
(٣٨) سيد مصطفى سالم : مرجع سبق ذكره ، ص ٦١—٦٣ •
(٣٩) ابن اياس: مرجع سبق ذكره ، ج ٤ ص ٨٥ •

المستشارين من البندقية وألف وخمسمائة مسيحى[٤٠] ولم تذكر المراجع العربية ذلك لا من قريب أو بعيد •

وعلى الرغم من أن السبب الرئيسى فى اعداد هذه الحملة هو الغزو البرتغالى كما ينص على ذلك ابن اياس وغيره من المؤرخين ، الا أن صاحب كتاب « السلاح والعدة فى تاريخ جدة » يذكر أن سبب الحملة الدفاع عن مدينة جدة أمام هجمات البدو من عربان بنى ابراهيم وهم أشهر القبائل التى كانت تسكن يومئذ بين ينبع ومكة ، وكانت السلطات المصرية توكل اليهم حراسة قافلة الحج المصرية فى بعض مراحل الطريق وفيما بين سنة ٩٠٧ هـ وسنة ٩١١ هـ قام أعراب بنى ابراهيم بكثير من أعمال السلب والنهب لحجاج بيت الله الحرام متضامنين مع أمير ينبع يحيى بن سبع واشتد أمرهم فى سنة ٩١١ هـ فأمر الغورى بايقاف عملية الحج فى هذه السنة • وعلى الرغم من قرب صاحب كتاب السلاح والعدة من تلك الفترةالتاريخية الا أنهيغفل الأسباب الرئيسية التى دفعت الغورى الى ارسال هذه الحملة ويجعل سببها الرئيسى هو أعمال السلب والنهب والتخريب التى قام بها عربان بنى ابراهيم ومن شايعهم •

وكانت مهمة حسين الكردى تحصين جدة أولا لتكون على استعداد لصد أى عدوان مفاجىء تتعرض له ، وبدأ حسين الكردى يعد العدة لتحويل جدة الى قاعدة للحرب ضد البرتغاليين ، وكان مع الحملة فريق من البنائين والنجارين وكثير من العمال لاقامة التحصينات اللازمة كما سنرى فيما يلى :

وعلى الرغم من عدم احاطة صاحب « السلاح والعدة » بالظروف والملابسات السياسية والعسكرية والاقتصادية التى أحاطت بحملة حسين الكردى الا أنه يعتبر أهم مصدر وصف لنا عملية تحصين جدة وبناء سور حولها على يد المصريين فى عهد قانصوه الغورى ، كما وصف سور جدة وصفا دقيقا لا نجده فى مصدر سواه •

---

(40) Angelo pesce, op. cit., pp. 75 — 76.

ونظرا لأهمية هذا الوصف ولأن هذا السور الذى بناه المصريون ومعهم بعض الحجازيين كان من أهم العوامل التى دفعت عن « جـــدة » عادية البرتغاليين أكثر من مرة فسنتناول هذا الوصف بشىء من التفصيل فيما يلى :

يذكر الشيخ عبد القادر بن فرج(٤١) أنه بمجرد وصول حســـين الكردى وجماعته الى جـــدة (بعد فراغه من تأديب عربان بنى ابراهيم بينبع وهو فى طريقه الى جدة) شرع فى عمارة السور التى تمت فى تسعة أشهر (تمت فى ذى الحجة من سنة ٩١٢هـ) بما فى ذلك الأبراج العالية ودار النيابة التى هى مقر قيادة نائب جدة ، وجامع الميناء ومصلى العيد ، ومما هو جدير بالذكر أن الشريف بركات شريف مكة ساعد فى عملية بناء السور وملحقاته وساعد فى نزع ملكية بعض البيوت التى كانت قريبة من السور ، كما حضر الشريف بركات بنفسه عملية البناء ، وكان فى بعض الأيام يقف على العمارة راكبا فرسه « ليحضر لحضوره جميع من فى البلد ويعينون بالحمل للمونة الكبير منهم والصغير والغنى والفقير والمأمور والأمير »(٤٢) .

وبذلك يتضح لنا أن عملية تحصين جدة شارك فيها مـــع المصريين الشريف بركات شريف مكة وأهل جدة على كل المستويات ، ولعل هذا هو السبب فى براعة العمارة وسرعتها فى مدة وجيزة كما يشير الى ذلك عبد القادر بن فرج .

---

(٤١) عبد القادر بن فرج مؤلف كتاب « السلاح والعدة فى تاريخ جـــدة » وكان خطيب جامع جدة ولد بجدة ونشأ بها وكانت وفاته فى ســـنة ١٠١٠ هـ وعاصر بداية الفتح العثمانى ، وكتابه سالف الذكر مخطوط بمكتبة الحرم المكى رقم ٢٨ تاريخ دهلوى ، ومما هو جدير بالذكر أن لدى صورة من هذا المخطوط (Photo Copy) وأنا معنى بنشرها محققة ان شاء الله (المؤلف) .

(٤٢) انظر : عبد القادر بن فرج : السلاح والعدة فى تاريخ جـــدة ، ص ٢٠ — ٢٢ .

وكان ارتفاع السور من الأساس حتى أعلاه (١٢ ذراعا) وطول محيطه من ناحية مكة واليمن والشـام (٣٠٠٠ ذراع) وعرض جداره (٤ أذرع) أما الأبراج فكانت ستة أبرج ، ومحيط كل برج منها سـتة عشر ذراعا وارتفاعه من على وجه الأرض خمسة عشر ذراعا ، منها برج شامى تجاه الشمال وآخر يمانى تجاه الجنوب وبرجان قبليان (تجاه مكة) ملاصقان لبابين يسمى أحدهما باب الفتوح وهو الأيمن والآخر يسمى باب النصر وهو الأيسر : أما البرجان البحريان فقد نزل بهما الغواصون فى البحر اثنى عشر ذراعا[٤٣] وكان من تمام هذا العمل حفر خندق محيـط بالمدينة من جميع نواحيها ، وبعد اتمام البناء وحفر الخندق زود المصريون المدينة بكثير من المدافع والعتاد الحربى ، وكان جملة ما صرف على عمارة السور وملحقاته (الأبراج ودار النيابة وجامع جدة ومصلى العيد وحفر الخندق) مائة ألف دينار غورى (أى من الدنانير التى سكها قانصـوه الغورى سلطان مصر)[٤٤] .

وتتضح لنا من عملية بناء سور حول جدة الحقائق التالية :

أولا : أن المصريين هم أول من وضع حجر الأساس فى الاهتمـام بثغر جـدة وتقويته بعد أن أصبح مسـتهدفا من البرتغاليين من مطلع العصور الحديثة .

ثانيا : أن بناء السـور كان قويا بأبراجه العالية وخندقه المحيط به وتسليحه الأمر الذى جعل من جدة صخرة تحطمت عليها آمال البرتغاليين فى نهاية العصر المملوكى وبداية العصر العثمانى .

---

(٤٣) نص ابن فرج على أن هذا الذراع هو ذراع العمل وأنه ذراع ونصف بذراع النجار ، وبالرجوع الى خطط على مبارك وهو أهم مصدر تعرض لتقدير الأطوال تبين لنا أن ذراع النجار التى أشار اليها ابن فرج تبلغ ٧٧ر٥ سم فتكون ذراع العمل التى قدر بها ابن فرج أبعاد سور جدة هى : ٧٧ر٥ × ١ر٥ = ١١٦ر٢٥ سنتيمتر .

(٤٤) عبد القادر بن فرج : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢ .

ثالثا : أن الشريف بركات ومعه جمع غفير من أهل جـــدة على كل المستويات شاركوا فى عملية بناء ســـور حول جدة مع المصريين فى همة ونشـــاط •

رابعا : وهو الأهم أن عملية بناء سور حول جدة لحمايتها بعد تسعة قرون من تاريخ الاسلام يعد رمزا لانقلاب المسلمين من سياسة الهجوم الى سياسة الدفاع حتى فى عقر دارهم التى تعنى بداية عصور الضعف •

وبعد أن أنجزت الحملة المصرية عملية تحصين جدة أضحى ميناء جدة هو خط الدفاع الأول عن مصر وعن الحرمين الشريفين ، ثم توجهت حملة الكردى بعد ذلك الى سواكن على ساحل السودان الحالى فأقامت فيهـــا بعض الاستحكامات ضمن برنامجها قبل أن تتجه الى الهند وخرجت الحملة من سواكن ومرت بالموانى اليمنية مثل : جيزان وكمران والمخاتم الى عدن حيث استقرت فيها بعض الوقت ، وقد أوضح حسين الكردى لوالى عدن من قبـــل الطاهريين أن غرض الحملة هو التوجه الى الهنـــد لمحـــاربة البرتغاليين ، كما طلب منه أن يمده بالطعام والمؤن فسمح له الوالى بأن يأخذ من عدن ما يشاء[٤٥] ثم توجهت الحملة بعد ذلك الى مياه الهند •

الموقف فى الهنـــد :

فى نفس الوقت كان البرتغاليون قد أنجزوا تقدما فى الشـــواطىء الهندية وأحكموا قبضتهم على الممتلكات الهندية وقد عين ملك البرتغال أول حاكم برتغالى فى الهند هو (فرانسيسكو داالميدا Francisco d'almaida) ومنذ سنة ١٥٠٥ م فانه حول بعض الأماكن الى قلاع فى كوشـــين ، وكنانور ، ومتلون ، هذا هو الوضع فى الهند عندما ظهر حسين الكردى فى نهاية سنة ١٥٠٧ فى المياه الهندية ، وفى يناير ١٥٠٨ أرسل فرانسيسكو

---

(٤٥) عيسى بن لطف الله : روح الروح فيما حدث بعد تمام المائة التاسعة من الفتن والفتوح ، مخطوط بمعهد احياء المخطوطات العربية ، القاهرة ، رقم ٤٠٦ تاريخ ج ص ٥٨ (صورة بالميكروفيلم) .

دالميدا ابنه لورانسو Lourenco من كنانور بثلاث سفن وخمسة قوارب لزيارة ميناء شيول[٤٦] Choul حيث أراد الحاكم أن يعقد معاهدة تجارية مع حاكم تلك المدينة ، وكانت شيول تقع على نهر على بعد ٤٥ كم جنوب بومباى ويوم بحرى من ديو حيث الأسطول المملوكى كان راسيا بصورة مؤقتة وعندما وصلت أخبار وصول السفن البرتغالية الى حسين الكردى ومالك بن اياس حاكم ديو وسلطان كجرات قرر الاثنان مهاجمتها فورا[٤٧] ، وأبحروا بقوة كاملة للايقاع بلورانسو فى نهر شيول ، وفاجأت القوات الاسلامية السفن البرتغالية وانتصرت عليها فى معركة استمرت ثلاثة أيام[٤٨] .

وقد كان من الواضح أن البرتغاليين فى وضع سىء محاصرين فى مدخل النهر مع قلة عددهم ولم يكن هناك أى أمل فى الهروب الى البحر المفتوح ولكنهم قاتلوا بشراسة حتى آخر رجل ، وقد تردد حسين الكردى فى البداية فى استعمال مدافعه على أمل أن يأسر بعض القوارب ، واختار أن يجعل الهجوم من سطح السفن وكان رد فعل البرتغاليين عنيفا جدا وحدثت مذابح رهيبة بين الطرفين فى اليوم الثانى والثالث وانتهت بقتل ابن دالميدا (لورانسو) والذى أصيب بواسطة سهم عندما اجتاحت السفن البرتغالية بعض القوارب الكجرانية بينما كان هذا الشاب مربوطا فى سفينة بواسطة حتى يستطيع قيادة رجاله الى النهاية .

وتمكنت سفينتان برتغاليتان من الفرار فى آخر لحظات المعركة بينما كانت القوات الاسلامية المتحدة تتحرك بوضع اللمسات الأخيرة فى المعركة ، فوصلت السفينتان الى كنانور بعد أسبوع موصلة وناقلة لأخبار المأساة للقيادة البرتغالية التى صممت على الانتقام[٤٩] .

---

(٤٦) كان ميناء شيول يقع جنوب سلطنة كجرات ويتبع مملكة الدكن الاسلامية ، سيد مصطفى سالم ، مرجع سبق ذكره ، ص٦٢ .

(47,48) Angelo pesce, op. cit., pp. 76 — 77.

(49) Ibid : p. 77.

معركة ديو الفاصلة :

علـى الرغـم من أن عوامل الغضـب كانت واضـحة بادية لدى البرتغاليين الا أنهم انتظروا وصـول الأسطول البرتغالى الذى كان فى طريقه الى الهند ، وعندما علم الميدا أن المصريين انسحبوا الى ديو بعد معركة شول قرر أن يهاجمهم فى ذلك الميناء وقد أبحرت ١٩ سفينة من كنانور فى بداية عام ١٥٠٩ م لبدء الحملة الثأرية • وبعد توقف قصير فى « دى بول » بدأت المعركة فى ديو فى ٣ من فبراير ١٥٠٩ وقد ألحق البرتغاليون هزيمة شديدة وأسرت معظم سفن التحالف الاسـلامى أو أغرقت وذبح البحارة وأسروا ليعدموا بعد ذلك ، وقد تصرف الميدا بقسوة مع الأسرى فبعد وصوله الى كنانور وعلى مرأى من الناس أمر بشـنق كل الأسرى وربط بعضهم من أفواههم الى فوهات المدافع الكبيرة وأطلق عليهم النار حتى تناثرت شظايا أجسامهم ، وهذا اعتبره تحية للمدينة ويعلق أنجلوبيس على هذه الأعمال الوحشية فيقول : « ان مثل هـذا العمل البشع هو ما جعل نهايتهم فى أبشع صورة من قبل أبشع ناس فى العالم » وجرح حسين الكردى ولكنه نجح فى الوصول الى الشاطىء وجمع رجاله القلائل بمساعدة الكجراتية وتوجهه بهم الى جدة •

وتعد معركة ديو من المعارك الحاسمة الفاصلة فى التـاريخ ، فقد حسمت الموقف لصالح البرتغاليين بصفة خاصة وللاوروبيين بصفة عامة فى البحار الشرقية وفصلت بين عهدين عهد لسيطرة المسلمين السلمية على التجارة الشرقية وعهد أتى بعد هذا سيطر فيه الغرب سـيطرة عسكرية على البحار الشرقية وبدأ بذلك عهد الاستعمار والاسـتنزاف لثـروات الشرق بأبشع صوره وتضاءلت بعـدها الى حد كبير الأهمية التجـارية للخليج العربى والبحر الأحمر تلك الأهمية التى ظلت المنطقة تتمتع بها طوال العصور الوسطى ، وانتقل مركز الثقل الى طـريق رأس الرجاء الصالح وساحل أفريقيا الغربى الذى غدا يزخر بخطوط ملاحية نشـطة لأول مرة فى التاريخ للتجارة بين الشرق والغرب حتى فتح قناة السويس

سنة ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ م) للملاحة الدولية وعودة النشاط التجارى الى البحر الأحمر وموانيه من جديد فى ظل السيطرة الأوروبية أيضا ولم يكن للعرب ولا للمسلمين فى هذا الوقت سيطرة حتى ولا على أوطانهم •

وبعد هذه الهزيمة التى منى بها المسلمون فى الهند تمكن البرتغاليون من تقوية أوضاعهم فى الهند وصدرت الأوامر من ملك البرتغال بتنحية الميدا من الولاية فى الهند وتعيين البوكيرك Alboquerque ، وقد كان بين هذين الرجلين اختلاف فى الرأى حول كيفية تقرير السيطرة البرتغالية فى الشرق فقد كان البوكيرك من المؤيدين للتوسع الاقليمى وكان الميدا يريد الاحتفاظ ببعض المراكز البحرية والتجارية وتقوية القوات البحرية ووصل التنازع بين الرجلين لدرجة جعلت الميدا يقبض على منافسه ويضعه فى السجن فى سبيل المصلحة القومية[50] ، وفى نوفمبر ١٥٠٩ وصلت تعليمات مع الأسطول البرتغالى بتعيين البوكيرك كقائد عام وعودة الميدا الى لشبونة وقد استجاب الميدا على الفور وعاد الى وطنه ، ويعتبر البوكيرك أول مؤسس للاستعمار الأوربى فى الشرق فقد عمل بعد ذلك على احتلال المراكز البحرية الهامة واقامة الحصون القوية فى جميع الجهات فى المحيط الهندى حتى يحكم سيطرة البرتغاليين على مصادر التجارة[51] •

فقد سيطر على مدينة (جوا) على ساحل الملبار غربى الهند وكانت مركزا لملكة اسلامية مستقلة عن المغول وكانت منذ زمن هى الطريق لتصدير الحصان العربى الى الهند وأحد المراكز لبناء السفن فى شاطىء الملبار أضف الى ذلك فانه لكونها تقع فى جزيرة كانت معرضة لخطط البوكيرك ، فقام بالهجوم الأول الناجح عليها سنة ١٥١٠ م ولكنه أخرج منها بعد وقت قصير ، ولكنه بعد فترة قصيرة عاد واستولى عليها بعد معركة حامية وحولها الى مستوطنة برتغالية قوية •

---

(50) Angelo pesce, op. cit., p. 78.

(٥١) السيد مصطفى سالم ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٤ •

وقبل ذلك نجد البوكيرك قد أسس عدة قلاع على الشاطىء العربى ففى سنة ١٥٠٨ م كان قد استولى على سوقطرة(٥٢) وبنى قلعة بها وجعل منها قاعدة للهجوم على البحر الأحمر والهجوم على السفن المحملة بالبهارات المتوجهة الى جدة والسويس ولكن لندرة المياه بها ولخطورة مراسيها لطبيعتها الصخرية أجبرت البرتغال على تركها فى السنوات الأولى •

وفى سنة ١٥١٠ م احتل البوكيرك مضيق هرمز مركزا هاما لتجارة الخليج العربى (الفارسى يومئذ) وكانت ذات أسطول بحرى تجارى كبير وهى ميناء شبيه بجدة فى البحر الأحمر حيث كان هو الموصل للبضائع المتوجهة الى البصرة والقادمة من الهند حتى غدا اسمه مقترنا بالثروة الشرقية •

ووجه البوكيرك همه واهتمامه للسيطرة على بوابة جنوب شرق آسيا الهامة وهى (ملقا) الميناء الذى يقع على شاطىء شبه جزيرة الملايو فى أضيق مكان بينها وبين جزيرة سومطرة الأندونيسية • وتتحكم فى الخليج الذى سمى باسمها ويوصل الى بحر الصين وجزر الفلبين واليابان والشرق

---

(٥٢) سوقطرة . كما يكتبها أهلها ، وكما يكتبها أبو الفدا فى تقويم البلدان ، أو سقطرى كما يكتبها الهمذانى صاحب كتاب « صفة جزيرة العرب وياقوت الحموى صاحب معجم البلدان » هى جزيرة عربية تقع فى مدخل خليج عدن على مقربة القرن الأفريقى كانت محطة هامة للتجارة بين الشرق والغرب لدى العرب والهنود وقدماء المصريين وكمصدر هام للبخور والعطور ، وعرفها اليونان والرومان ، واحتلها البرتغاليون لفترة ، ثم احتلها الانجليز بعد ذلك وجعلوها مركزا هاما لهم لتموين السفن ، وهى اليوم تابعة لجمهورية اليمن الجنوبية ، ولأنها ذات مركز استراتيجى توجهت اليها أطماع الروس الذين يقيمون علاقات قوية مع اليمن الجنوبى وتعتبر الآن من القواعد البحرية الهامة الروس فى خليج عدن والبحر العربى . انظر :مادة سـ وقطرة فى تقويم البلدان لابى الفدا والهمذانى فى « صفة جزيرة العرب » وياقوت الحموى فى (معجم البلدان) .

الأقصى بصفة عامة وفى سنة ١٥١٣ م وصلت أول سفينة برتغالية الى ميناء كانتون الصينى(٥٣) •

محاولة التحالف مع الأحباش :

حاول البرتغاليون التحالف مع الحبشة لتكوين جبهة صليبية فى الشرق ضد المسلمين •

وكانت الحبشة فى صراع مستمر مع مسلمى دول الطراز الاسلامى المجاورين لها فى شرق أفريقيا وصمد المسلمون أمام محاولات الجيش للسيطرة عليهم ، ومن ناحية أخرى كان البرتغاليون تواقون للاتصال بالأحباش ، كما سبق أن ذكرنا ، وعندما وصل فاسكو دى جاما الى الساحل الشرقى لأفريقيا فى رحلته الأولى لم يجد سوى الممالك الاسلامية على الساحل لذلك عامل سكان هذه المناطق بقسوة ووحشية ، وظل البرتغاليون فى محاولاتهم المضنية للتحالف مع الحبشة • وفى سنة ٩١٨ ﻫ (١٥١٢ م) تولى عرش الحبشة الملك الطفل لبنادنجل Lebna Dengel وكانت الوصية عليه أمه الملكة هلين ELeni التى سعت فى عقد تحالف صليبى مع البرتغال ، وقد اتصل الأحباش فى عهدها بالبرتغاليين وطلبوا معونتهم فى صراعهم مع جيرانهم المسلمين ووصلتهم بعض هذه المعونات التى دعمت مركزهم الى حين ولكن عندما ظهر العثمانيون فى سماء البحر الأحمر وعملوا على اغلاقه فيما بعد كانوا من العوامل الرئيسية فى عدم نجاح هذا التحالف وتقوية الكيانات الاسلامية فى ساحل أريتريا والقرن الأفريقى فى وقت تركز نشاط البرتغاليين فى عملية اغلاق البوابات الرئيسية فى البحار الشرقية والسيطرة عليها وعلى التجارة الشرقية •

وكان للبرتغاليين خطط خطيرة فى السيطرة على البحر الأحمر

---

(53) Angelo pesce op. cit., p. 78 — 79 .

والوصول الى مكة أفصح عنها البوكيرك فى رسائله للملك عمانويل ملك البرتغال والتى قال فى احداها :

« ان عدن يجب أن تحتل ويوضع قلاع وهى ميناء آمن لحماية سفننا فى الشتاء وآخر أخبارها أن حائطا عاليا بنى عليها بمعاونة حاكم ديو وهو يظن أنى لا أدرى بما يجرى • وحيث أن المضيق لا يصلح لعدم غزارة المياه فان عدن هى المكان الوحيد الملائم ومفتاح المضيق » •

وقد تطرق فى رسالته الى بلاد العرب وكان يستخدم كلمة « ترك ورومان وعرب » لوصف العرب ، ولذا فان كلمة رومان يقصد بها العرب فى بعض أدب البرتغاليين فى هذه الفترة ، وأشار أيضا فى رسالته الى أن « شيخ عدن بنى قلعة هناك ولكن هذا لن يفيده لأن لدينا قلعة بالقرب من جدة تسمى « فرسان » وهى التى تواجه ميناء جيزان فهى بالاضافة الى أنها ممون جيد للمياه فهى مرفأ طيب لسفننا ، أما بربره وزيلع فسنفرض جزية عليهم ونخضعهم • ولدينا جزر دهلك حيث توجد أيضا مياه ، وخطواتنا الأولى هى أن نؤمن أنفسنا فى مصوع وذلك لنضمن المؤونة والاشراف حيث أن مصوع هى المركز التجارى الرئيسى فى مقاطعة « البرسترجون » أى مملكة الحبشة ، كما أعلمكم أنه عند انجاز هذه الأشياء نستطيع بعدها أن نوجه نظرنا الى مكة والسويس وحيث أن هناك كثير من الخيل فى مقاطعات البرسترجون فانه يكون من السهل تجهيز ٥٠٠ فارس برتغالى بمعداتهم للنزول فى جدة ومن هناك ينتقلون الى مكة وهى رحلة يوم ليجعلوها رمادا[٥٤] •

وفى رسالة أخرى يقول : « ان رغبتى هى أن أذهب الى مصوع ميناء البرسترجون لأستولى على دهلك حتى أرى ما أستطيع أن أفعله فى جدة ، ان الرحلة الى البحر الأحمر تعتبر ذات قيمة قصوى نتيجة لوجود

(54) Ibid : p. 79.

تجارة البهارات والتى تأتى كل سنة الى هذه المناطق من الهند ، وحيث أننى أرغب فى تصفية الرومان (يقصد العرب) وبعد أن أكون علاقات مع البريسترجون ، فانى سأدمر مكة لهذه الأسباب فأنا مصمم على الذهاب الى البحر الأحمر أولا وتحطيم قوى السلطان (يقصد سلطان المماليك) فى تلك المياه »(٥٥) •

نتائج الغزو البرتغالى :

لا شك أن الزحف البرتغالى على شرق العالم الاسلامى والسيطرة البرتغالية على البحار الشرقية جاءت فزلزلت العالم الاسلامى زلزالا شديدا فى كثير من النواحى السياسية والاقتصادية والدينية وبدأت التغييرات الخطيرة تظهر فى العالم الاسلامى ، وكان من أهمها كما سنرى بعد قليل اختفاء دولة المماليك وزحف الدولة العثمانية على الشرق العربى لملء الفراغ العسكرى الذى أحدثته هزيمة المماليك أمام القوى الأوروبية الزاحفة على الشرق الاسلامى •

وجدير بالذكر أن البرتغاليين انتهكوا مبدأ حرية الملاحة فى البحار الشرقية وهو مبدأ كان معمولا به قبل وصولهم وكانوا يعترفون به فى أوروبا ، ولكن هذا الحق كان لا يتجاوز فى نظرهم قارة أوربا ، وساد بعد ذلك مبدأ « أن القانون الدولى الذى يضعه الأوروبيون لا يطبق خارج أوروبا ، وما يعد همجية فى لندن أو باريس يكون سلوكا متمدينا فى أفريقيا وآسيا ، كما يلاحظ أنهم استعملوا القرصنة البحرية على نطاق واسع فى البحار الشرقية التى كانت خالية تماما قبل مجيئهم من هذه الأعمال الشريرة

فقد شرع فاسكو دى جاما فى تطبيق ادعاء السيطرة على البحار وكان يقطع الطريق دون أى تحذير على أية سفينة يلتقى بها فى طريقه ودمرها تدميرا ، وروى بانيكار فى كتابه آسيا والسيطرة الغربية حادثة مروعة

(55) Ibid : p. 79 .

لسفينة عربية عائدة من مكة وهى غير مسلحة فيذكر أن فاسكو دى جاما ألقى القبض عليها واستولى على ما بها من بضائع ومنع اخراج أى عربى منها وأصدر أوامره باشعال النار فيها(٥٦) .

وقد أدى تحول التجارة الشرقية الى طريق رأس الرجاء الصالح الى انهيار اقتصاديات بلدان الشرق الاسلامى بصفة عامة والشرق الأوسط بصفة خاصة والتى كانت تعتمد الى حد كبير على موارد التجارة الشرقية ، وقد عرض البرتغاليون تجارتهم الشرقية فى أسواق لشبونة بأسعار أقل من أسواق البندقية وذلك لكى يجذبوا اليهم العملاء من أوربا، ونجحوا فى ذلك نجاحا ساحقا وعادت تلك الأوضاع بالكساد على الثغور اليمنية والحجازية والمصرية والشامية وفى الخليج العربى ، وقلت موارد تلك البلاد ودخلت دورا جديدا من أدوار تاريخها اتسق بالضعف والانهيار .

وتمكن البرتغاليون من السيطرة على منافذ البحار كما سبق أن أشرنا ولم يستطع المماليك ولا العثمانيون زحزحتهم عن هذه السيطرة وأصبحت لهم مراكز استعمارية مسلحة يمكن عن طريقها التحكم فى مداخل البحار والخلجان والجزر والثغور ذات المكانة الاستراتيجية فى العالم الاسلامى وذلك فى كل من أنجولا وموزمبيق ومدغشقر وسفالة وجوا وملقا وسومطرة ومسقط وهرمز وديو وبومباى وغيرها من المراكز ودامت لهم السيطرة فى شرق العالم الاسلامى نحو قرن من الزمان زاحمهم عليها بعد ذلك كل من الهولنديين والانجليز والفرنسيين وغيرهم من الأوربيين .

ولعل من الأشياء الخطيرة التى قام بها البرتغاليون لمحاصرة الاسلام فى أفريقيا انهم استعمروا أنجولا فى غرب أفريقيا وكانت تسمى أحيانا بأفريقيا الغربية البرتغالية واستعمروا فى مقابلها شرقا موزمبيق وكانت تسمى بأفريقيا الشرقية البرتغالية وحاول البرتغاليون أن يصلوا بين

(٥٦) انظر : بانيكار ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٠ ، ٤١ .

المستعمرتين بحجاب حاجز لمحاصرة الاسلام فى الشمال لمنع انتشاره فى جنوب القارة الأفريقية بحزام مسيحى مانع ، ولعل هذه السياسة التى حاول البرتغاليون تنفيذها فى أفريقيا مشى عليها فما بعد الأسبان فى الفلبين وحاول تطبيقها أيضا الانجليز فيما بعد فكانوا يعزلون المنـــاطق الوثنية عن المناطق التى انتشر فيها الاسلام للحيلولة بينها وبين انتشار الاسلام بها •

ومن النتائج الخطيرة على مستقبل العالم الاسلامى أن هذه الغارة على العالم الاسلامى أضافت مجالا حيويا جديدا للغرب المسيحى فاذا عرفنا أنه فى نفس فترة التوسع الغربى فى شرقى العالم الاسلامى ثم التوسع الغربى فى الأمريكتين (الدنيا الجديدة) وما حولهما من جـــزر أدركنا أن أسهما جديدة أضيفت الى الغرب المسيحى فى العالم وانتشرت النصرانية فى تلك الأصقاع والأفاق مما نتج عنه تفوق الغرب المسيحى فى العدد والقوة وتراجع المسلمون بعدها عددا وقوة بعد أن كان لهم تفوق فى هذا المجال طوال العصور الوسطى •

ولقد حاول المماليك بعد هزيمتهم فى ديو اعداد قوة بحرية لمواجهة الزحف البرتغالى على شرقى العالم الاسلامى واستعانوا فى سبيل ذلك بالعثمانيين الذين أمدوهم ببعض المعونات العسكرية فى البداية فى سنة ٩١٦ هـ (ولكنهم عادوا فغيروا هذه السياسة عندما تولى سليم الحـــكم فى سنة ٩١٨ هـ وخططوا للأستيلاء على منطقة الشرق الأوسط) وبعد أن أتم المصريون استعدادهم البحرى فى السويس وجدة خرجت حمـــلة بحرية لهم من ستة آلاف جندى فى عشرين سفينة متجهة الى الهند بقيادة حسين الكردى فى سنة ٩٢١ هـ ولكن مما يؤســـف له أن الحملة المصرية اشتبكت مع أمراء اليمن عندما رفض اليمنيون اقامة بعض التحصينات فى السواحل اليمنية لمنع البرتغاليين من احتلالها وتطور الصراع بدرجة جعلت الحملة تغرق فى مشاكل اليمن قبل أن تذهب الى سواحل الهـــند وانتهى الأمر بدخول المماليك صنعاء وقتلهم للسلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهرى واحتلت القوات المصرية صنعاء •

وبذلك تطور الوضع فى العالم الاسلامى تطورا خطيرا ، فبدلا من أن يكون بأس المسلمين على عدوهم أصبح بأسهم بينهم شديدا ولم يتحدوا على حرب عدوهم وظلوا مختلفين الى يومنا هذا ، واستغل الاستعمار الأوربى نقطة الضعف هذه وغذاها بنصرة فريق على فريق ، وبذلك وجدنا حكام عدن بعد ذلك يتحالفون مع البرتغاليين ويقدمون لهم الولاء والطاعة ففى سنة ٩٢٣هـ قدم أمير عدن مرجان الطاهرى للبرتغاليين المؤن اللازمة لحملة لوبوسوريز على البحر الأحمر وأمدهم ببعض المرشدين من بحارة اليمن لارشادهم داخل البحر الأحمر للوصول الى جدة بعيدا عن مخاطر الشعب المرجانية التى أعاقت تقدمهم من قبل وذكرت بعض المراجع الأوروبية أن مرجان قدم اليهم مفاتيح عدن للتعبير عن خضوعه .

وعلى الرغم من ذلك فقد عمل البرتغاليون على اخضاع عدن لسيطرتهم خوفا من وقوعها فى يد العثمانيين ونجحوا فى اجبار الطاهريين على عقد معاهدة معهم سنة ٩٣٠ هـ بمقتضاها تدفع عدن جزية سنوية لهم وتفتح ميناءها أمام سفنهم وفى سنة ٩٣١ هـ فرضوا عليها معاهدة جديدة أشد اذلالا بعد ضربها بالمدافع وفى سنة ٩٣٦ هـ اعترفت عدن لهم بالسيادة ودفعت لهم الجزية وحرم البرتغاليون على المدنيين عدم توجه سفنهم الى جدة وتركوا حامية لهم فى عدن لضمان تنفيذ تلك الشروط ، وقد تعرض حاكم عدن لهجوم العلماء عليه لموقفه الخيانى مما أثار عليه حفيظة الأهالى وغضبهم مما دفعه للتخلص فيما بعد من هذه المعاهدة ومراسلته السلطان العثمانى سليمان المشرع يطلب منه الدخول فى طاعته لعله يكفر عن موقفه المخز ، ومما لا شك فيه أن سياسة فرق تسد التى استغلها الاستعمار الأوروبى يستعملها ويستغلها بمهارة فى العالم الاسلامى الى يومنا هذا .

وفى غضون ذلك تنبه العثمانيون لضعف المماليك الذين وقع على كاهلهم الدفاع عن البحر الأحمر ضد الهجمات البرتغالية الشرسة فى

الوقت الذى زادت فيه هجمات فرسان القديس يوحنا من رودس على موانى مصر والشام واذا عرفنا أن البابا كان من وراء فرسان القديس يوحنا وأعمالهم ويمدهم من أوروبا بكل عون أمكن لنا تفسير شدة هذه الأعمال فى هذا الوقت بالذات لاشغال المماليك عن جبهة الهند والبحر الأحمر لكى يتمكن منها البرتغاليون الذين بارك أعمالهم البابا أيضا وشجعها وعمل لها دعاية فى كل أنحاء أوروبا للقضاء على الاسلام والمسلمين وعلينا أن نلاحظ هذا التنسيق المحكم بين البابا وفرسان القديس يوحنا والبرتغال فى الهجوم على العالم الاسلامى فى وقت فقد المسلمون أى نوع من هذا التنسيق .

وبدلا من أن يتقدم العثمانيون لمساعدة المماليك على أيام سليم الأول العثمانى (٩١٨ — ٩٢٦ ه) ويكونوا يدا واحدة على عدوهم اذا بهم يفكرون فى شىء آخر لمصلحتهم هم لا لمصلحة الاسلام وهو أن يتدخلوا فى المنطقة لملء الفراغ العسكرى بعد أن ضعف المماليك وأعدوا أنفسهم لهذا فعلا ، وساعدهم على ذلك تدهور الأوضاع الاقتصادية فى مصر والشام ومنطقة البحر بعد أن كسرت التجارة وجفت مواردها وتخريت موانى الشام ومصر والحجاز واليمن وهرمز وفى صفحات ابن أياس المؤرخ المصرى المعاصر اشارات كثيرة الى هذه الأوضاع السيئة التى نجمت عن استيلاء البرتغاليين على التجارة الشرقية وأعمالهم التخريبية ضد السفن والثغور الاسلامية(٥٧) .

وانعكست تلك الأوضاع الاقتصادية السيئة على الوضع العسكرى فلم يتمكن المماليك من الاعداد اللازم للجيوش وأصبح ظاهرا للعيان مدى ضعفهم العسكرى ومن ثم قام سباق رهيب بين البرتغاليين والعثمانيين لملء هذا الفراغ وحاولت كل من الدولتين أن ترث الدولة

---

(٥٧) انظر : ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج ٤ حوادث المحرم وذى الحجة من سنة ٩٢٠ ه .

المملوكية المتهالكة لأنها ضعفت عن مجابهة الأقطار المحيطة بها وبينما كان البرتغاليون يعملون المرة تلو المرة على التوغل داخل البحر الأحمر حتى أنهم هاجموا ميناء جدة فى خلال سنة ٩٢٣ هـ كان العثمانيون قد نجحوا فى خلال عام ٩٢٢ هـ وأوائل عام ٩٢٣ هـ فى الاستيلاء على أملاك الدولة المصرية المملوكية بالشام ونجحوا فى ضم الحجاز واليمن سلميا ، ولم يتمكن الغورى من الانتصار فى موقعة مرج دابق سنة ٩٢٢ هـ لأنه كان مشغولا بتأمين البحر الأحمر ضد الزحف البرتغالى والاعداد لحملة جديدة على الهند وكانت قواته موزعة فى كثير من ثغور الحجاز واليمن والساحل الأفريقى ، كما كان من ناحية أخرى يقاوم ضربات فرسان القديس يوحنا المتكررة على ثغور البحر المتوسط .

وبشنق طومان باى آخر سلاطين المماليك على باب زويلة بالقاهرة أسدل الستار على فترة من أهم فترات التاريخ الاسلامى كانت مليئة بالجهاد حقق المماليك فيها النصر على الصليبيين والمغول ولكنهم أخفقوا فى رد عادية البرتغاليين وسقطوا فى قبضة اخوانهم العثمانيين .

الفصل الرابع

العالم الاسلامى فى ظل الدولة العثمانية

خضعت كل من الشام ومصر وغالبية الجزيرة العربية لحكم الدولة العثمانية ، وأما العراق فقد ظل مجال أخذ ورد وصراع بين العثمانيين والصفويين لوجود العتبات المقدسة للشيعة فى كربلاء والنجف حتى قام السلطان العثمانى سليمان المشرع بضمه الى الدولة العثمانية فى سنة ٩٤١ هـ ، وأعاد فتح اليمن فى سنة ٩٤٥ هـ .

أما أقطار المغرب العربى فقد اتصلت بهم لتتحالف معهم تجاه الأخطار المسيحية المحدقة بهم كما سبق أن أشرنا ، وطلب المجاهدون فى المغرب وعلى رأسهم خير الدين برباروسا من العثمانيين المساعدة ضد البرتغاليين والأسبان فتقدم العثمانيون اليهم بالمساعدة على أيام سليمان المشرع ، ونتج عن هذا التضامن الاسلامى قوة فى المغرب مكنت المغاربة من استعادة كثير من الأراضى فى شمال أفريقيا ، ووحد خير الدين شمال أفريقيا كله ما عدا مراكش تحت راية الدولة العثمانية ، وكان فى مراكش الأشراف السعديون فاعتبروا أنفسهم أحق بحكم المسلمين وخلافتهم من العثمانيين فلم يسلموا لهم وظلوا يحاربونهم واستغل الغرب هذه الثغرة أيضا للايقاع بين المسلمين .

وصفوة القول أن العثمانيين تمكنوا من السيطرة على غالبية العالم العربى فى سرعة غير عادية وكانت هذه السرعة بسبب الضعف الداخلى والخطر الخارجى ثم التجاوب الدينى أو الوشيجة الدينية التى تربط العثمانيين بهذه البلاد والتى لولاها لكان مصير الغزو العثمانى منذ البداية كمصير غيره من الغزوات الوثنية والصليبية السابقة .

ولقد قابل العثمانيون مشاكل البحر الأحمر التى كانت بين المماليك والبرتغاليين حول السيادة عليه والسيادة على البحار الشرقية وتجارتها ، وبرزت أمام العثمانيين بمجرد وصولهم الى المنطقة قضية الدفاع عن البحر الأحمر وأصبحت احدى القضايا الملحة التى تحتاج الى عمل حربى عاجل وحاسم منهم ، ولقد أثبتت حوادث الاعتداءات البرتغالية على ثغور البحر الأحمر بسرعتها وتلاحقها صدق ذلك .

بيد أن الخطوات العثمانية فى مجـــابهة البرتغاليين ظلت بطيئـــة واتسمت سياستهم العسكرية بالاسترخاء العسكرى فى البحار الشرقية تلك الحالة التى استمرت حتى سنة ٩٤٥ هـ (١٥٣٨ م) وكان ذلك على ما يبدو بسبب انشغالهم فى أوروبا ، فقد كانوا يعملون على مد نفوذهم فى كثير من المناطق الأوربية منتهزين الحرب الايطالية التى شغلت أوربا فى الفترة من سنة ١٥١٥ حتى سنة ١٥٥٩ م . كما كانوا يعملون من ناحية أخرى على مد نفوذهم الى العراق وفارس وتكملة الاستيلاء على العـــالم العربى توصلا الى توحيد العالم الاسلامى .

لكن على الرغم من هذه المشاكل ظل الخطر البرتغالى يمثل تهديدا مباشرا للعثمانيين فى البحر الأحمر والأماكن المقدسة الاسلامية فى الحجاز وكان الأمر باليمن يقتضى عملا حاسما لتقوية الوجود العثمانى به بعد أن اضطربت أحواله بسبب تصارع القوى المملوكية والعثمانية والزيدية وبقايا الطاهريين فى عدن ، ومن ثم توجهت همة العثمانيين الى اعداد حمـــلة بحرية الى اليمن والهند منذ عام ١٥٣٧ م (٩٤٤ هـ) بميناء السويس .

حملة سليمان الخادم العثمانى على اليمن والهند

٩٤٥ هـ/١٥٣٨ م

لا شك أن فتح العثمانيين للعراق فى سنة ٩٤١ هـ جعلهم وجها لوجه مع البرتغاليين فى الخليج العربى ، فقد دخل أمـــراء البصرة والقطيف والبحرين فى طاعة العثمانيين بعد فتح العراق ، ومن ناحية أخرى فان البرتغاليين قد أقاموا علاقات ودية مع الصفويين فى فارس نتج عنها امداد البرتغاليين للفرس ببعض المعدات العسكرية ، ولقد ساعد الخطر العثمانى الذى كان يهدد الدول الأوربية على التقارب بين هذه الدول وايران ، وعندما ظهرت الدولة الصفوية بقوتها فى شرقى الدولة العثمانية خـــف الضغط العثمانى على أوربا واتجه الى فارس ، ولذلك فقد سعت دول أوروبا الى اسماعيل الصفوى تعرض عليه تثبيت عرى الصداقة والمودة وحاول اسماعيل من جانبه استغلال هذه الفرصة لحماية نفسه من أطماع الدولة العثمانية التوسعية فى الأراضى الفارسية وخاصة بعد هزيمتـــه المنكرة من الدولة العثمانية فى معركة شالديران سنة ٩٢٠ هـ (١٥١٤م) فأرسل الشاه اسماعيل رسوله الى البوكيرك فى هرمز سنة ٩٢١ هـ يطلب من البرتغاليين مساعدته ضد العثمانيين وقيام تحالف بينهما ، وعقدت اتفاقية بين الطرفين تنص على :

— تقديم سفن برتغالية لاسماعيل لمعاونته فى حملته على البحرين والقطيف ، فى مقابل أن يتنازل للبرتغاليين عن ميناء جوادر على ساحل بلوخستان •

— تتحد الدولتان فى مواجهة الدولة العثمانية •

— تصرف حكومة فارس النظر عن جزيرة هرمز ، وتوافق على أن يبقى حاكمها تابعا للبرتغال ، وأن لا تتدخل فى أمورها الداخلية[١] .

وقد أقلقت هذه العلاقات الصفوية البرتغالية الدولة العثمانية بالاضافة الى ذلك فقد استنجد سلطان كجرات بالهند « بهادر شاه » بالعثمانيين يطلب منهم ارسال مدد عسكرى للصمود أمام البرتغاليين الذين سيطروا على « ديو » حتى لا تضطر سلطنة كجرات الى عقد صلح مهين معهم .

كل هذه العوامل السالفة جعلت العثمانيين يرسلون حملتهم التى سبق اعدادها فى السويس بقيادة سليمان باشا الخادم[٢] ففى المحرم سنة ٩٤٥ هـ أبحرت تلك الحملة وكانت مؤلفة من ٨٠ سفينة و٢٠ ألف جندى ، وكان سليمان الخادم لا يصلح لقيادة هذه الحملة فقد كان فى الثمانين من عمره ، سرى اليه ضعف العقل والرأى وكانت لديه عقدة خاصة بنشأته حيث نشأ فى القصر السلطانى وكان من الخصيان العبيد ، ولم تكن له علاقة بالبحرية وكانت كل مؤهلاته أنه رجل ميال للغدر وسفك الدماء .

وعلى الرغم من هذه العيوب الخاصة بشخصية قائد الحملة الا أنه تمكن من فرض السيطرة العثمانية فى سواحل اليمن الغربية والجنوبية

---

(١) انظر : بديع جمعة وزميله : تاريخ الصفويين وحضارتهم ، جـ ١ ، ص ٩٧ .

وانظر أيضا : صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ، ص ١٧ — ١٨ .

(٢) كان سليمان باشا الخادم أحد مماليك السلطان سليم الأول ومن المقربين اليه وظل واليا على مصر منذ عام ٩٣١ هـ حتى غادرها الى العراق للاشتراك فى فتح بغداد سنة ٩٤١ هـ (١٥٣٤ م) ثم بدأت ولايته الثانية لمصر سنة ٩٤٣ هـ ، واستمر بها حتى خرج منها على رأس حملة بحرية الى الهند واليمن سنة ٩٤٥ هـ .

بأساليب امتزجت بالحيلة والغدر ، ذلك أنه بمجرد وصوله الى عدن أظهر حاكمها عامر بن داود الظاهرى حسن استقباله بعد أن ظل فترة يراوغه ويهمل الرد عليه وكان سليمان يضمر له الغدر ، ولما فتح عامر أبواب المدينة أمام سليمان أمر الأخير جنوده سرا بالاستيلاء عليها عقب دخولها ، وفى نفس الوقت استدعى حاكمها الى سفينته فلما توجه لاستقباله أمر بشنقه ومن معه من رجال على سارية السفينة ، وأمر بقتل من بقى من آل طاهر ومصادرة ممتلكاتهم بحجة خيانتهم للمسلمين ومحاولة تسليمهم عدن للبرتغاليين وتحالفهم معهم •

ويعتبر عامر بن داود آخر الحكام الطاهريين وبموته انتهى حكم هذه الأسرة من اليمن وقد تم للعثمانيين الاستيلاء بهذه الطريقة على عدن بعد خمسة أيام من وصولهم ، وقامت الحملة بتحصينها وتقويتها بالمدافع لتكون خط الدفاع الأول عن البحر الأحمر ، وعين سليمان أميرا عثمـــانيا عليها هو الأمير بهرام ومعه حامية من ٥٠٠ جندى •

وانطلقت الحملة بعد ذلك الى ديو بسواحل الهند لتحقيق الجـــزء الثانى من خطتها وهو القضاء على النفوذ البرتغالى فى الهند وكان ذلك بعد فوات الأوان لأن البرتغاليين كانوا قد دعموا نفوذهم فى تلك الأماكن ومضى على وجودهم هنا لثما يربو على ثلث قرن من الزمن وكانت هذه الفترة الزمنية كافية بأن يحتاطوا لأمرهم ويعدوا لكل شىء عدته • ومن ثم فما كادت الحملة تقوم بحصار بعض القلاع البرتغالية هناك حتى فكت الحصار عندما علمت بنجدة برتغالية كبيرة قادمة عن طريق البحر ويقال أن الهنود هم الذين أوهموهم بهذه الحملة ليتخلصوا منهم وكان البرتغاليون قد تمكنوا قبل وصول الحملة من قتل حاكم كجرات السلطان (بهادر شاه) سنة ٩٤٣ هـ قبل أن تدركه المعونة العثمانية مما أعاق عملية التحالف لأن خلفاء بهادر شاه ارتابوا فى العثمانيين وخافوا من غدرهم بعد أن وصلتهم أنباء عن غدر قائدهم باليمنيين الذين فتحوا له مدينتهم فتوجسوا منه خيفة

واعتقدوا أن العثمانيين قوم لا أمان لهم ولا يوثق بعهدهم بالاضافة الى عدم قدرة الحملة من الناحية العسكرية على منازلة البحرية البرتغالية وفشلت بذلك الحملة العثمانية فى تحقيق شىء يذكر بالهند نظرا لضعف قائدها وضعف حلفائها الهنود •

وعادت الحملة الى الموانى اليمنية وتفرغت بعد ذلك لفتح باقى الموانى اليمنية كالشحر والمخاوزبيد ولجأ سليمان فى سبيل ذلك الى أسلوبه المعروف بالغدر وطلب قائد المماليك (الناخودة أحمد) حاكم زبيد لمقابلته بعد أن أرسل اليه الأمان وعندما وصل اليه فى ميناء المخا أمر بقتله فى الثامن من شوال ٩٤٥ هـ وعين عثمانيا مكانه وهو مصطفى بك نائب غزة السابق •

وكان القضاء على الطاهريين والمماليك يعنى بداية المواجهة المباشرة مع الزيديين وهم القوة الباقية فى اليمن وحاول سليمان الخادم استدراج الامام شرف الدين على طريقته فى الغدر ولكنه لم يفلح وظل يتبادل معه الرسائل دون جدوى لأن الرجل لم يأمن جانبه فأعرض عنه حتى غادر سليمان اليمن عائدا الى مصر •

وصفوة القول أن حملة الخادم حققت الاستيلاء على السواحل اليمنية من جيزان شمالا الى الشحر جنوبا أما الجهات الداخلية فظلت فى أيدى الزيديين وقضت نهائيا على كل من المماليك والطاهريين وفشلت الحملة فى مشروعها الثانى بالهند كما رأينا ، وبعد فشل العثمانيين فى الهند لم يفكروا فى سياسة هجومية ضد البرتغاليين وظلت سياستهم دفاعية عن البحر الأحمر ومحاولة اغلاقه فى وجه البحرية البرتغالية وكانت حملة الخادم هى الأولى والأخيرة للعثمانيين على الهند •

كما أن العثمانيين فشلوا فى مقاومة الوجود البرتغالى فى الخليج العربى الذى أقام له مراكز استعمارية هناك وتحالف مع الصفويين فى فارس كما سلف أن ذكرنا •

واذا كان العثمانيون قد تم لهم تأمين البحر الأحمر أمام الغـزو البرتغالى فانهم عجزوا عن تحقيق غاياتهم الرئيسية المطلوبة منهم وهى ضرب السيطرة البرتغالية فى البحار الشرقية ، ولعل سـبب اخفاقهم راجع الى عدة عوامل ، منها عدم قدرتهم على لم شـمل المسلمين وتأليف حلف اسلامى منهم لتوحيد القوى الاسلامية لمكافحة السيطرة البرتغالية عن طريق التضامن الاسلامى كما حدث منهم فى المغرب العـربى مع المجاهدين المغاربة عندما تحالفوا معهم ومدوا لهم يد المعونة كما سلف أن ذكرنا ومنها أيضا قلة استعدادهم البحرى لمجابهة البرتغاليين فقـد كانوا حتى ذلك التاريخ مازالوا من الأمم البرية التى تعتمد على قوتها الضاربة فى البر دون البحر ، ولعل أقوى هذه العوامل قاطبة هو تحطيمهم للقوة المملوكية بدلا من التضامن معها لتحمل المسئولية أمام الأخطـار الصليبية كما حدث فى المغرب العربى .

ومن النتائج التى ترتبت على سيطرة العثمانيين على العالم العربى أنهم ورثوا القيادة فى العالم الاسلامى بعد دولة المماليك المصرية وحظيت الدولة العثمانية بحماية الحرمين الشريفين وأضاف سلاطين أهل عثمان الى ألقابهم لقب « خادم الحرمين الشريفين » وكان العثمانيون يطمحون الى مد نفوذهم الى الحرمين الشريفين وتتوق نفوسهم منذ زمن بعيد أن ينعتوا أنفسهم بلقب حماية الحرمين الشريفين ذلك اللقب الذى اعتز به حكام مصر من المماليك وغيرهم وذلك لاعلاء مكانتهم فى العالم الاسلامى وقد عبر السلطان سليم الأول عن هذا الأمل عقب انتصاره فى معركة مرج دابق على المماليك سنة ٩٢٢ هـ ودخوله حلب فقد حضر صلاة الجمعة فى مسجد حلب وخطب الخطيب باسمه وأغدق عليه لقب « خادم الحرمين الشريفين » وعندما سمع سليم هذا اللقب من خطيب المسجد طرب له أيما طرب وأظهر الفرح والسرور بتلقبه بهذا اللقب وخلع على الخطيب خلعا متعددة وأحسن اليه احسانا زائدا[٣] .

---

(٣) انظر : قطب الدين النهروالى : الاعلام بأعلام بيت الله الحرام ، ص ١٨٧ — ١٨٨ .

وحدث تطور آخر يتعلق بالخلافة الاسلامية فبعد أن ظلت الخلافة العباسية بالقاهرة قرابة ثلاثة قرون تحت اشراف أمراء المماليك منذ أن نقلها الظاهر بيبرس سنة ٦٥٨هـ الى القاهرة اذ بها بعد الفتح العثمانى للعالم العربى تنتقل الى الأتراك ويصبح خليفـــة المسلمين تركيـــا فى اسلامبول ولعل من الجدير بالذكر أن الخلافة عادت لها هيبتها فى ظل الأتراك حيث كان السلطان العثمانى هو الخليفة وكان يمسك فى يده كل السلطات الزمنية والسياسية والسلطات الدينية أيضا وظل الأمر هكذا حتى الغاء الخلافة سنة ١٩٢٤م على يد مصطفى كمال أتاتورك •

ولمـــا كانت الدولة العثمانية سنية فقد وقفت وقفت سدا منيعا أمام انتشار المذهب الشيعى الصفوى فى العالم العربى فحفظت له ســيادة المذهب السنى باستثناء بعض الجيوب الشيعية الضعيفة فى العــراق والشام واليمن وامارات الخليج العربى ولم تكن لهذه الجيوب تطلعات خار جحدودها بالاضافة الى وجود خلافات مذهبية بينها وبين شـــيعة فارس •

ويمكن القول بأن الدولة العثمانية حفظت أيضا لشمال أفريقيـــا عروبته واسلامه بتآزرها مع المغاربة فى كفاحهم طوال القرون الثـــلاثة التالية •

ومن النتائج الخطيرة أن الدولة العثمانية لم تشرك العرب فى الجندية وأعفت المواطنين من التجنيد فأضعفت فيهم الروح الحربية القتاليـــة وكانت تتعقب من يحمل السلاح منهم وظلت فى حرب دائمة مثـــلا مع اليمنيين لأنهم أبوا أن يسلموا سلاحهم ، واعتبرت الدولة العثمانية أن مسألة الجندية خاصة بالانكشارية فقط لأنها حكمت تلك البلاد بنظرية مستوحاة من بئيتها الرعوية الأولى فى أواسط آسيا والتى تكون العناصر فيها ثلاثة :

الراعى ، والرعية ، وكلب الحراسة ، فطبق العثمانيون هذه النظرية على الشعوب التى دانت لهم فالراعى هو السلطان العثمانى والرعية هم الشعب وكلب الحراسة هم الانكشارية من الأتراك وحدهم ولا شأن للشعب بقضية الدفاع عن نفسه فهى من شئون كلب الحراسة ونتج عن هذا استرخاء فى عضلات العرب ونسيان للجندية واضعاف للروح القتالية ونسيان لمسائل التسليح وتطويره لأنها كانت من مهام الدولة العثمانية وظل هذا الوضع فى البلاد العربية من ٣٠٠ سنة فى بعض المناطق الى ٤٠٠ سنة فى مناطق أخرى ، وعندما واجه العرب الغرب المسيحى بعد ضعف الدولة العثمانية وسقوطها فى النهاية كان من أهم المشاكل العويصة (ومازالت) هى مسألة اعادة الروح العسكرية واعادة التسليح واعادة تنظيم الجيوش وتصنيع السلاح وما يتصل بذلك من المشاكل التى ستظل شغل المسلمين الشاغل حتى يتمكنوا من صنع سلاحهم بأنفسهم وتدريب جيوشهم بروح اسلامية وأيد اسلامية دون اعتماد على الغرب المسيحى وهيهات أن يخلص لهم فى هذا المجال •

ولعل أخطر النتائج قاطبة هو أن الحضارة الاسلامية والثقافة العربية تأخرت عن غيرها من الحضارات والثقافات الأوربية لأن الزعامة ضاعت من العرب وكان التقدم الذى أحرزه العالم الاسلامى باللغة العربية ولم يكن فى مقدور الترك أن ينهضوا بالتراث الاسلامى والعلوم الاسلامية لأن هذا التقدم قطع أشواطا طويلة باللغة العربية وكان قد تضخم بحيث يصعب نقله الى اللغة التركية التى لم تكن مهيأة لذلك ولم يكن الأتراك أيضا كشعب عسكرى مهيأ لهذا العمل ، ولقد منعت العنصرية التركية الترك من ترك لغتهم ومواصلة الحضارة الاسلامية باللغة العربية فتمسكوا بلغتهم ولم يتعرفوا على التراث الاسلامى ليهضموه لا بالتركية ولا بالعربية وظلوا أمة عسكرية فحسب وحالت طبيعتهم العسكرية دون أن يدفعوا الثقافة العربية الاسلامية دفعات الى الأمام ووقع عبؤهم العسكرى على الشرق العربى فترة طويلة ، وعلى الرغم من أنهم حموه

فى فترة كان مهددا فيها من الغرب المسيحى الا أنهم أضروه ضررا بليغا ربما من غير قصد فقد أضروه فى مضمار الحضارة وأنسـوه كثيرا من فنون التقدم الحضارية والعسكرية فى فترة عصر النهضـة الأوربية ، فبينما كان الغرب الأوروبى يتقدم كان الشرق الاسلامى والعربى قد توقف والحكمة الحضارية تقول : « ان من لم يتقدم يتأخر » .

ولم تزل الدولة العثمانية أن ضعفت بعد أن اتسعت اتساعا مهولا ولم تستطع معه أن تجدد نظمها وادارتها ولمـا كانت عظمتها مبنية على أساس قوتها العسكرية لذا عندما سقطت هيبتها العسكرية سقطت الدولة نتيجة للضربات التى سددها الغرب المسيحى اليها فى القرنين الثـامن عشر والتاسع عشر وذلك بعد أن تغلغلت فيها الامتيازات الأوربية التى شجعت الغزو الفكرى الذى ساعد فى تمزيق الأفكار والأوطان . وسوف نتناوله فيما بعد فى فصل خاص به ، وأصبحت بلدان الخلافة العثمانيةفى يد الاحتكارات الأوربية الرأسمالية وظهرت الأطماع الاستعمارية لاقتسام أملاك الدولة العثمانية التى أطلقوا عليها تركة الرجـل المريض وحاول سلاطين العثمانيين أن يقوموا بمحاولات اصلاحية اتخذت النظام الغربى نموذجا لها ولم تكن الدعوة الى الاصلاح نابعة من الشعب بل جاءت من الحكام أى أنها ثورة من القمة وليست من القاعدة وكان الهدف الرئيسى لها تأمين مصالح الحكام والحفاظ على رجال السلطة ولها امتد الاصلاح فى المقام الأول الى اصلاح آلة الحرب والنظم العسكرية وقد فشـلت هذه المحاولات الاصلاحية أيام سليم الثالث (١٢٠٤ — ١٢٢٢ هـ) وأيام محمود الثانى (١٢٢٣ — ١٢٥٥هـ) وغـيرهما من السـلاطين الذين أتوا بعدهما فى القرن الثالث عشر الهجرى نظرا لأن هذه المحاولات لم نأخذ بعين الاعتبار الصيحات المخلصة المنبعثة من الجزيرة العربية التى تنادى بالاصلاح على أساس التوحيد الخالص من كل دخيل وعلى أساس عقائد السلف الصالح أى بالبناء على قواعد الماضى التى أسسها الجدود ، وبدلا

من أن تتعامل الدولة العثمانية مع هذه الصيحات وتصغى لها التفتت اليها لتضربها كما سنرى فيما بعد •

اقتسام تركة الرجل المريض :

كان الاستعمار يترقب الدولة العثمانية وكان يتعجل فى القرن التاسع عشر اقتسام أراضيها ، فتمكن من اقتطاع كثير منها فى ذلك القرن ، فاحتلت فرنسا (الجزائر) فى سنة ١٢٤٦ هـ/ ١٨٣٠ م كما احتلت بريطانيا (عدن) فى ١٢٥٥ هـ/١٨٣٩ م واحتلت فرنسا (تونس) فى سـنة ١٢٩٩ هـ/١٨٨١ م ، وغزت بريطانيا « مصر » سنة ١٣٠٠ هـ/ ١٨٨٢ م وضربت ثورتها التى قادها أحمد عرابى ونفته مع لفيف من رجال ثورته الى سيلان ، وأعلنت النمسا ضمها لاقليمى البوسنة والهرسك الى دولتها فى سنة ١٣٢٧ هـ/١٩٠٩ م وفى نفس السنة أعلنت بلغاريا استقلالها عن الدولة العثمانية بمعونة الدول الغربية •

ثم نشبت الحرب العالمية الأولى سنة ١٣٣٣ هـ/١٩١٤ م فدخلتها الدولة العثمانية بجانب ألمانيا والنمسا والمجر وهى ما كانت تسمى دول الوسط أو المحور ضد دول الوفاق أو الحلفـاء وهم بريطانيا وفرنسـا وروسيا وايطاليا ، وذلك لمـا كانت تراه تركيا فى الجانب الثانى من مطامع ودسائس ضدها ودارت الدائرة عليها وعلى دول المحور واحتل الحلفاء عاصمتها كما احتلت بريطانيا وفرنسا بعض المناطق فى الأناضول والحجاز وبلاد الشام والعراق ، وكان العرب قد دخلوا الحرب باغراء الانجليز لهم بالاستقلال تحت زعامة الشريف حسين فقد أعطوه وعدا مزيفا بالاستقلال فحارب الدولة العثمانية فى الحجاز والشام معهم •

وفى غضون ذلك اتفقت كل من بريطـانيا وفرنسـا وروسيا فى معاهدة سرية على اقتسام أملاك الرجل المريض فى آسيا فكان نصيب روسيا أن تفوز بالمضايق البسفور والدردينك وما حولهما ، ونصيب فرنسا سوريا ولبنان ، وبريطانيا العراق وشرق الأردن وفلسطين وهذه المعاهدة

هى المعروفة بمعاهدة سايكس بيسكو سنة ١٩١٦ وفى سنة ١٩١٧ أعطت بريطانيا وعداً لليهود بانشاء وطن قومى لهم فى فلسطين • ونفذه اليهود بمعونة الغرب ، حيث تلاقت المخاوف الأوروبية مع الأحلام الصهيونية كما سنذكر فيما بعد •

وهكذا لم تكد تنتهى الحرب العالمية الأولى حتى صفيت الدولة العثمانية ، وبقى أن يقضى على نظام الخلافة الاسلامى ، فاصطنع الاستعمار بعد الحرب مصطفى كمال من بين حطام الدولة فقام بدور رئيسى فى الغاء الخلافة ١٩٢٤ م (١٣٤٢ هـ) فأعلن (الغاء الخلافة) فى سنة ١٩٢٤ وأعلن الجمهورية ، ونقل عاصمة الدولة الجديدة الى « أنقرة » وأفقدها المقر التاريخى فى اسلامبول ، وأجرى كثيرا من التغييرات فى تركيا أبعدتها عن الاسلام وأعلن النظام العلمانى للدولة ، و(ألغى الأوقاف الاسلامية) والتعليم الدينى ، وألغى عطلة الجمعة وجعلها يوم الأحد كما يفعل النصارى ، وألغى التاريخ الهجرى وأحل محله تاريخ ميلاد المسيح ، وفى هذه الاجراءات معنى قطع صلة الاسلام والعروبة بتركيا الجديدة ، وأمر بكتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية والغاء كثير من الألفاظ العربية منها والتى كانت يومئذ تكون نحو نصفها وأحل محلها ألفاظا أوروبية ، وغير ذلك من الاجراءات التى قربت تركيا من أوروبا وأبعدتها عن الاسلام والعرب بغية تمدينها كما ادعى مصطفى كمال الذى أغدق عليه الغرب لقب أبو الأتراك « أتاتوك » •

وكان المبدأ الرئيسى فى حركة مصطفى كمال هو العلمانية وقبل فهم هذه الكلمة (أى العلمانية) فلا يمكن فهم تركيا الحديثة ، ان العلمانية فى الغرب معناها فصل الكنيسة عن سلطة الدولة ، ولكن العلمانية فى بلد مسلم تحمل مفهوما أكثر حدة وخطورة ذلك لأن الاسلام ممتزج بالدولة بشكل قوى ، فالشريعة تحكم حياة الأفراد فى كل نواحيها ، ولم يستطع

أى بلد اسلامى اختيار طريق العلمانية سوى تركيا ، ولذلك فان تركية أحدثت بموقفها هذا هزة فى العالم الاسلامى(٤) .

والواقع أن هذا الاصلاح الذى أجراه مصطفى كمال لم يكن هو الاصلاح الأمثل الذى يؤدى الى تقدم المجتمع ، فالمؤرخ الانجليزى « أرنولد توينبى » يرى أن هناك نوعان من السلوك تسلكهما الأمة عندما تغلب أمام أمة أخرى ، أو عندما تقع فى وضع خطر يهدد كيانها :

١ — اما أن تتقوقع على نفسها .. وهنا يعطى مثالا لذلك من الحركة السنوسية فى شمال افريقيا والحركة الوهابية فى الجزيرة العربية .

٢ — واما أن تقلد الأمة الغالبة .. وهنا يعطى مثالا لذلك من حركة محمد على فى مصر وحركة مصطفى كمال فى تركيا ومع أن توينبى يفضل السلوك الثانى على الأول الا نه لا يوافق عليه أضا ، بل يعتبره سلوكا خطرا ، ويقول بأنه يشبه محاولة تبديل الحصان أثناء عبور نهر جارف ذلك لأن التيار سيجرف ذلك الشخص العابر قبل أن يستقر على ظهر الحصان الجديد .

ثم يضيف قائلا بأن السلوك الثانى يحمل فى طياته خاصتين سيئتين :

الأولى : ان هذا السلوك يخلو من الابداع لأنه مجرد تقليد أعمى ، وهو لا يضيف شيئا جديدا .

الثانية : أنه يبقى منحصرا فى طبقة معينة أى أن محاولة التقليد هذه تبقى منحصرة فى فئة صغيرة من مدعى الثقافة ولكنها لا تصبح حركة جماهيرية ولا تنزل الى صفوف الشعب .

والذى يتمعن فى حركة مصطفى كمال يرى العجب فى المدى الذى وصل

---

(٤) ضابط تركى لم يعلن عن اسمه ، الرجل الصنم ، ص ٥٤١ نقلا عن كتاب : « الأتراك » لديفيد هوثمان ، ص ٣٤ — ٤٥ .

اليه فى تقليد الغرب ، حيث نراه يغير الأحرف التركية الى الأحــرف اللاتينية ، وغير القيافة الى القيافة الغربية ، وغير حتى الأعاد الدينية ، وجعل يوم الأحد العطلة الأسبوعية بدلا من يوم الجمعة ومنع الحج الى مكة ، لدرجة أنه منع اذاعة الموسيقى التركية والأغانى التركية والموسيقى الشرقية من الاذاعة ، وصدرت أوامره بأن تذاع الموسيقى الغربية فقط .

وبعد سنوات من هذا المنع أصدر أمره باذاعة الموسيقى والأغانى التركية من الاذاعة .. وصدر أمره هذا فى جلسة شراب ! . اذ كان يوما فى مجلس شراب فى فندق « بارك » فحن لسماع الأغانى التركية القديمة فاستدعى المطرب التركى المعروف « نور الدين سلجوق » حيث طرب من أغانيه غاية الطرب ، ويقال انه مكى ، ومن جلسة الشراب هذا أصدر أمره باذاعة الأغانى التركية لأنه دفعه اليها حنين الذكريات(٥) .

ولعل هذه الحادثة تعطينا فــكرة عن أنه كان مدفوعا فى تغييراته بدافع غير ذاتى وعندما أتيحت له فرصة التحرر من القيود الذاتية عبر عما فى داخله عندما طلب سماع الموسيقى التركية فى نوبة شراب وبكى عند سماعها ، ولعل هذه الحادثة أيضا تمثل الشعب التركى وأن ما أصــابه عارض وعندما يتحرر من قيوده فانه يعود الى أصله .

تركيــا المعاصرة :

ظلت تركيا بعد مصطفى كمال دولة متخلفة فقيرة وظل العـــداء الأوروبى كامنا ضدها ، ولم يحمها من تعصب الغرب المسيحى ضــدها انضمامها الى حلف شمال الأطلسى فظل الأوروبيون حتى الآن ينظــرون اليها على أنها دولة اسلامية وينحازون ضدها فى صراعها مع اليــونان فى قضايا الحدود فى بحر ايجه وبشأن قضية الأقلية المسلمة التركية فى قبــرص .

---

(٥) المرجع السابق ص ٩ — ١٠ .

والجيش التركى يقبض على تركيا بيد من حديد ويسيطر عليه تنظيم سرى موال للغرب والماسونية العالمية حتى اذا فكر الشعب يوما فى صحوة اسلامية ترى الجيش يقوم بانقلاب عسكرى يسيطر به على الأوضاع ويعيدها الى الخط العلمانى الموالى للغرب ، ويهلل الغرب لذلك مثلما حدث فى سبتمبر ١٩٨٠ ضد اليقظة الاسلامية التى تتطور يوما بعد يوم فى البلاد •

فعندما قامت هذه اليقظة منذ مدة رأى الغرب فيها خطرا وعودة الى القرون الوسطى فعملت أمريكا على احتوائها وقمعها بانقلاب يقوم به عملاؤها فى الجيش •

وحين وقع انقلاب عسكرى مماثل فى بولندا وأعلن العسكريون الأحكام العرفية ثار الغرب ورأى أن هذا اعتداء خطير على حقوق الانسان البولندى طبعا لأن الانقلاب العسكرى الأول لحساب أمريكا والانقلاب العسكرى الثانى لحساب روسيا • على الرغم من وحشية الانقلاب التركى الذى وضع كل أحزاب المعارضة فى السجن وأعلنوا الأحكام العرفية ، وعلى الرغم من ذلك تنفس الغرب الصعداء ورحب بالانقلاب بمقولة أنه أنقذ تركيا من الفوضى ويقصدون بذلك التحول الى الاسلام •

أى ما يعد نهضة فى أوربا (على الرغم من صلته فى بولندا بالكنيسة) فهو فى نفس الوقت همجية فى تركيا والبلاد الاسلامية ويجب ضربه بقوة العسكر ، بينما تتكاتف دول الغرب لتحرس وتحمى يقظة الشعب البولندى •

وكأنى بالذين تامروا على الدولة العثمانية أرادوا أن يستمر تآمرهم ، فبعد موت مصطفى كمال أصدر هؤلاء قانونا لحماية تاريخ مصطفى كمال من أى انتقاد ، ولايزال هذا القانون ساريا حتى اليوم ، انه قانون غريب فى بلد يدعى أنه يسير على النهج الديمقراطى قانون

يكمم الأفواه لم يسبق له مثيل حتى فى الدول الديكتاتورية العاتية مثل روسيا الشيوعية فان الذين أتوا بعد ستالين كشفوا حقيقته •

والذى يحدث فى تركيا بعد مصطفى كمال دليل الخوف من انكشاف حقائق خطيرة ، كما أنه دليل العجز على مقاومة هذه الحقائق التى يخشى أن تنكشف •

والمفكر فى تركيا الحديثة يستطيع أن يطعن فى الرسل والأنبياء والناس أجمعين وبجميع الكتب السماوية وغير السماوية حتى فى ذات الله جل فى علاه ، وبكل شىء ولكنه لا يستطيع أن يقول حرفا واحدا ضد مصطفى كمال •

لقد جعلوا منه صنما فى حياته وبعد مماته وهم يحاولون أن يمنعوا هذا الصنم من أن يتهاوى تحت ضربات الحقائق(٦) •

زوال الخلافة الاسلامية من العالم الاسلامى :

فى أوائل مارس ١٩٢٤ م (١٣٤٢ هـ) ألغى مصطفى كمال الخلافة من تركيا ، وألجأ آخر خليفة كان موجودا يومئذ وهو السلطان عبد المجيد الثانى الى حياة النفى الاجبارى خارج تركيا لا يملك شيئا وأخذ ينتقل من سويسرا الى فرنسا •

لكن الخلافة الاسلامية لم تكن تخص تركيا وحدها بل تهم العالم الاسلامى كله ، فقد كانت جزءا من عظمة المسلمين ومحورا لتاريخهم ورمزا لوجودهم ووحدتهم وهى رئاسة وقيادة دينية للشعوب الاسلامية فى مختلف الأنحاء ، وقد استمرت الخلافة أكثر من ألف وثلاثمائة عام منذ أن اجتمع المسلمون وانتخبوا أبا بكر الصديق خليفة لرسول الله

---

(٦) الرجل الصنم ، ص ٧ — ٨ •

ﷺ وتعاقب الخلفاء طوال العصور فى دول عديدة حتى القرن العشرين (١٤ هـ) .

وكان لنبأ الغاء الخلافة وقع أليم فى جميع البلاد الاسلامية وخاصة فى مصر اذ أنها مقر الأزهر الشريف والمعاهد الدينية الاسلامية والحفيظة على التراث والعلوم الاسلامية ، ولقد أثارت تلك المحنة لوعة الشعر والأدب فنظم أمير الشعراء شوقى مرثيته الشهيرة التى تعتبر بحق من أبلغ ما قيل يومئذ تأثيرا فى النفس يقول فى مطلعها :

ضجت عليك مآن ومنابر ... وبكت عليك ممالك ونواح
الهند وآلهة ومصر حزينة ... تبكى عليك بمدمع سحاح
الشام تسأل والعراق وفارس ... أمحا من الأرض الخلافة ماح

ولقد كان عزيزا على المسلمين أن تختفى الخلافة من حياتهم بين عشية وضحاها ، وتساءل المسلمون بأنه اذا كانت الخلافة قد انتهت من تركيا فلماذا لا تعود الى البلاد العربية وخاصة أن الخلافة كانت عربية فى أصلها وظلت كذلك قرونا عديدة قبل أن تنتقل الى الأتراك عندما ضعف العرب ، لهذا فكر كثير من الناس ولا سيما علماء المسلمين فى اعادة الخلافة الى حياةالمسلمين وتجديدها وبدء عهد جديد فى حياتها .

وقد تزعم الأزهر فى مصر طليعة هذه الدعوة وبدأ نشاطا قويا فى أوساط مصر السياسية والدينية يهدف الى بحث مسألة الخلافة واتخاذ قرار بشأنها وفى تلك الأثناء انتهى الرأى فى مصر الى ضرورة عقد مؤتمر اسلامى دولى يحضره ممثلون عن الدول الاسلامية ويكون مقره القاهرة تحت رعاية واشراف الأزهر ويتناول هذا المؤتمر مسألة الخلافة بالبحث لكى يصل الى قرار بشأنها يكون محل اتفاق المسلمين لأن الخلافة لا تخص مصر وحدها بل تهم العالم الاسلامى كله ، وفضلت مصر أن تتبع الطرق القانونية فى هذا الأمر الخطير .

وفى يوم ٢٥ من مارس سنة ١٩٢٤ عقد علماء الأزهر اجتماعا تحت رئاسة الاستاذ الأكبر شيخ الأزهر وتداولوا فى الأمر ثم أصدروا بيانا جاء فيه ما يلى :

« كثر تحدث الناس فى أمر الخلافة بعد خروج عبد المجيد الثانى من الاستانة ، واهتم المسلمون بالبحث الكثير فيما يجب عليهم عمله قياما بما يفرضه عليهم دينهم الحنيف » ثم بينوا الضرورة القصوى التى تستلزم وجود خليفة وامام للمسلمين كافة وانتهوا أخيرا الى القرار التالى :

« لهذه الأسباب نرى أنه لابد من عقد مؤتمر دينى اسلامى يدعى اليه ممثلوا جميع الأمم الاسلامية للبحث فيمن يجب أن تسند اليه الخلافة الاسلامية ويكون المؤتمر بمدنة القاهرة تحت رئاسة شيخ الاسلام بالديار المصرية (وهو شيخ الأزهر فى مصر) وأن يكون عقد المؤتمر فى شهر شعبان سنة ١٣٤٣ هـ (مارس ١٩٢٥)(٧) وفى تلك الأثناء فوجىء الناس بالشريف حسين بن على ملك الحجاز يومئذ باعلان نفسه خليفة على المسلمين دون تشاور معهم أو بيعة منهم ورفض كثير من المسلمين الاعتراف له بالخلافة .

ومما هو جدير بالذكر أن الملك عبد العزيز بن سعود بدأ الزحف على الحجاز سنة ١٩٢٥ وأخرج على بن الحسين من جدة فى ديسمبر سنة ١٩٢٥ وأعلن عبد العزيز ضم الحجاز الى مملكته فى يناير ١٩٢٦ ثم أعلن نفسه ملكا على نجد والحجاز سنة ١٩٢٧ .

ونشطت الجهود استعدادا لعقد هذا المؤتمر فى داخل مصر وخارجها

---

(٧) أنظر : قرار الهيئة العلمية ، الدينية الاسلامية الكبرى بالديار المصرية فى شأن الخلافة ، سنة ١٣٤٢ هـ محفظة رقم ٢ من محافظ الخلافة : دار الوثائق بالقاهرة .

وبدأ ملك مصر يومئذ وهو الملك فؤاد حفيد محمد على يعد نفسه لتولى هذا المنصب منافسا بذلك الشريف حسين بن على •

ووسط هذه الظروف السياسية الصعبة التى تتعلق بمصير الخلافة الاسلامية صدر كتاب فى مصر بعنوان « الاسلام وأصول الحكم » فى أبريل سنة ١٩٢٥ يبحث فى الخلافة والحكومة فى الاسلام مؤلفه قاضى شرعى فى مصر وعالم من علماء الأزهر هو الشيخ « على عبد الرازق » حاول فيه مؤلفه أن يثبت أن الخلافة ليست من الاسلام وذلك لأن الاسلام دين والدين ضد الدنيا ، فلا علاقة للاسلام بشئون الدنيا ومنها الخلافة ، وأن الاسلام لا صلة بالحكم ولا بالمجتمع ولا بالدنيا ، وأنه يجب اذن انهاء الخلافة من حياة المسلمين ، وأن الخلافة الاسلامية التى قامت فى التاريخ لم تكن اذن اسلامية بل ملكا دنيويا وأن أبا بكر كان أول ملك فى الاسلام ، وأن الاسلام فى حقيقته ليس فيه (جهاد) ، وأن جهاد النبى لم يكن من صميم الرسالة ولا جزءا منها لأن الجهاد — كما يزعم — مؤلف هذا الكتاب انما يكون فى سبيل الملك وتوسيع السلطان •

الى غير ذلك من الآراء الشاذة التى تخالف ما يعتقد المسلمون وما اجتمع عليه علماؤهم والتى أحدثت دويا فى أوساط المسلمين • ولا يمكن الا أن تكون آراء لمستشرق استعمارى صهيونى عدو للاسلام والمسلمين ولا يريد لهم القوة •

والذى لا مراء فيه هو أن آراء الشيخ على عبد الرازق التى طرحها فى كتابه كانت (تطابق تماما أهداف الانجليز) والسياسة الاستعمارية فى العالم الاسلامى ، فالانجليز كانوا يريدون هدم الخلافة والقضاء عن كل فكرة من أجل التجمع من جديد حول الوحدة الاسلامية وهذا هو الغرض الأساسى من الكتاب كله[٨] •

---

(٨) انظر : د. ضياء الريس : الاسلام والخلافة فى العصر الحديث ، نقد كتاب الاسلام وأصول الحكم ، القاهرة ، ١٩٧٦ م ص ١٨٣ •

وأعداء الاسلام يعمدون دائما الى تشويه تاريخ الاسلام والطعن في شخصياته وهذا هو الذى قرره وأكده الشيخ عبد الرازق بعبارات حماسية عنيفة فى كتابه ، والمستعمرون عامة يعملون على ابعاد الاسلام عن السياسة وفصله عن الدولةوتجريده من القوة وواجب الجهاد والحرب وحق الدفاع عن نفسه ، ليسهل على المستعمر الاعتداء على المسلمين واستعبادهم واحتلال بلادهم واغتصاب أراضيهم وثرواتهم ، فلا يكون للمسلمين جهاد ولا دفاع ضدهم ولا تدخل فى السياسة لأن هذه الأمور كلها من شئون الدنيا .

وهذه الآراء التى هى فى مجملها آراء المستشرقين انبرى للدفاع عنها الحزب الموالى للانجليز فى مصر والى ينتمى اليه الشيخ على عبد الرازق وأسرته وهو (حزب الأحرار الدستوريين) الذى انبثق من حزب الأمة ربيب الاستعمار الانجليزى فى مصر ، واذا كان حزب الأمة المنحل قد نشأ بايحاء ورعاية « اللورد كرومر » المندوب السامى فى مصر ، فان حزب الأحرار الدستوريين نشأ كذلك بتأييد الانجليز ورعاية « اللورد اللنبى » ممثل الاستعمار البريطانى فى مصر والشرق ، وكان هذا الحزب الأخير الذى ينتمى اليه الشيخ على عبد الرازق وأسرته يقوم على أساس مبدأ التعاون مع الانجليز وصداقتهم ومسايرة سياستهم ، ولا شك أن هذا الكتاب وضع بالتعاون مع المخابرات البريطانية .

وقامت ثورة فى « الصحافة المصرية » ، بين مؤيد ومعارض ، فالصحف التى كانت تعيش فى ظل الاحتلال البريطانى أيدت الفكرة وأسبغت على الشيخ ألقابا كثيرة لا يستحقها من بينها : « العلامة الكبير » و « الأستاذ المحقق » و « المصلح المجدد » بينما رمته الصحف الوطنية بالطيش فى الرأى والالحاد فى العقيدة وتعرض لهجوم شديد من كثير من المفكرين الوطنيين ورماه كثير منهم بالخيانة .

وكان من نتيجة نشر هذا الكتاب أن قامت بعض (المظاهرات) فى مصر من الأزهر تعلن الاحتجاج ورفعت عرائض وقع عليها عدد كبير

من العلماء الى شيخ الأزهر وبعض الجهات الرسمية طالبوا فيها أن ينهض الأزهر بواجبه فى الدفاع عن الاسلام والرد على هذه الدعوات الالحادية الهدامة التى تعد خروجا على أحكام الدين وتحريفا لحقيقة الاسلام وطعنا فى تاريخه •

وكانت النتيجة أن صدر (قرار من الأزهر) بتقديم مؤلف الكتاب الشيخ « على عبد الرازق » الى محكمة تأديبية أمام هيئة كبار العلماء •

وكان لهـذه المحاكمة دويا لأن التهمة فيهـا تتعلق بمسـألة دينية وسياسية فى نفس الوقت ، وصدر الحكم فيها باخراج الشـيخ على عبد الرازق من زمرة العلماء •

ومهما يكن من أمر هذا الحكم فان الكتاب قد ساهم فى نسف فكرة عودة نظام الخلافة لجمع شمل المسلمين ، أما عن المؤتمر الذى دعا اليه الأزهر لبحث مسألة الخلافة فقد انعقد فى القاهرة فى مايـو ١٩٢٦ م وذلك بعد أن تأخر عاما عن الموعد الذى حدد لانعقاده فى مارس ١٩٢٥ م وظهر فى أول جلساته أنه مختلف الاتجاهات وبدى أنه من المتعذر الوصول الى اتفاق ، عند ذلك رأى القائمون عليه أن أسلم طريقة لحفظ كلمـة المسلمين من التفرق وابقاء على الخلافة وحماية لها هو أن يسـعوا لفض هذا المؤتمر قبل أن يتخذ قرارات معينة من شأنها أن تزيد النفرة بين المسـلمين •

ويلاحظ أن علماء الأزهر اكتشفوا فى مؤتمر القاهرة مدى اتساع الهوة بين الشعوب الاسلامية وازدياد الفرقة التى عمل الاستعمار على تعميقها وأن هناك حواجز تحتاج الى وقت طويل تصلح فيه النفوس التى أفسـدها الاسـتعمار ، واحتاج المسـلمون نحو نصف قرن بعـد ذلك لكى يجتمعوا بزعامة قادتهم ورؤسائهم فى اجتماع القمة بالمغـرب سنة ١٩٦٩ م عقب حريق المسجد الأقصى بفلسطين ، وكان هذا الاجتماع على الرغم من سلبياته الا أنه كان أشبه بالمعجزة •

ولعل سبب فشل مؤتمر القاهرة يرجع الى عوامل خارجية وداخلية ، أما العوامل الخارجية : فكانت تتلخص فى خطورة المسألة الموضوعة على بساط البحث وعدم امكان الاتفاق بين زعماء المسلمين على من يولونه خليفة وفى أى قطر تكون الخلافة فكان هناك تنافس شخصى وسياسى بين الملوك والرؤساء أزكاه الانجليز ، وعدم وجود من يصلح لهذا المنصب الجليل وكان لدسائس الاستعمار ومساعى بريطانيا بالذات كبير الأثر فى ايجاد التفرقة وعرقلة الجهود الرامية الى اقامة الخلافة من جديد ، كما كان لاعلان الشريف حسين بن على نفسه خليفة على المسلمين وعدم اشتراكه فى المؤتمر من العوامل المؤثرة والمؤدية الى فشل المؤتمر ، كما أبرق أحد زعماء المسلمين الهنود الخاضعين للانجليز الى المؤتمر بأنه لا يزال على مبايعته لعبد المجيد الثانى العثمانى المعزول ، وأنه لا يزال يعده خليفة المسلمين كما بعث كثير من المسلمين يسألونه ويشكون فى مقاصد المؤتمر ويقولون : هل المراد من المؤتمر حفظ الخلافة قياما بالواجبات الدينية أم أن المقصود فقط هو نقل الخلافة من شاطىء البسفور الى شاطىء النيل .

وأما العوامل الداخلية : الخاصة بمصر فهى أن الملك فؤاد الذى يبدو أنه أعد نفسه لهذا المنصب كان لا يظهر أنه الرجل الذى تتوفر فيه شروط الخلافة اذ أن لها شروطا عالية ، من حيث العلم والتقوى فضلا عن أنه ليس من أصل عربى وتربى فى أوربا وكان مفتونا بها ، وأكثر من ذلك أنه لم يكن محبوبا من شعبه فى الداخل ، فلم يتجاوب مع أمانى الشعب الوطنية فى الحرية وكان يريد أن يقمع ارادته وينفرد بالحكم ، وكان يناصب زعيم الشعب المصرى سعد زغلول العداء وتآمر عليه لاخراجه من الحكم فلم يكن أحد من الشعب المصرى يرحب أن يرتفع هذا الملك الى مقام الخلافة السامى لكى يزداد نفوذه فى البلاد ويزداد استبداده اللهم الا اذا تحققت شروط معينة لتقييد سلطته من أجل منع هذه المخاطر ، كما

رأى علماء الأزهر الذين تحمسوا لفكرة الخلافة وضرورة عودتها للهيمنة على حياة المسلمين من جديد[٩] •

وكانت هذه الظروف الخارجية والداخلية السالفة أقوى من تحمس علماء الأزهر لفكرة عودة الخلافة ففشل المؤتمر وفشلت جهودهم لاعادة وحدة المسلمين وقتل الموضوع فى مهده ، وانفض المجتمعون وعاد كل الى وطنه وبقى العالم الاسلامى حتى وقتنا هذا بدون خليفة ، ويبـــدو من واقع المسلمين الحالى أنه ليست هناك أية محاولات لعودة الخـــلافة من جديد وذلك بفعل ألاعيب الاستعمار وتفريقه للمسلمين •

وبعـــد أن انطفأت فكرة اعادة الخـــلافة للعالم الاســـلامى تمكن الاستعمار من ترويج فكرة القوميات لتمزيق العالم الاسلامى الى عصبيات جنسية متعادية ومتنافسة ومتحاربة أحيانا ، وتفريق كلمتهم كما هو واقع المسلمين اليوم •

كما قامت الدول الاستعمارية بحركة نشطة فى ميدان الغزو الفكرى والثقافى عن طريق حكم الوصاية والانتداب والاستعمار واعداد قيادات عميلة داخل الأوطان العربية والاسلامية تؤمن بالحضارة الغربية وقوانين الغرب بديلا عن الحضارة الاسلامية والشريعة الاسلامية •

---

(٩) د• ضياء الريس : مرجع سبق ذكره ، ص ١٧٨ — ١٧٩ •

الفصل الخامس

الغزو الفكرى فى العالم الاسلامى

« ان السيطرة على أى منطقة من العالم لا تتم الا من خلال وقف مفعول الحضارة الداخلية لهذه المنطقة » ..

هنرى لامانس اليسوعى الفرنسى

١٨٧٢ — ١٩٣٧ م

الغــزو الفكرى فى العالم الاســلامى

بعد أن فشل الغزو المادى المسلح للمسلمين من ادراك غاياته وهى السيطرة على العالم الاسلامى ، تفتق ذهن أعداء الاسلام عن خطــة جديدة تقوم على غزو عن نوع جديد يؤدى نفس الغرض وهو السيطرة على المسلمين وهذه الخطة الجديدة هى غزو أفكار المسلمين وتقوم على مرحلتين :

الأولى : هدم الاسلام فى عقائده ونظامه وشرائعه وثقافته ولغته وتقاليده ووحدة أمته انطلاقا من قول المستشرق الفرنسى هنرى لامانس (١٨٧٢ — ١٩٣٧) •

« ان السيطرة على أى منطقة من العالم لا تتم الا من خلال وقف مفعول الحضارة الداخلية لهذه القطعة » •

وفى المرحلة الثانية : بعد وقف مفعول الحضارة الداخلية اغــراء المسلمين بتقليد الغرب المسيحى فى نظمه وقوانينه الوضعية ولغته وثقافته وتمجيد القيم الغربية المسيحية وذلك على حساب تراث الأمة الاسلامية وتكون النهاية انصراف المسلمين عن التمسك بالاسلام •

لهذا تخلى الغرب المسيحى عن استعمار الأراضى واســتعمر بدلها العقول والقلوب ما دام هذا يوصــله الى هدفه وهو الســيطرة على المسلمين • وهذا الأسلوب الجديد أخطر ألف مرة من أساليب الاستعمار السابقة العسكرية والسياسية لأنه يسرى فى جسم العالم الاســلامى سريان السم ويقدم اليهم فى أطباق شهية خداعة وهم لا يدرون أن السم فى العسل ، لقد قاد هذه الهجمة اليهود والمستشرقون والصليبية العالمية والمبشرون والشيوعيون والمؤازرون لهؤلاء جميعا فى داخل البــلاد الاسلامية •

ولكن كيف بدأت هذه الخطة الماكرة ؟ بدأت بعد فشل الحـــروب الصليبية التى كانت صراعا سافرا بين الشرق الاسلامى والغرب المسيحى دام نحو قرنين من الزمان فقد بدأت هه الحروب عام ٤٩٠ هـ (١٠٩٦م) بالحملة الصليبية الأولى ثم انتهت بسقوط عكا فى يد المسلمين بقيادة السلطان المصرى الأشرف خليل بن المنصور قلاوون سنة ٦٩١ هـ (١٢٩١م) وحفلت هذه الفترة الزمنية بالعديد من التجارب والعبر المستفادة بالنسبة للمسلمين والصليبيين على السواء •

وقد تبلورت هذه الدروس المستفادة من الحروب الصليبية بالنسبة للصليبيين فى وصية كتبها لويس التاسع ملك فرنســا الذى قاد الحملة الصليبية السابعة على مصر سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) والتى أتاحت له معاناته فى سجنه بالمنصورة فرصة هادئة ليفكر بعمق فى الســياسة التى يجب على الغـــرب اتباعها بعد ذلك اذا ما فكر فى غـــزو الشرق الاســـلامى •

وكانت بنود هذه الوصية هى تحويل الحملات الصليبية العسكرية الى حملات صليبية سلمية تستهدف الغرض نفسه ، ويكون سلاح الحملات الجديدة هو اثارة الخلافات بين الأوساط الاسلامية واشاعة التفكك فى وحدة المسلمين ، والعمل على بقاء هذه الخلافات مستمرة بين الأمـــراء المسلمين والامعان فى تأييد بعضهم ضد البعض وتأمين هذا التـــأييد اذا دعت الحال بمعاهدات ومحالفات يمكن نقضها عند الاقتضاء واستغلال ما يكون بين العرب وأمراء المسلمين من منافسات وخلافات استغلالا يمكن العرب من التمتع بامتيازات سياسية واقتصادية وثقافية مما يهيىء السبيل الى تفتيت الكتلة الاسلامية •

ومن ناحة أخرى فقد لمس الغرب المسيحى تقدم الشرق الاسلامى حضاريا عنه فبدأ يتعلم علوم المسلمين لكى يهزمهم بأسلحتهم وأيضــا ليشوه عقائد المسلمين وتاريخ الاسلام •

يقول المفكر الهندى وحيد الدين فى هذا الصدد :

« وبعد الفشل الذريع (أى فى الحروب الصليبية) قررت أوربا تغيير سياستها ، وأخذت تستعد لحملة جديدة على عالم الاسلام » .

« وكانت خلاصة التفكير الجديد أن يتعلم الغرب علوم المسلمين ثم يهزمهم بأسلحتهم وفنونهم ذاتها » .

« وسمى الأوربيون الحرب الجديدة ، بالصليبية الروحية Spritual Crusade وكانت غاية الصليبية الروحية أن يتعلم الأوربيون علوم المسلمين فيشوهوا العقائد الاسلامية وتاريخ الاسلام »[1] .

ويدأ الغرب جاهدا فى اقامة جسور من العلاقات السلمية التجارية والثقافية والدبلوماسية فى بداية نهضته لكى يتوغل ببطء فى قلب العالم الاسلامى وهذه العلاقات تمخضت عن اتفاقيات ومعاهدات تضمنت امتيازات للاجانب فى بلاد المسلمين توسعت فيها شيئا فشيئا حتى أضحت تشكل تدخلا سافرا فى أوضاع الدول الاسلامية ، وأضحى بموجبها للاجانب دول داخل الدول ، وكانت بذلك الامتيازات الغربية احدى الوسائل الفعالة التى سهلت مهمة الغزو الفكرى فى أرجاء العالم الاسلامى .

فما هى اذن قصة هذه (الامتيازات الغربية ؟)[2] برزت الامتيازات الغربية فى البلاد الاسلامية بشكل واضح فى النصف الأول من القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) وكانت علاقة الدولة العثمانية

---

(١) انظر : مقالا لوحيد الدين خان بجريدة الأخبار القاهرية بعنوان : « الغرب .. حيث توقف المسلمون » ، عدد ١٨ من أكتوبر (تشرين أول) سنة ١٩٧٢ .

(٢) انظر تفصيلا عن الامتيازات الأجنبية فى كتاب الدكتور عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ٢ ، الفصل ٢٤ ، الفصل ٢٥ .

وهى يومئذ دولة الاسلام الكبرى وتسيطر على منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا « كانت علاقتها بممالك أوربا فى البداية علاقة عدائية طابعها العام هو العنف والحروب المتصلة وظلت على هذه الوتيرة زمنا طويلا ، ولم يكن هناك مجال لاقامة جسور سلمية بين العثمانيين وممالك الغرب • وابتدأت المراسلات السلمية بين الدول الأوربية فى عصر السلطان سليمان المشرع (٩٢٦ — ٩٧٤ هـ) (١٥٢٠ — ١٥٦٦ م) أعظم سلاطين بنى عثمان على الاطلاق والذى كان معاصر للملك فرانسوا الأول ملك فرنسا • فان الظروف والملابسات السياسية حتمت مثل هذا التلاقى بين فرنسا والدولة العثمانية ، وذلك بسبب العداء الذى بين فرنسوا الأول وملك أسبانيا شارل الخامس أعظم ملوك أوربا المسيحية فى ذلك العصر وكان خصم الدولتين العثمانية والفرنسية فى وقت واحد ، وكانت امبراطوريته تضم فى وقت واحد أسبانيا وهولندا وألمانيا وجزءا كبيرا من ايطاليا ، وكانت أملاكه تحيط بفرنسا من جميع الجهات الا من جهة البحر ، وحاول فرانسو الاتصال بالسلطان سليمان لاقامة نوع من العلاقات الدبلوماسية بين البلدين توصلا للتحالف ضد أطماع شارل الخامس •

وكانت أمنية فرنسا منذ عهد لويس التاسع هى اقامة مثل هذه المعاهدات التى تمثل زحفا سلميا على الشرق ، وفى عهد فرانسوا الأول وجدت الظروف الملائمة لذلك ، والتى سبقت الاشارة اليها وتبودلت الرسائل الودية بين سليمان المشرع وفرانسوا على يد السفراء وخاصة من جانب فرنسا التى كانت فى حاجة الى معاونة الدولة العثمانية ابان صراعها مع الامبراطور شارل الخامس •

وبعد أن فتح السلطان سليمان العراق ودخل العثمانيون تبريز للمرة الثانية ٩٤١ هـ (١٥٣٤ م) أرسل فرانسوا سفيرا فرنسيا الى سليمان يهنئه بفتوحاته الجديدة وعلى يد هذا السفير ويدعى (لافورى) تم التوصل الى اتفاق فى عام ٩٤٣ هـ (١٥٣٦ م) يعتبر الأول من نوعه فى

تاريخ العلاقا تالعثمانية الأوروبية وذلك لما اشتمل عليه من أمتيـــازات عظيمة للرعايا الفرنسيين النازلين بالأراضى العثمانية •

وهذا الاتفاق يشتمل على ستة عشر بندا ينص البند الأول منه على اقامة الوفاق والسلم الأكيدين بين البلدين مدة حياة الملكين (فرانســـوا وسليمان) وجواز سفر رعاياهما المدنيين والعسكريين للتجول فى بلاد الطرف الآخر والاقامة فيها بقصـــد التجارة دون تعـــد عليهم أو على متاجرهم ، ودون أن تجبى ضرائب على رعاياهما أكثر مما يدفعه المواطنون فى كلا البلدين •

ونصت باقى المـــواد على اقامـــة تمثيل قنصـــلى فى بلاد الدولة العثمانية ومنح قناصل الفرنسيين سلطات واسعة للحـــكم على الرعايا الفرنسيين فى القضايا المدنية والجنائية دون تدخل من المحاكم الشرعية الاســـلامية •

وبذلك كانت فرنسا أول دولة أوروبية ، حازت على امتيازات لرعاياها فى الدولة العثمانية ، وقد حذت بريطانيا وألمانيا وايطاليا وغيرها من دول أوروبا حذو فرنسا ، فحصلت على امتيازات مماثلة فى الدولة العثمانية وولاياتها •

وقد فتحت هذه الامتيازات الباب على مصراعيه للغزو الفكرى فى البلاد الاسلامية • ولكن كانت تلك الامتيـــازات حتى ســـنة ١١٥٢ هـ/ ١٧٣٩م امتازات مؤقتة يمنحها السلاطين وتنتهى بموتهم أو تركهم العرش لغيرهم ، كما كانت هذه الامتيازات لا تأثير لها فى ظل قوة الدولة العثمانية وعظمتها ولكن عندما ضعفت الدولة ، بدأ الأجانب يتوسعون فى هـــذه الامتيازات وأصبحت تشكل غزوا سلميا وتدخلا فى بلاد المسلمين •

ففى سنة ١١٥٣ هـ/ ١٧٤٠ م حصلت فرنسا على معاهدة جديدة كانت أساسا جديدا للامتيازات فقد نصت صراحة على أن تبقى أحكامها سارية

المفعول غير محتاجة الى اجازة أى سلطان فى المستقبل كما هو الشـــأن من قبل ابرامها ، كما نصت على أن تكون هى صاحبة الدولة الأولى بادرعاية فى البلاد الاسلامية التابعة للدولة العثمانية ولا يفوق نفوذها أى دولة أخرى كما جمعت جميع الامتيازات السابقة ولخصتها فى معاهدة واحدة توســـعت فى الحقوق التجـــارية والقضائية والثقـــافية فى بلاد الدولـــة العثمانية •

وبذلك أصبحت هناك قواعد للغزو الفكرى لفرنسا فى كثير من أجزاء الوطن العربى والاســـلامى وحذت حذو فرنسا باقى الدول الغربيـــة وأصبحت هذه القواعد تمهد الأرض الاسلامية للاستعمار وتهديه الى مفاتيح ثغورها وأبوابها وتكشف له عن طبيعة الميدان قبل أن يقتحمه غازيا ريستبيح حماه محتلا غاصبا •

وبذلك سبقت حملات الغزو العسكرى الاستعمارى الأخيرة بعثات استكشاف فكرى كانت أوكارها فى القنصليات تدرس طباع شـــعوبنا وعقلياتها وأمزجتها ، وحين كنا فى غفلة عن تراثنا كان جواسيس الغرب يجوسون خلال الديار ويبحثون عن ذخائر تراثنا ويعكفون على قراءته للكشف عن ملامح ذاتنا وسر وجـــودنا على مسار الزمن ، وكان هؤلاء يرسلون تقاريرهم تباعا الى حكوماتهم فيها أهم ما قاموا برصده فى البلاد الاسلامية •

دعاة الغـــزو الفكرى :

أولا : المستشرقون :

فى أعقاب الحروب الصليبية عاد الغرب الى أوربا يحمـــل صـــورة مشرقة لمعاملات الاسلام وكثيرا من جوانب التقدم والسماحة ، فتيقظت الكنيسة الكاثوليكية لهذا الخطر الذى يهدد المسيحية فى عقر دارها ، فجندت جماعة من المفكرين فى طليعتهم رجال الدين المسيحى يدرسون

الاسلام بوحى من الكنيسة للانتقاص من تعاليمه واهدار قيمه ، واتخذوا من وصية لويس التاسع ملك فرنسا السالفة عاملاً مساعدا لهم على ضرب الاسلام والمسلمين .

وبذلك بدأت أولى أعمال المستشرقين لاطفاء هذا الضوء الذى لاح فى الغـــرب واخراس ألســـــنة المنصفين منهم وحاولوا جهدهم تناول المسلمين بالتشويه والتزييف والعمل على تعميق الكراهية والأحقاد فى نفوس الأوروبيين وتغذيتها بالشبهات والأباطيل بهدف حجب الاســـلام عن أوربا والحيلولة دون نفاذه اليها(٣) .

وعندما بدأ الضعف يدب فى أرجاء العالم الاسلامى فى أواخر القرن التاســـع الهجـــرى ومطلع العاشر الهجرى فكر الغـــرب المسيحى فى الانقضاض عليه للقضاء على الاسلام الذى شبهته الكنيسة الكاثوليكية يومئذ بأنه طاعون وطالبت بضرورة بذل الجهود للحيلولة بين ســـــكان بقية العالم وبين اصابتهم بالطاعون الاسلامى ، ومن ثم كانت هجمــــة البرتغاليين والأسبانيين فى هذه الفترة على أطراف العالم الاسلامى فى البحار الشرقية فى نفس الوقت الذى بدأت فيه الاتصالات السلمية بقلب العالم الاسلامى والعمل على رصد كل صغيرة وكبيرة فى بلاد المسلمين وكشف موارد الثروة فيها واستغلال تلك الثروة ونقلها الى الغرب واستتبع هذا الاتصال السلمى نفوذ سياسى قوى للغرب المسيحى فى العــــالم الاسلامى .

وتساءل الغرب كيف يدوم له هذا النفوذ السياسى والاســـتغلال الاقتصادى والاسلام ما زال يدعو معتنقيه الى الجهاد والثـــــورة على الاستغلال والظلم ؟ من هنا بدأ الغرب يفكر فى وسيلة لاضعاف المسلمين وتقليم أظافرهم والعمل على تحطيم المقاومة الاسلامية وبدأت جهـــود

---

(٣) د : على جريشة ، أساليب الغزو الفكرى للعالم الاسلامى ، ط١ ، ص ٢١ — ٢٢ .

المستشرقين فى مجال تأويل الجهاد وصرف أنظار المسلمين الى الدعة والقعود عن الجهاد فى سبيل الله ومدافعة الغزاة بالاشتغال بالعبادة والزهد وتسميتها بالجهاد الأكبر[٤] . ليسهل للاستعمار السيطرة عليهم لأطول مدة ممكنة .

وبدأ المستشرقون عملهم لحماية الاستعمار فى البلاد الاسلامية بتشويه مبادىء الاسلام وبعثهم لخلافات المسلمين الماضية وخلقهم خلافات أخرى لا يلتفت اليها المسلم بعد ما صهر الاسلام علاقته بأخيه المسلم وكون منها وحدة قوية .

ولما كان الغرب قد تقدم علميا فى عصر النهضة فقد بدأ يستغل هذا التقدم فى المفاضلة بين الشرق الاسلامى والغرب المسيحى من تأخر الأول وتقدم الثانى ثم تركزت الأسباب أخيرا فى المقابلة بين الاسلام والمسيحية واعتبر الاسلام دين المتخلفين والمسيحية دين المتقدمين .

وخلاصة عمل المستشرقين فى البلاد الاسلامية تتلخص فى غرضين :

الأول : اضعاف القيم الاسلامية عن طريق شرح تعاليم الاسلام ومبادئه شرحا يهز القيم الاسلامية فى عقول المسلمين ويضعف تمسك المسلم بالاسلام ويقوى فى نفسه الشك فيه كدين[٥] .

ثانيا : بعد مرحلة التشويه تبدأ مرحلة تقديم البديل للمسلم على أيدى المنصرين الذين يسمون خديعة بالمبشرين لاغواء المسلمين وغيرهم باعتناق المسحية .

---

(٤) المرجع السابق ، نفس المكان .

(٥) محمد البهى ، الفكر الاسلامى الحديث ، وصلته بالاستعمار الغربى ص ٢٧ .

ولقد نجح المستشرقون الى حد كبير فى المجال الأول وفشلوا هم والمبشرون فى المجال الثانى وهذا باعترافهم هم •

فعندما اجتمع مؤتمر المبشرين فى جبـل الزيتون بفلسطين عـام ١٩٠٩ م وقف مقرر المؤتمر ليقول : « ان جهود التبشير الغربية فى خلال مائة عام قد فشلت فشلا ذريعا فى العالم الاسلامى لأنه لم ينتقل من الاسلام الى المسيحية الا واحدا من اثنين : اما قاصر خضع بوسـائل الاغراء أو بالاكراه ، واما معدم تقطعت به أسباب الرزق فجاءنا مكره ليعيش » •

وهنا وقف القس زويمر ليقول : « كلا • هذا الكلام يدل على أن المبشرين لا يعرفون حقيقة مهمتهم فى العالم الاسلامى ، انه ليس من مهمتنا أن نخرج المسلمين من الاسلام الى المسيحية ، كلا !

ان مهمتنا أن نخرجهم من الاسلام فحسـب وأن نجعلهم ذلولين لتعاليمنا ونفوذنا وأفكارنا ، ولقد نجحنا فى هذا نجاحا كاملا ، فكل من تخرج من هذه المدارس لا مدارس الارساليات فحسب ولكن المدارس الحكومية والأهلية التى تتبع المناهج التى وضـعناها بأيدينا وأيدى من ربيناهم من رجال التعليم ، كل من تخرج من هذه المدارس خـرج من الاسلام بالفعل وان لم يخرج بالاسم وأصبح عونا لنا فى سياستنا دون أن يشعر ، أو أصبح مأمونا علينا ولا خطر علينا منه • لقد نجحنا نجاحا منقطع النظير »(٦) •

وفى مؤتمر سابق للمبشرين فى القاهرة فى عام ١٩٠٦ قال زويمر سابق الذكر وكان رئيس المؤتمر :

« لم يسبق وجود عقيدة مبنية على التوحيـد أعظم من عقيدة الدين الاسلامى الذى اقتحم قارتى آسيا وأفريقيا وبث فى مائتى مليون من البشر عقائده وشرائعه وتقاليده ، وأحكم عروة ارتباطهم باللغة العربية »•

---

(٦) سيد قطب ، فى التاريخ فكرة ومنهاج ، ط٢ ص٦٦ — ٦٧ •

ثم قدم القسيس زويمر بعض النصائح للمبشرين من بينها :

(أ) وجوب اقناع المسلمين أن النصارى ليسوا أعداءهم •

(ب) وأخطرها يجب تبشير المسلمين بواسطة رسول منهم ومن بين صفوفهم لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها[٧] •

ومن ثم فمن الواجب علينا أن نتتبع نشاط المستشرقين وأعوانهم في المجال الأول الخاص باضعاف عقيدة المسلم فاذا أمكننا ذلك استطعنا أن نتعرف على أقوالهم التى اختلطت بذكاء وخبث فى ثقافتنا المعاصرة لكى نتمكن من غربلة هذه الثقافة وتنقيتها من الدخيل الهدام ، أو بمعنى آخر تنقية غذاء العقل والروح من السم الذى دسه الحاقدون على المسلمين فى غفلة منهم •

ومن هذا القبيل ما تناوله (أرنست رينان) المستشرق الفرنسى فى تصويره (عقيدة التوحيد) فى الاسلام بأنها عقيدة تؤدى الى حيرة المسلم كما تحط به كانسان الى أسفل الدرك ، وهذا الكلام ظاهر البطلان لأن عقيدة التوحيد مزية الاسلام فصاحب هذه العقيدة لا يخضع فى حياته لغير الله[٨] •

وقد ألقى رينان هذا محاضرة فى جامعة السربون بباريس كان موضوعها (العلم والاسلام) كان مما جاء فيها : « ان انتاج الأمم غير العربية أكثر من انتاج الأمة العربية وأن التمدن أكثره من انتاج الفرس وغيرهم دون العرب ، ورغم أن الاسلام لا يشجع على العلم والفلسفة والبحث الحر وأن من اشتغل بالفلسفة من المسلمين اضطهد وحرقت كتبه، أو كان فى حماية خليفة أو أمير من المؤمنين » •

---

(٧) على جريشة ، أساليب الغزو الفكرى ، ط ١ ، ١٣٩٩هـ ص ٣٣ — ٣٤ •

(٨) د• محمد البهى : الفكر الاسلامى الحديث ، وصلته بالاستعمار الغربى ، ص٣٨ •

وقد نشرت هـذه المحـاضرة فى جريـدة الديبـا الفرنسـية Journal des Debats ورد عليه جمال الدين الأفغانى وكان حينئذ فى باريس بمقال نشر فى جريد الديبا أيضا خلاصته[٩] :

« ان ما ذكره رينان عن الاسلام ليس هو من طبيعته ونتيجةتعاليمه بل من عمل بعض من اعتنقوا الاسلام فى بعض العهود ، وأن الاضطهاد الذى قال عنه رينان قد وقع مثله فى الأديان الأخرى ، فرؤساء الكنيسة الكاثوليكية لم يتركوا هذا السلاح حتى الآن • وأما عن قوله أن الاسلام لا يشجع على العلم ، فان الكل يعلم أن الشعب العـربى خرج من حال البداوة التى كان عليها قبل الاسلام وأخذ يسير فى التقدم العلمى والفكرى ويسير فى هذا المجال بسرعة لا تعادلها الا سرعة فتوحاته السياسية ، فتقدمت العلوم تقدما مدهشا بين العرب وفى كل البلاد التى انضـمت لسيادته »[١٠] •

وكذلك (فكرة العودة الى القرآن الكريم) التى نادى بها ابن تيمية وتابعه فيها محمد بن عبد الوهاب وغيره من بعده من المصـلحين حتى وقتنا هذا ، بعدما رأينا العصبية الجاهلية للمذاهب الكلامية • وبعـد مارأينا انقسام المسلمين الى طوائف انقساما واضحا ، هذه الفكرة التى ترمى الى العودة الى صفاء التعاليم الاسلامية وبساطتها قبل تعقيدها بالشروح المغرضة أو القائمة على تعسف وعدم استقامة فى تخريجها ، وبهذا يمكن للجماعة الاسلامية أن تعود الى الوحدة ، أو على الأقل الى التماسك أو عدم التضارب فى الآراء والسياسة •

ولكن المستشرقين عندما وقفوا على هـذه الفـكرة ورأوا أثرها الايجابى فى حياة الجماعة الاسـلامية لو سارت مسـتقبلا فى طريقها

---

(٩) ارنست رينان عاصر جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده

(١٠) محمد عمارة ، الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ص ٢٠٨ وعبد الرحمن الرافعى ، جمال الدين الأفغانى ، ص١٣٢ — ١٣٣ .

الصحيح المرسوم لها ، فعند ذلك تصدوا لها وأمالوا بها عن هذا الطريق وشرحوها شرحا محرفا فى زعمهم : بأن معنى العودة الى القرآن الكريم أو الى عصر الصحابة الأول ، رضوان الله عليهم هو الرجوع الى الحياة البدائية التى كانت للجماعة الاسلامية الأولى • وقد كانت جماعة بدائية ثم ينكرون على من يقوم بهذه الفكرة أنه يدعو الى الاصلاح والاصلاح فى نظرهم هو التطور والأخذ بأساليب المدنية الحديثة والقوانين الوضعية المعاصرة وأسلوب الحكم الحديث • فاذا طلب انسان العودة الى العهد البدائى والأساليب البدائية باسم الاصلاح، فهو اما مدع الاصلاح ، أو غير فاهم لمعنى الاصلاح •

وكان من نتيجة ذلك أن كثيرا من الحكام المستبدين فى الشرق الاسلامى قاموا بضرب حركات الاصلاح ووصفوها بالخروج على الاسلام ، ومثل هذا حدث من السلطان العثمانى محمود الثانى (١٢٢٣ — ١٢٥٥هـ) عندما عمل جاهدا على ضرب الدعوة السلفية فى الجزيرة العربية التى نادى بها محمد بن عبد الوهاب ، والتى كانت قد حققت كثيرا من الذيوع والانتشار والانتصار فى كثير من الميادين ، فأوكل السلطان العثمانى (لمحمد على) والى مصر بالزحف على الجزيرة العربية وضرب هذه القوة وساعد الغرب محمد على فى حروبه فى الجزيرة العربية وأعطته فرنسا وانجلترا كثيرا من الضباط والمستشارين العسكريين الذين رافقوا حملته على الجزيرة العربية يوجهون الغزو ويشيرون على الطاغية (ابراهيم بن محمد على) بما يفعله ضد اخوانه المسلمين ، وظل هؤلاء المستشارين فى جيش محمد على مادامت الحرب ضد المسلمين فى جزيرة العرب ، وعندما توجه جيش محمد على لضرب الثورة اليونانية فى شبه جزيرة المورة سنة ١٢٣٧هـ (١٨٢١م) وذلك بأمر من السلطان العثمانى أيضا ، عند ذلك رفض المستشارون العسكريون الفرنسيون والانجليز أن يتبعوا جيش محمد على وانسحبوا منه لأنه سيضرب أمة أوربية تجمع بينها وبينهم صلات الدين والثقافة والتاريخ •

بعث العصـــبيات الشعوبية بين المسلمين :

نشأت الجماعة الاسلامية الأولى على أيام الرسول محمد عليـــه الصلاة والسلام وفيها كثير من الأجناس فبجانب العربى كان ســـلمان الفارسى ، وصهيب الرومى ، وبلال الحبشى • والكل اخوة فى الله ، فقد صهر الاسلام علاقة المسلم بأخيه المسلم بقاعدة ذهبية قوامها : « الناس سواسية كأسنان المشط » « لا فرق لعربى على عجمى الا بالتـــقوى » و « اسمعوا وأطيعوا ولو ولى عليكم عبد حبشى » •

فقضى الاسلام بذلك على التمييز بين الأجنـــاس والألوان الذى يغرس الحقد فى نفوس البشر ، ومن ثم دخل الاسلام آسيا وافريقيا وسادت بين أفراده المحبة المبنية على أساس من المساواة ، وبذلك تقدمت أمته خالية من الحقد والمبنية على تمييز الأجناس • وهو ما كان يسمى فى صدر الاسلام بالشعوبية أى التعصب لشعب دون شعب آخر وعرف حديثا بالقومية والوطنية الضيقة •

ونظر الاستعمار الى ماحققه الاسلام من وحدة فريدة بين الأجناس بعين ملؤها الحقد ، فجند المستشرقين لاحداث التصـــــدع فى البنـــاء الاسلامى ، وفى هذا المجال ارتبط الاستشراق بالاســــتعمار الأوربى ونسقت أعمال المستشرقين تحت رعاية وزارات المســـتعمرات الأوربية وكانت مهمة الاســـتشراق فى هذا المجال العمـــل على تفتيت الوحـــدة الاسلامية التى كانت ماتـــزال قائمة فى الدولة العثمـــانية ، فعملوا فى فى كتاباتهم على بعث القوميات القديمة التى قضى عليها الاسلام لاثارة أســـباب الفرقة والقطيعة بين الأجناس الاسلامية المختلفة وعدم اتحادها

فتحدثوا عن (الأكراد) و « العرب » فى العراق وعما بين الجنسين من فوارق فى تصور الحياة وفهم العقيدة والأمانى القومية ، وعلى هذا النحو يتحدثون عن العرب و (البربر) فى شمال افريقيا وما بينهما من

(م ٩ — العالم الاسلامى)

اختلاف ، وسكان الشمال والجنوب فى السودان و (السنة) و (الشيعة) فى العراق وفى ايران والبلاد الاسلامية الأخرى •

وبناء على ذلك عمل الاستشراق والاستعمار على فصل هذه الجنسيات من جديد ، (فالفرس) فى ايران و (الأتراك) فى آسيا الصغرى ، و (العرب) فى جزيرتهم و (البربر) فى شمال افريقيا ، و (المصريون) فى وادى النيل وغيرهم من الجنسيات عمل الاستعمار متعاونا مع الاستشراق على اعادة قومياتهم من جديد •

واستكمالا لهذا المخطط شجع المستشرقون فى جامعات أوربا الدارسين المسلمين والعرب على دراسة لهجاتهم المحلية ليعيد تمزيق اللغة العربية التى توحدت بالقرآن الى اهجات محلية ثم الى لغات تبعد شيئا فشيئا عن اللغة العربية الأم لغة القرآن ، فيبعدون بذلك عن مصدر تشريعهم وعقيدتهم وهو القرآن وبالتالى يبعدون أيضا عن تراثهم الفكرى الموروث ، ويحاول المستعمر تحويل تراثنا الى « فولكلور » للفرجة •

وشجع الاستعمار العرب على الانفصال عن الدولة العثمانية تحت شعار جديد لايعرفه الاسلام وهو « القومية العربية » ولم يكن هذا حبا فى العرب ومصلحتهم ولكنه فى الدرجة الأولى من أجل القضاء على الرابطة الاسلامية القوية بين المسلمين ، وخلق ثغرات اقليمية جديدة تزيد من تفرق العالم الاسلامى • وفى نفس الوقت أغرى الأتراك المثقفين العائدين من أوربا للتعصب لقوميتهم التركية ، ومن ثم وقع الصدام بين الطرفين أثناء الحرب العالمية الأولى •

يقول المستشرق (المبشر) لورانس براون Lourance Brown
الذى ألف كتابا عن « الاسلام والارساليات Islame and Missions
يقول فيه عن خطورة الوحدة الاسلامية :

« اذا اتحد المسلمون فى امبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا

لعنة على العالم وخطرا ، وأمكن أن يصبحوا نعمة له أيضا ، أما اذا بقوا متفرقين فانهم يظلون حينئذ بلا قوة ولا تأثير »(١١) •

ويقول أيضا : « الخطر الحقيقى كامن فى نظام الاسلام وفى قوته على التوسع والاخضاع وفى حيويته انه الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الأوربى »(١٢) •

وبعث القوميات على نحو ما سلف لم يكن هدفا نهائيا للاستعمار وانما كان هدفا تكتيكيا مرحليا عندما يحقق غرضه يبحث الاستعمار عن وسائل أخرى لتمزيق المسلمين كخلق الوطنيات الضيقة •

مراكز محاربة الوحدة الاسلامية وبث الروح القومية :

بدأت السفارات والقنصليات الاستعمارية تعمل عملها فى العالم الاسلامى وبلدانه الاسلامية لبث روح الفرقة بين المسلمين ، وكانت أعمالها بارزة بشكل واضح فى اسلامبول وبيروت والقاهرة وبغداد ودمشق واتخذت لها مركزين رئيسيين : فى اسلامبول لضرب الدولة الاسلامية فى مركزها الرئيسى ، وفى بيروت : لضرب الدولة الاسلامية فى قلبها العربى •

أما بالنسبة لمركز بيروت :

فقد وضع له المخطط على أن يعمل للمدى الطويل وللنتائج البعيدة والتى تلمس بعض آثارها فى هذه الأيام ، ولقد بدأ هذا المخطط على شكل جمعيات مثل :

---

(١١) محمد البهى ، الفكر الاسلامى الحديث ، ص٥٢٥ •

(١٢) المرجع السابق ، ص٥٢٦ ، ومصطفى خالدى وعمر فروخ ، التبشير والاستعمار ص١٨٤ •

« جمعية الفنون والعلوم » التى أنشأتها البعثة التبشيرية الأمريكية، سنة ١٢٦٥هـ ١٨٤٧م والتى تولى رعايتها العميلان الانجليزيان :

« بطرس البستانى » و « ناصف اليازجى » واشترك معهما فى رعايتها طائفة من أعضاء البعثة التبشيرية الأمريكية ولم يدخلها أحد من المسلمين ولئن ظهرت هذه الجمعية بمظهر نشر العلوم والفنون واحياء اللغة العربية وآدابها وبعث التراث العربى الفكرى ، الا أن الغرض الصحيح هو اثارة النعرات القومية والحركات الانفصالية عن الدولة العثمانية .

وفى سنة ١٢٦٧هـ ١٨٥٠م تأسست (الجمعية الشرقية) تحت رعاية الأب اليسوعى الفرنسى (هنرى دبرنير) من المسيحيين العرب والأجانب دون المسلمين .

ثم أتت مرحلة جديدة أصبح فيها هذا النشاط فى يد الوطنيين العرب من مسلمين ومسيحيين وذلك عندما نشأت سنة ١٢٧٤هـ ١٨٥٧م (الجمعية العلمية السورية) وأدى هذا النشاط الهدام الى مذابح سنة ١٢٧٧هـ ١٨٦٠م التى وقعت بين المسلمين والمسيحيين فى الشام والتى أدت الى تقسيم الشام الى طوائف متحاربة ويقول (عمر فروخ) عن هذه الفتنة : « فى عام ١٨٦٠م نشبت بين الموارنة والدروز (المسلمين) فى جبل لبنان فتنة غسلت البلاد بالدماء وتركت فى نفوس الناس أسوأ الأثر الى اليوم الا أن هذه الفتنة لم تنشب فجأة ولكنها كانت تهيأ خطوة خطوة ولقد كان مهندسوها بارعين الى حد أن الذين ذهبوا وقودها لم يعلموا يوم ذاك أن الدول الأجنبية قد هيأتها على أيدى المبشرين »[١٣] .

وقد تسببت أحداث سنة ١٨٦٠ الى وقف نشاط الجمعيات مؤقتا وهجرة بعض رجالها الى مصر ليقظة الدولة العثمانية الا أنها استأنفت نشاطها بقوة بعد ذلك وأخذت تجند لعملها كثيرا من الشخصيات العربية من

---

(١٣) التبشير والاستعمار ص١٢٧ .

المسلمين والمسيحيين على السواء من اسلامبول والقاهرة ودمشق وبيروت وغـيرها .

وكانت أول جمعية أخذت شكل التنظيم السياسى هى :

(جمعية بيروت السرية) التى تأسست عام ١٢٩٢هـ (١٨٧٥م) فقامت على أساس فكرة القومية العربية وكانت فى الظاهر تعمل للعـرب والعروبة ، وتثير العداء للدولة العثمانية ، وتعمل على فصـل الدين عن الدولة وجعل القومية العربية هى الأساس ، وتحويل الولاء عن العقيـدة الاسلامية ليكون للاقليات المسيحية واليهودية فى البلاد العربة وجود بل دول فى المنطقة وهذا ما حدث فيما بعد .

ويطول بنا المقال لو استعرضنا نشاط هذا المركز وغاية ما يمـكن قوله هو أن هـذا المركز مازال حتى الان يقذف بالزعماء الذين ينادون بالقومية والوطنية وكلهم ميشيل وجورج وقسطنطين وأنطون وكلوفيس وتحول هذا المركز الان الى المنـاداة بسيطرة المسيحيين على المسـلمين فى لبنان أو على الأقل الاستقلال عنهم فى وكر شبيه بوكر الصـهاينة فى فلسطين ومن ورائهم الدول الاستعمارية تدفعهم وتمدهم بالسلاح .

وكانت بلاد الشام تنقسم قبل أحداث سنة ١٨٦٠ الى التنظيمـات الادارية الاتية :

١ ـ ولاية (حلب) وتشمل شمال الشام .

٢ ـ ولاية (طرابلس) وتشمل وسط الشام .

٣ ـ ولاية (دمشق) وتشمل الجزء الجنوبى من بلاد الشام حتى الحدود المصرية .

وبعد مذابح سنة ١٢٧٧هـ ١٨٦٠م تدخلت الدول الأوربية وعملت على انشاء (متصرفية لبنان)[١٤] .

وتدخلت الدول الأوربية أكثر فى لبنان من أجل تقسيمه الى قسمين:

١ — شمالى للمسيحيين .

٢ — وجنوبى للمسلمين .

يفصل بينهما الطريق الممتد من بيروت الى دمشق . وكان الاستعمار يريد منها غاية ذكرها أنيس صايغ فى كتابه : « لبنان الطائفى » قال :

« وقد أرادت الدول من ذلك المشروع جعل لبنان بلدا مسيحيا »[١٥]

ثم بدأت بعد ذلك بدعة تعيين رئيس مسيحى على لبنان ، فقد انعقد فى لبنان (بيروت) مؤتمر دولى حضره المفوض عن الدولة العثمانية مع خمسة وكلاء من :

بريطانيا وفرنسا وروسيا والنمسا وبروسيا .

وقرر الوكلاء أن تكون ادارة لبنان بواسطة متصرف (حاكم) مسيحى يعين برضا تلك الدول ونص القرار على أن يكون هذا الحاكم نصرانيا أوربيا كاثوليكيا لا وطنيا مسلما أو مسيحيا[١٦] .

وبعد الحرب العالمية الثانية وزع الاستعمار فى لبنان كتابا لمؤلف مجهول بعدة لغات على البعثات الدبلوماسية وعلى المهاجرين اللبنانيين بعنوان : « لبنان وطن قومى للنصارى فى الشرق الأدنى » وكان هذا التوزيع سرا ومجانا وهو من تأليف المستشرقين الأوربيين[١٧] بالطبع .

---

(١٤) انظر : أحمد عزت عبد الكريم ، التقسيم الادارى لسوريا فى العهد العثمانى ، مجلة كلية الاداب جامعة عين شمس ، المجلد الأول سنة ١٩٥١ .

(١٥) أنيس صايغ ، لبنان الطائفى ، ص١٦١ .

(١٦) عمر فروخ ، التبشير والاستعمار ، ص١٤٣ .

(١٧) المرجع السابق ص١٣٩ — ١٤٠ .

انشاء الجامعات المسيحية فى لبنان :

وعملت حركة المستشرقين على انشاء الجامعات فى لبنان متعــاونة مع المبشرين والارساليات التبشيرية والاستعمارية محاولين غرس مبادىء التربية الغربية فى نفوس المسلمين حتى يشبوا مستغربين فى حياتهم وتفكيرهم وحتى تخف فى نفوسهم موازين القيم الاسلامية[١٨] •

فأنشأوا لهذا الغرض عدة مؤسسات تعليمية فى لبنان أهمها (الجامعة الأمريكية) فى بيروت سنة ١٢٨٢هـ (١٨٦٥م) والتى كانت تسمى من قبل اســم « الكلية الســورية الانجيلية » وهى جامعة بروتســتانتية كان لانشائها أثر سيىء فى مساعدة الأفكار الهدامة بين شباب الشــام المثقف ويرمز اليها (S.P.C.) •

وأنشئت بعدها بقليــل « جامعة كاثوليكية » هى جامعة القديس يوسف وتعرف الان (بالجامعة اليسوعية) فى بيروت وتدير أعمــالها ارسالية التبشير الكاثوليكية فى بيروت ، وبسبب التعاليم التى تنشرها وتبثها هذه الجامعة كان لها الحظ الأوفر فى انتشار الأفكار الفرنســية فى الشــام[١٩] •

وقد كانت هاتان الجامعتان تصولان وتجولان فى ميدان الثقــافة فى الوقت الذى لم يكن فيه فى الشام كله جامعة اسلامية ، الأمر الذى فتح الباب على مصراعيه للافكار الهدامة لتحتل عقول طــلائع المثقفين الذين سارعوا الى الانخراط فى صفوفهما •

---

(١٨) محمد البهى ، المبشرون والمستشرقون وموقفهم من الاســلام ص ١٤ — ١٥ •

والنظر أيضا مجلة : الاسلام فى عددها الصــادر فى ١٦ مارس سنة ١٩٥٨ ص١١٤ •

(١٩) محب الدين الخطيب ، الغارة على العالم الاسلامى ص٨ •

وكان الطلاب المسلمون فى الجامعة الأمريكية يجبرون على الدخول يوميا الى الكنيسة التابعة للجامعة وشهود بعض الطقوس المسيحية ، ولما احتج بعض الطلبة الغيورين على اسلامهم فى سنة ١٩٠٩م (١٣٢٦هـ) أصدرت الجامعة فى بيروت منشورا ردا على احتجاجهم ويتضح من المادة الرابعة منه طابع هذه المؤسسة وأمثالها وهاك نص هذه المادة :

« ان هذه كلية مسيحية ، أسست بأموال شعب مسيحى ، هم اشتروا الأرض ، وهم أقاموا الأبنية ، وهم أنشأوا المستشفى وجهزوه ولايمكن للمؤسسة أن تستمر اذا لم يسندها هؤلاء وكل هذا قد فعله هؤلاء ليوجدوا تعليما يكون الانجيل من مواده فتعرض منافعه الحقيقية المسيحية على كل تلميذ ، وكل طالب يدخل مؤسستنا يجب أن يعرف سابقا ماذا يطلب منه » .

كما أعلن مجلس أمناء الكلية فى هذه المناسبة « أن الكلية لم تؤسس للتعليم العلمانى ولا لبث الأخلاق الحميدة ، ولكن من أولى غاياتها أن تعلم الحقائق الكبرى التى فى التوراة ، وأن تكون مركزا للنور المسيحى وللتأثير المسيحى ، وأن تخرج بذلك على الناس وتوصيهم به[٢٠] .

هذه هى أهداف هذه المؤسسات الغربية المسيحية سافرة دون استحياء فليعلم كل مسلم مدى التخريب الذى تتعرض له البلاد الاسلامية ، اذا عرفنا أنه لا تخلو عاصمة اسلامية من وجود جامعة أمريكية بروتستانتية أو معهد كاثوليكى أو مدارس للارساليات الأجنبية المسيحية المتعصبة .

---

(٢٠) ابراهيم خليل احمد ، الاستشراق والتبشير وصلتهما بالامبريالية ص ٥٥ — ٥٦ .

وعمر فروخ وزميله ، التبشير والاستعمار ، ص١٠٨ — ١٠٩ .

ومحمد البهى ، المبشرون والمستشرقون ، ص١٠ .

انتقال جناح لبنانى الى مصر :

بعد مذابح لبنان سنة ١٨٦٠ تيقظت الدولة العثمانية لنشاط الغزو الفكرى الهدام فى بيروت وخطره على الوحدة الاسلامية ، فبدأت تشدد من قبضتها علية وخاصة فى فترة حكم السلطان عبد الحميد الثانى (١٢٩٣ — ١٣٢٨هـ ، ١٨٧٦ — ١٩٠٩م) ومن ثم تعرض عبد الحميد لهجوم شديد من هؤلاء ورموه بالاستبداد ونعتوا عصره بعصر الاستبداد الحميدى ، فانتقل جناح منهم الى مصر • وكانت مصر يومئذ فى قبضة الأوربيين بعد التسوية الأوربية للمسألة المصرية ، والتى تمت فى لندن سنة ١٢٥٦هـ وتمخضت عن معاهدة لندن ١٨٤٠م التى فرضت على محمد على وعلى مصر الخضوع لأطماع الغــرب •

وفى مصر وجد هؤلاء المهاجرون اللبنانيون وأغلبهم من المسيحيين مرتعا خصبا تحت حماية النفوذ الأوربى قبل الاحتلال الانجليزى لمصر ، وبعد الاحتلال الانجليزى ١٣٠٠هـ ١٨٨٢م أصبحوا فى حماية الانجليز •

وكان فى طليعة هؤلاء : (شبلى شــميل) و (جرجى زيدان) و « فرح أنطون » و « يعقوب صروف » و (فارس نمر) و (اســكندر مكاريوس) وغيرهم •

وأنشأ هؤلاء فى مصر عدة جرائد ومجلات بمعونة الاســتعمار الانجليزى وتشجيعه وتوجيهه ، وبدأوا يكتبون فيها الأفكار الاستشراقية التبشيرية ومن هذه الصحف : المقطم ، والهلال : الذى أنسها ورأس تحريرها جرجى زيدان سنة ١٨٩٢م والمقتطف : أنشأها فى سنة ١٨٦٨ فارس نمر ويعقــوب صروف وكانت صــلة فارس نمــر بالاحتــلال الانجليــزى فى مصر قــوية ،و قد تزوجــت ابنتــه من المســتر ســمارت مستشار السفارة الانجليزية فى القاهرة[٢١] فمكن له هــذا فى مصر • ولكى نعرف الصلة التى تربط هذه المجلة بالنشــاط الارسالى

---

(٢١) محمد محمد حسين ، حصوننا مهددة من داخلها ، ط٤ ص٢٣١ .

البروتستانتى فان الجامعة الأمريكية فى بيروت هى التى احتفلت بالعيد المئوى لهذه الجريدة سنة ١٩٦٨م ونشرت بهذه المناسبة فهرسا للمقتطف تحت اشراف هيئة تدريس الدراسات العربية بالجامعة فى بيروت وذلك لأن الجامعة الأمريكية بالقاهرة لم تتمكن من ذلك بسبب أن جمال عبد الناصر كان قد فرض عليها الحراسة بعد هزيمة العرب فى حرب سنة ١٩٦٧ .

وقد ظلت مجلة المقتطف تبث سمومها فى مصر حتى قيام ثورة ١٩٥٢ حيث أوقف صدورها .

وكانت تلك الصحف التى أنشأها اللبنانيون المسيحيون فى مصر منابر للفكر الغربى فى ظل الاحتلال الانجليزى ، وكانت خلاصة دعوتهم رفض الأساس الاسلامى للفكر العربى ومحاولة بناء أساس جديد مستمد من الفكر الغربى المسيحى ، وتنمية الروح الاقليمية فى مواجهة الوحدة الاسلامية ، وتقوية الاتجاه العلمانى وفصل الدين عن الدولة وفصل الشريعة الاسلامية عن حياة الناس وابعاد التعاليم الاسلامية عن ميدان تربية النشىء .

وقد مكن اللورد كرومر المندوب السامى الانجليزى لهؤلاء فى مصر، بل وكان مبتهجا فرحا بهم فوصفهم فى مذكراته بأنهم : « منحة من السماء » وأنهم بمثابة « خميرة البلاد » يعنى مصر وكانت صحفهم هى اللسان الناطق لسلطان الاحتلال باللغة العربية ، فأيدت الاحتلال وهاجمت الحركات الوطنية ، وكتب هؤلاء يدافعون عن حق الانجليز فى مصر ويصفون حسنات الاستعمار ويمجدون أبطاله ويطالبون باستمراره ويدعون أهل مصر الى الرضوخ اليه ولم تمر بمصر حادثة واحدة الا وقفوا فيها موقفا معارضا لأمانى الشعب(٢٢) .

---

(٢٢) أنيس صايغ « لبنانى » الفكرة العربية فى مصر ، ص١١٢ ومابعدها وأنور الجندى ، اليقظة الاسلامية فى مواجهة الاستعمار ، ص١٧٦ — ١٧٧ .

وهناك نموذج من كتاباتهم عن ضرورة فصل الدين عن الدولة ، مما كان ينشر فى جريدة المقطم فى أواخر القرن الماضى الميلادى ، فقد جاء فى عددها الصادر فى ٧ من أغسطس سنة ١٨٩٩ م مايلى :

« يجب على الخاصة منا أن يعلموا العامة التمييز بين الدين وبين الدولة لأن هذا التمييز أصبح من أعظم مقتضيات الزمان والمكان فاذا لم تدركه عامتنا كان الخطر محيطا أبدا بماضينا او سألت عامتنا اليوم لوجدتهم يعتقدون أن الدين لايقوم الا بالدولة ، والدولة لا تقوم الا بالدين وأنهما متلازمان لاينفك أحدهما عن الاخر ، وهذا خطأ مبين ، لأن الغرض المقصود من الدولة والغاية التى تسعى الدولة اليها فى زماننا هذا هى غاية دنيوية محضة هى أمن الناس على أرواحهم ، أما الدين فالغاية المرجوة منه على اختلاف الزمان والمكان هى صلاح الناس فى هذه الدنيا حتى يدخلوا جنات النعيم فهو الصلة بين الأفراد الذين يتدينون به وبين خالقهم ولكل انسان دينه ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة .

« أما قيام الدولة بالدين والدين بالدولة فلا وجود له فى عصرنا بين الدولة العزيزة المتمدينة الا بمعنى أن هذه الدولة لاتكون الا اسلامية وتلك لاتكون الا مسيحية فاذا لم نميز بين الدولة والدين فى عصرنا ، فماذا نفعل لو سقطت الدولة أيسقط معها الدين ؟ »[٢٣] .

هذا نموذج لما كانت تنشره هذه الجرائد العميلة ذات الفكر الدخيل، وهذه هى أفكار رجالها الذين وصفوا أنفسهم بأنهم مهاجرون من قبضة الاستبداد الحميدى ومدافعون عن حرية العرب واستقلالهم .

وقد كشف المفكرون المسلمون فى مصر هذا المخطط الاستعمارى للغزو الفكرى وتصدوا له وعملوا على تعريته فى الجرائد الاسلامية مثل: (اللواء) التى أسسها مصطفى كامل زعيم الحزب الوطنى ، و (الدستور) التى كان يرأس تحريرها فريد وجدى و (العلم) وكان يرأس تحريرها

---

(٢٣) المقطم ، عدد ٧ من أغسطس سنة ١٨٩٩ .

الشـــيخ عبد العزيز جاويش و (المنار) التى أســسها سنة ١٨٩٨ م محمد رشيد رضا (والمؤيد) التى أسسها الشيخ على يوسف وغيرها .

وكان يكتب فى هذه الجرائد الشيخ محمد عبده ومحمد رشيد رضا ومحب الدين الخطيب ومصطفى صــادق الرافعى ومصـــطفى لطفى المنفلوطى وأحمد تيمور باشا .

وكان (محب الدين الخطيب)[٢٤] السورى المقيم فى مصر يحرر فى جريدة المؤيد مقالات قوية يتتبع فيها نشاط المستشرقين والمبشرين فى العالم الاسلامى وأهمها مقالاته التى كتبها تحت عنوان : الغارة على العالم الاسلامى . سنة ١٣٣٠هـ ثم نشرها فى كتاب بنفس العنوان[٢٥] . وأنشأ محب الدين الخطيب أيضا (المطبعة السلفية) الشهيرة بالقاهرة للعناية بنشر الفكر الاسلامى .

وكان هؤلاء المدافعون فى وجه الغزو الفكرى الغربى المســيحى فى مصر كلهم من المؤمنين بالأصــول والجذور الاسلامية التى تنبع من الفكر الاسلامى الأصيل ومعظمهم تخرج فى الأزهر أو نهل من عــلومه الاسلامية ، وكان هؤلاء يمثلون التيار الرئيسى الوطنى الجارف ، فكشفوا للمسلمين فى مصر وفى كل مكان عن منهج هؤلاء العمــلاء وأهــدافهم واتهموهم بالخصومة لحركة اليقظة الاسلامية والعمالة للاستعمار .

---

(٢٤) كان لمحب الدين الخطيب نشاط قومى مضاد لحــركة التتريك فى البلاد العربية فلفت نظر السلطات التركية الحاكمة فى دمشق فأخذت تلاحقه وتضيق عليه ، فهاجر الى مصر عام ١٩١١ وأنشأ فيها المكتبة الســلفية ومطبعتها وبدأ يكتب المقالات فى جريدة المؤيد .

(٢٥) طبع هذا الكتاب طبعتين الأولى فى سنة ١٣٥٠ هـ والثانية فى سنة ١٣٨٣هـ وعنيت بنشرة المطبعة والمكتبة السلفية ونشر منجما فى المؤيد سنة ١٣٣٠هـ وفى صحيفة الفتح سنة ١٣٤٩هـ — ١٣٥٠هـ .

ولما انكشف مخطط الغزو الفكرى وانكشف عملاؤه من المسيحيين اللبنانيين المهاجرين فى مصر رأى الانجليز ضرورة انشاء جناح جديد أكثر قدرة على التخفى والتمويه ، ويزداد قوة بأن يكون زعماؤه من المصريين المسلمين أنفسهم ، فأنشأ الانجليز (حزب الأمة) لهذا الغرض سنة ١٩٠٧ وكانت هذه هى الظروف والملابسات السياسية والفكرية التى أوجدت حزب الأمة فى مصر ، وهو الحزب الذى انبعثت منه أرضية الحياة السياسية والفكرية والاجتماعية والثقافية بعد الحرب العالمية الأولى ولأمد طويل جدا •

ويذكر البعض أن (حزب الأمة) منذ انشائه مجموعة من الطامعين الذين أعطاهم الاستعمار بعض المكاسب ووزع عليهم أراضى الدائرة السنية وخلق منهم طبقة موالية له وكان على رأسهم (لطفى السيد)(٢٦) (وعبد العزيز فهمى) و (عبد الخالق ثروت) وأسرة (عبد الرازق باشا) و (فتحى زغلول) و (ابراهيم الهلباوى) وغيرهم •

وكان هدف هذا الحزب وبرنامجه مستمد من مفاهيم اللورد كرومر الأساسية ويستهدف تمزيق الوحدة الاسلامية ووحدة الفكر الاسلامى فى مجال الربط بين الدين والمجتمع واحلال مفهوم الاقليمية باسم القومية ونزع مصر من الرابطة الاسلامية وارساء دعائم القوانين الوضعية بدلا من الشريعة الاسلامية ، هؤلاء لهم جريدة تكون منبرا لأفكارهم المسمومة هى جريدة « الجريدة » التى ترأس تحريرها (أحمد لطفى السيد) الذى أسبغ عليه الانجليز لقب أستاذ الجيل كما أغدقوا على قرينه (طه حسين) عميد الأدب العربى • وكان لطفى السيد وجماعته قلة من الطامحين يخالفون روح الأمة الاسلامية والمسلمين فى مصر ويخالفون فكرها وجوهر ضميرها وطبيعتها ، فكان هؤلاء يسبحون

---

(٢٦) أنور الجندى فى كتابه « اليقظة الاسلامية فى مواجهة الاستعمار » وكان لأحمد لطفى السيد أخ يسمى سعيد باشا لطفى ، كان أول مدير مصرى للاذاعة المصرية عند نشأتها سنة ١٩٣٠ .

ضد التيار الاسلامى العام الى حيث يرتضى الاستعمار والاحتلال[٢٧] .

ولما كشف المسلمون فى مصر هوية هؤلاء وردوا فكرهم الى مصادره الأولى عند المستشرقين ، اضطروا بعد الحرب العالمية الأولى الى تغيير جلدهم فأنشأوا تشكيلا جديدا تحت اسم « حزب الأحرار الدستوريين» وغيروا اسم جريدتهم وسموها (السياسة) وأعطوا رئاسة تحريرها لوجه جديد هو (محمد حسين هيكل) الذى غير رأيه وفكره فى نهاية حياته وتحول تحولا كاملا واعترف فى مذكراته بأن حزب الأمة صنعة الانجليز[٢٨] .

ويمكننا القول بأن هؤلاء الطامحين لم تكن تقوم لهم قائمةلولا النفوذ الاستعمارى فى مصر الذى كان يفرض آراءهم فى السياسة والتربية والثقافة وكان الرأى العام مناهضا لهم ويحاول أن يمضى فى طريق اليقظة الاسلامية الذى اختطه الشيخ محمد بن عبد الوهاب منذ منتصف القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى .

مركز اسلامبول :

فى اسلامبول عاصمة تركيا عمل الاستشراق والاستعمار عملهما الغادر لتخريب الوحدة الاسلامية وضرب الدولة فى عاصمتها وفى رجال الحكم فيها وكانت الخميرة التى اعتمد عليها الاستعمار والاستشراق فى قلب الأوضاع فى اسلامبول هم مجموعة من الشباب التركى المثقف ثقافة أوربية حيث كونوا جمعية فى باريس تسمى (جمعية تركيا الفتاة) عملت من أجل فصم عرى الوحدة الاسلامية والمناداة بالقومية التركية الضيقة ، وكان فرع هذه الجمعية يعمل سرا فى اسلامبول ، وكان (مدحت باشا) قائدا لهذه الحركة .

وتوغلت (حركة تركيا الفتاة) فى الجيش العثمانى وانتشرت

---

(٢٧) أنور الجندى ، اليقظة الاسلامية فى مواجهة الاستعمار ، ص١٨٧
(٢٨) المرجع السابق ، ص ١٨٢ .

أفكارها الى المدارس العسكرية العثمانية وذلك لأن التعليم العسكرى فى اسلامبول كان أكثر أنواع التعليم اتصالا بالثقافة الأوربية ، ففى عام ١٣٠٧هـ — ١٨٨٩م ألف بعض طلاب المدرسة العسكرية الطبية فى اسلامبول جمعية سرية فرعا لجمعية تركيا الفتاة داخل البلاد وعندما افتضح سر الجمعية عام ١٣١٠ — ١٨٩٢هـ غادر بعض أعضائها الى باريس هربا من انتقام السلطان عبد الحميد وعلى رأسهم (خليل غانم) المسيحى العربى الذى أصدر فى جنيف جريدة (الهلال) ثم جريدة (تركيا الفتاة) فى باريس ومنهم (أحمد رضا) الذى كان مديرا للتعليم فى بروسه وأصدر فى باريس جريدة (مشورت) كل أسبوعين باللغة التركية مع ملحق باللغة الفرنسية وكانت تهرب الى تركيا ذاتها عن طريق دوائر البريد الأجنبية التابعة للقنصليات الأوربية التى كانت تتمتع بامتيازات خاصة داخل الدولة تجعلها بعيدة عن التفتيش •

وكثرت الجمعيات ذات النشاط الهدام فى الدولة ففى سنة ١٣٢٤ — ١٩٠٦هـ ألف (مصطفى كمال) (أتاتورك) وكان يومها ضابطا فى الجيش فى دمشق جمعية « الوطن » وكانت من العناصر الساخطة على عبد الحميد فى الجيش ثم لم تلبث أن نقلت نشاطها الى (سالونيك) (٢٩) التى أصبحت مركزا للخارجين والمتامرين على الدولة وخاصة من رجال الجيش وصار اسمها (الوطن والحرية) ولم يلبث مصطفى كمال أن وجد فى سالونيك جمعية أخرى تمارس نشاطا سريا كبيرا وعلى اتصال بالأجانب فيها وهى (الجمعة العثمانية الحرة) وكان

---

(٢٩) سالونيك مدينة من مدن مقدونيا باليونان ، ويرجع السبب فى اختيار سالونيك مركزا لنشاطهم أنها كانت أكثر المناطق اتصالا بأوربا وضعف قبضة عبد الحميد نسبيا كما كان نشاط قوميات البلقان دفع الدولة الى حشد قوات عسكرية فيها تحت قيادة كبار الضباط وهو الجيش الثالث العثمانى . وكان للاجانب تدخل فى سالونيك بسبب كثرة الاضطرابات فى المنطقة فأنشأت خمس دول أوربية ادارة دولية لمتابعة الوضع فكان أن وجد الجيش الثالث العثمانى نفسه فى قلب دائرة التدخل الأجنبى (د محمود منسى ، اليقظة العربية ص ١٠١) .

من أعضائها (جمال) و (طلعت)[٣٠] زميلا مصطفى كمال فى ثورته . ولم يلبث مصطفى كمال أن وجد فى سالونيك البيئة الملائمة فعمل جهده لتوحيد هذه الجمعيات فى سنة ١٣٢٥ — ١٩٠٧هـ فى جمعية واحدة هى (جمعية الاتحاد والترقى العثمانى) (عثمانلى ترقى واتحاد جمعيتى) ووثقوا صلاتهم بالأجانب من رجال الادارة الدولية الذين خططوا معهم للثورة على السلطان عبد الحميد فى يوليو ١٣٢٦ — ١٩٠٨هـ وقيدوا من سلطة السلطان ثم أصبح رجالها أصحاب سيطرة كاملة على شئون الدولة ولم يلبث هؤلاء أن قاموا بعزل السطان عبد الحميد آخر السلاطين الأقوياء فى ٧ من ربيع الاخر ١٣٢٧هـ أبريل ١٩٠٩م .

ولقد نادى هؤلاء بالقومية التركية وتفضيل العنصر التركى على بقية العناصر التى تتكون منها الدولة وقد كتب أحدهم مقالا فى صحيفة (طنين) وهو (حسين جاهد) بتاريخ أكتوبر ١٣٢٦هـ ١٩٠٨م يقول :

« ان الأمة التركية كانت وستظل هى الأمة الحاكمة فى السلطنة العثمانية ، وأن الترك يتمتعون بحقوق وامتيازات سامية بصفتهم فاتحين، وأنه لا مجال للاعتراف بحقوق مساوية للعناصر الجنسية الأخرى ، وأن الدستور العثمانى لايمكن أن يكون فى شكله النهائى سوى دستورا تركيا »[٣١] .

وفرض الاتحاديون اللغة التركية على مختلف عناصر وأجناس الدولة بما فيهم العرب على حساب لغاتهم ، فلم يسمحوا بفتح مدارس أهلية تعلم دروسها بالعربية ، ومدارس الحكومة وضعت الحكومة لها

---

(٣٠) ينحدر طلعت باشا من أصل يهودى واعتنق الاسلام ويطلق عليه وعلى أمثاله فى التاريخ العثمانى « الدونمة » انظر : عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية ، ج٢ ص١٠٢٤ .

(٣١) توفيق برو ، العرب والترك فى العهد الدستورى ص٩٦ ، د. محمود منسى ، اليقظة العربية ، ص١٠٨ .

برنامجا يهدف الى التتريك ، كما صدرت التعليمات الى رؤساء المحاكم بأن تكون المرافعات باللغة التركية ، وأبلغت لجان الاتحاد والترقى فى الولايات العربية بأن تكون مخابراتها مع اللجنة المركزية فى سالونيك باللغة التركية ، وفرض على التجار العرب تقديم البيانات الى دوائر الجمارك باللغة التركية ، ومنع قبول الشكاوى المكتوبة باللغة العربية فى مجلس المبعوثان .

ومما يدل على تعصب الترك للغتهم ومحاربتهم للغات الأخرى تلك الحادثة التى جرت فى البرلمان فقد وقف وزير الأوقاف — وهو عربى — ليلقى بيانا عما قامت به وزاراته ، وبعد أن ألقى البيان باللغة التركية اختتمه بدعاء فى كلمات عربية ، فهب النواب الترك محتجين على استعمال لغة غير التركية فى المجلس ، ولم يستطع رئيس المجلس تهدئة هذه العاصفة من الاحتجاج على الوزير الا عندما أكد النواب أن ما قاله الوزير ليس الا دعاء تقليديا ليس من صلب الخطاب وانما هو دعاء خاص بين الوزير وبين الله(٣٢) .

وكانت هذه النغمة جديدة على الأتراك فان اللغة العربية هى لغة القرآن الكريم وكانت غالبية اللغة التركية من كلمات عربية وكانت التركية فى طريقها الى أن تكون عربية خالصة بسبب نظرة المفكرين العثمانيين المقدسة الى لغة القرآن حتى أن جمال الدين الأفغانى سعى لدى السلطان عبد الحميد من أجل احلال اللغة العربية محل التركية على أساس أن هذا الاجراء من شأنه زيادة هيبة تركيا كدولة اسلامية وهيبة السلطان كخليفة على المسلمين جميعا من عرب وغيرهم .

ولقد تعرض (رجال الاتحاد والترقى) لهجوم من العرب فرموهم باحتقار الاسلام ولغة القرآن فقد أقدموا على شىء خطير لم يقدم عليه

---

(٣٢) محمود نسى ، المرجع السابق ، ص١٠٩ .

سلاطين العثمانيين وهم فى أوج قوتهم ألا وهو ترجمة القرآن الكـريم الى اللغة التركية مما يعتبر مظهرا عدائيا ضد الاسلام والعروبة •

ففقد الأتراك الاتحاديون بذلك الروح الاسلامية وفقدوا مع ذلك حب العرب والمسلمين لهم •

ويجب علينا أن نلاحظ التفريق بوضـــــوح بين مرحلتين : مرحلة السلطان عبد الحميد التى بدأت سنة ١٢٩٣ هـ ١٨٧٦م وانتهت ســـــنة ١٣٢٧هـ ١٩٠٩م ومرحلة الاتحاديين التى بدأت فى سنة ١٣٢٧هـ وانتهت بانتهاء الحـــرب العالمية الأولـــى ، وهاتان المرحلتان يحاول المستشرقون وأتباعهم طمس حقيقتهما ويدخلون الواحدة منهما فى الأخرى ادخالا مريـــبا •

فالمرحلة الأولى : هى مرحلة المقاومة الصامدة برفع رايات الجامعة الاسلامية فى وجه الاستعمار والصهيونية •

والمرحلة الثانية : هى مرحلة الصراع الـــدموى ومحاربة العـــرب والعروبة والاسلام ومحاولة التتريك وتسليم فلسطين لليهود والقضـــاء على الدولة وتصفيتها ابان ادخالها الحرب الأولى (وتســـليم طرابلس الغرب للايطاليين وفلسطين والعراق للانجليز وسوريا ولبنان للفرنسيين) وكان رواد هذه المرحلة من رجال الاتحاد والترقى يعلنون أن الطـــريق الوحيد للدولة العثمانية فى مواجهة التخلف والضعف لن يتحقق الا ببلوغ نهاية الطرف الاخر من الاتصال بالحضارة والفكر الأوربى انتقالها من مفهوم الوحدة الاسلامية الى القومية الطورانية المتعصبة للاجناس ومن الفكر الاسلامى الى الفكر الغربى ، ومن اللغة ذات الحـــروف العـــربية الى اللغة ذات الحروف اللاتينية ، وفى النهاية صفيت الدولة العثمانيـــة فى نهاية الحرب العالمية الأولى على يد أصحاب هذا الاتجاه الغربى •

وصفوة القول أن الغزو الفكرى ساعد فى تدمير الدولة العثمانية ومازال يسرى فى العالم الاسلامى لمحو الشخصية الاسلامية ، ولا شك أن العالم الاسلامى فى حاجة الى ثورة ثقافية يتحرر بها من ربقة الأفكار الدخيلة المزيفة التى أدخلت عليه فى فترة تخلفه •

والحق أن العالم الاسلامى سيظل حيا قويا مادام أبناؤه يشعرون أنهم متصلون بأسلافهم اتصالا واضحا وهذا الاتصال لايتعـــارض مع ضرورة تقدمهم وتطورهم فى المجال الحضارى مع احتفاظهم بعقيدتهم ومثلهم العليا سليمة بارزة ، وجعل تراثهم نطاقا يحمى وحدتهم وقاعــدة ينطلقون منها نحو مستقبل عظيم •

الفصل السادس

اليقظة الاسلامية

ضعفت الدولة العثمانية وتكالبت عليها كثير من الدول الأوربية الطامعة فى أملاكها ، ولم تستطع الدولة أن تواجه الأوضاع المتردية فى ولاياتها ، ولم تستطع من ناحية أخرى أن تواجه الأطماع الأوربية فى أراضيها • ولما وصل الحال الى هذا الحد من الضعف ارتفعت الأصوات المخلصة فى شتى أنحاء العالم الاسلامى تنادى بالاصلاح لاعادة المسلمين الى سابق عظمتهم •

وكان التيار العام الجارف هو تيار الاصلاح على أساس عقائد السلف الذى يقول بأن الشريعة الاسلامية التى حققت للمسلمين الأوائل العزة والرفعة والمنعة بين الأمم فى الأزمنة الماضية كفيلة بأن تحقق لهم العزة والمنعة من جديد ان هم عادوا اليها خالية من شوائب الانحراف وسوء التطبيق •

وقد انبعث هذا التيار فى قلب الجزيرة العربية وقاده الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ — ١٢٠٦هـ) هذا التيار الذى امتد ومازال يمتد حتى اليوم الى شتى بقاع العالم وانبثقت منه مختلف الحركات الاسلامية فى مختلف بلدان العالم الاسلامى فى العصر الحديث •

والشيخ محمد بن عبد الوهاب ولد فى بلدة العيينة من اقليم نجد وتربى فى بيت علم على مبادىء المذهب الحنبلى وآراء ابن تيمية فى الاصلاح والتفقه فى الدين معروفا بالتقوى والسلوك الصالح بين ذويه وأهله ، وحج فى مطلع شبابه لبيت الله الحرام فى مكة المكرمة ، وطلب

العلم فى المدينة المنورة وساح فى كثير من البلاد المجاورة كالشام والعراق وفارس ثم عاد الى نجد ، وقد تميز غضبا لما رآه من سوء حال المسلمين فصحت عزيمته على القيام بدعوة اصلاحية للعودة بالاسلام الى نقائه الأول وعظمته لدى المسلمين الأوائل .

وبدأ يبشر بدعوته الاصلاحية التى قوامها محاربة البدع والخرافات التى سادت فى العصر العثمانى فأمر بهدم المزارات التى أصبح الناس يتوجهون اليها من دون الله ودعا الى نبذ ما لم يرد فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، حتى يخلص الاسلام من البدع والرجوع به الى بساطته الأولى . وقد وجدت دعوته أنصارا لها فى الجزيرة العربية فتحالف مع أمير الدرعية محمد بن سعود سنة ١١٥٧هـ وكان أكبر أمراء نجد وأعلا زعمائها شأنا بعد أن قبل دعوته وبذلك كسبت الدعوة قوة وأصبح للحق قوة تحميه من الباطل ، وأنشأ الشيخ حكومته على أساس من الشورى . كما كانت على أيام الخلفاء الراشدين .

ونجحت الدعوة فى تحويل كثير من قبائل الجزيرة من حياة الضياع التى عمادها التقاتل والتناحر على أتفه الأشياء الى رجال ذوى مبادىء سامية يستشهدون من أجلها ، كما أصبح لهم قوة لا تطاق وعزيمة لا تنثنى بسبب العقيدة الدينية التى بثها فيهم ابن عبد الوهاب ، وتملكهم شعور دينى جياش شحذ هممهم بالتصميم .

فانتشرت الدعوة بفضل هؤلاء الرجال فى جميع أنحاء نجد وامتدت الى الحجاز وأطراف الشام والعراق ، واعتبر الوهابيون هذا النجاح مجرد خطوة أولى فى سبيل فتح العالم الاسلامى قاطبة فتحا اصلاحيا دينيا تتلوه الوحدة السياسية العامة بين جميع الممالك الاسلامية[١] .

وتوفى الشيخ محمد بن عبد الوهاب سنة ١٢٠٦هـ (١٨٩٢م) وذلك

---

(١) لوثروب ، حاضر العالم الاسلامى ، الطبعة الرابعة ، جا ص٢٩١

بعد أن قويت دعوته فى الجزيرة العربية كلها ، وانتشر صداها فى أنحاء العالم الاسلامى .

وعلى الرغم مما حققه (آل سعود) بعده من نصر الا أن عاهلهم كان على الدوام ينزل على رأى الجماعة وشوراها فلم يمتهن حرية أتباعه وبنى قومه وكانت حكومته قوية عادلة فانقطع التعدى وأمن الناس السرقات وانتشر الأمن وسادت الطمأنينة والراحة وذلك نظرا لسيادة الحكم بالقرآن وبشريعة الله الذى هو أعلم بمن خلق ، وأعلم بما يصلحهم فى حياتهم ومعاشهم ، نعم عادت السيادة للحكم بشريعة الله بالقرآن بعد أن أهملت زمنا طويلا وسادت شريعة الغاب بين قبائل العرب مرة أخرى ، ثم كانت العودة الرشيدة تحت راية التوحيد لكى يسود المجتمع الاسلامى من جديد .

غير أن هذه اليقظة الاسلامية قابلها تحديان خطيران : التحدى العسكرى الذى وجهته الدولة العثمانية اليها فقضى على نهضتها الأولى كما سبق أن أشرنا ، والتحدى الثانى : هو المخطط الاستعمارى الفكرى عن طريق المستشرقين وأعوانهم من المبشرين وأعوان الغرب من المسلمين فوصفوها بأنها حركة رجعية للعودة الى الحياة البدائية ، وخلقوا حركة موازية لها هى حركة التجديد الغربى التى أخذ رجالها يحملون لواء الخصومة الواضحة للفكر الاسلامى ومقوماته وأسسه ، واثارة الشبهات للانتقاص من اللغة العربية والاسلام والتاريخ والتراث . وكان هذا التحدى هو أخطر ما واجه الدعوة نظرا لأن الاستعمار أعطاه امكانيات الذيوع والانتشار بفضل أجهزة الدعاية الحديثة التى يسيطر عليها من صحافة ومدارس واذاعات لأن الدعوة السلفية عجزت فى بداية نشأتها أن تصل الى مثل هذا النشاط الاعلامى .

وأسدل الستار الى حين على فصل من أهم فصول اليقظة الاسلامية عندما قضت الدولة العثمانية على الدولة السعودية الأولى سنة ١٢٣٣هـ .

ولكن الدعوة جددت شبابها عندما ظهر فى مطلع القرن الحالى الميلادى قائد قوى هو (عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود) حفيد محمد بن سعود الكبير ، فاستولت التعاليم الاصلاحية على مشاعره وتملكه شعور بالتصميم على اعادة الحركة الى قوتها لاعادة الأمة العربية والاسلامية مرة أخرى لمكان الصدارة فى السياسة والفكر • وعلى الرغم من قلة رجاله الا أن الايمان الذى تسلح به كان أقوى من كل العقبات « وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » فنجح برجاله القلائل فى اعادة تجميع أنصار الحركة الذين فرقتهم الدولة العثمانية من قبل وأعاد سلطة الحركة السلفية والدولة السعودية من جديد منذ أن أعاد فتح الرياض سنة ١٣١٩ هـ ١٩٠٢ م من جديد •

وأعاد التاريخ نفسه فى الجزيرة العربية على يد عبد العزيز فقد استطاع هذا القائد أن يخضع الشعور القبلى العربى المتناحر من جديد وبث فيهم الأفكار التى بنت الدولة الاسلامية الأولى، ووجه ارادتهم القتالية من حالة الضرب ضد بعضهم الى حالة الضرب مع بعضهم من أجل سيادة التوحيد والوحدة من جديد •

ولأول مرة منذ صدر الاسلام تتحقق الوحدة العربية فى الجزيرة العربية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ما عدا بعض الأطراف فى اليمن وساحل عمان وامارات الخليج التى تمركز فيها الاستعمار الانجليزى •

حركة الجامعة الاسلامية :

كان العالم الاسلامى قد أفزعته فى القرن التاسع عشر أشباح الطمع الأوربى فى أراضيه التى كانت تقرب منه شيئا فشيئا منذ أن ظهرت فى مطلع القرن العاشر الهجرى (١٦م) وما كاد ينتصف القرن التاسع عشر حتى تبدلت الحالل تبدلا تاما ففتح الفرنسيون الجزائر واستولت روسيا على أراضى شاسعة عبر القوقاس وبسطت بريطانيا نفوذها على الهند •

كان هذا سببا كافيا جعل قادة المسلم ينيدركون أن الاسلام مهـدد بالخطر الفادح والبلاء الشامل بسبب انتشار سيطرة الغرب المسيحى عليه فازدادت حاجتهم الى التماسك وقوى لديهم الشعور بالترابط بعد طول تفرق • وأضحت الجامعة الاسلامية أمرا ملحا لمقاومة الغـرب وصده وايقاف أطماعه •

وبدأت المقاومة فعلا فى أماكن متفرقة ، ولكنها كانت غير منظمة ولم تكن هناك رابطة تنظم كفاحها ، فهب أبطال أمثال (عبد القـادر الجزائرى) فى الجزائر و (مصطفى كامل) فى مصر و (شامل) فى القوقاس وغيرهم يقاتلون ويناضلون الفاتحين الغربيين قتالا شديدا ، فكان ذلك القتال على استمراره أشبه بمبضع يزيد العالم الاسلامي جروحا فيزداد تألما وصراخا بيد أن قتالا مثل هذا ما كانت الغلبة فيه لأبطال المسلمين وذلك لوهن قواهم بعد جهاد كبير طويل العهد ، ولعدم تناولهم مددا ونصرا يستعينون بهما على المضى فى القتال(٢) •

وبدأ العالم الاسلامى يغلى غليان المرجـل على النـار فقامت فى الجزائر ثورة سنة ١٨٧١ وهب رجال الدين المعروفون بالأولياء فى كل بلاد افريقية الشمالية يستثيرون المسلمين ويستنفرونهم للحرب والجهاد، فكانت ثورة المهدى فى السودان المصرى ، وهى الثورة التى دامت طويلا وأجهدت الانجليز وفتتت فى عضدهم وأنزلت بهم خسـائر فادحة ، وتم للانجليز اخمـادها ودخـل كتشـنر الخرطوم قبل ختام القـرن التاسع عشر •

وفى أفغانستان انفجرت الثورة كالبركان فى وجـوه الانجليز ، واتصلت شرارة هذه الثورة الى المسلمين فى الهند ، فألهبت صـدورهم بالحماسة الهابا فهبوا يشقون عصا الطاعة على الانجليز الذين ما استطاعوا تسكين العاصفة الا بشق الأنفس وركوب الهول •

---

(٢) لوثروب ، حاضر العالم الاسلامى ، الطبعة الرابعة جا ص٢٩٢ •

وفى أواسط آسيا حدثت مقاومة من نوع آخر حيث ظهرت الطريقة النقشبندية الدينية فأخذت تمتد وتنتشر شرقا حتى بلغت الصين ، فثار مسلموا الصين ثورتهم الكبرى فى تركستان الشرقية .

وفى أندونيسيا بجزر الهند الشرقية شبت الثورة فى الأراضى التى كان يسيطر عليها الهولنديون .

وكانت هذه الثورات ومازالت ينقصها التنظيم ، والرابطة التى تضع لها التخطيط ، وكانت أيضا يعوزها القيادة المركزية الواعية لأن هذه الثورات التى تقوم هنا وهناك لايمكن أن توهن شيئا من قوة الغرب تلك القوة الحربية المنظمة على أحدث الأصول والفنون العسكرية(٣) وأدرك قادة العالم الاسلامى حق الادراك أنه اذا رام العالم الاسلامى حقا تحرير نفسه من النير الغربى وجب عليه أن يعمل عملا منظما شاملا ويسعى سعيا أكيدا ثابتا جامعا للوحدة العامة والرابطة الكبرى ، وأيقن هؤلاء أيضا أنه لابد للعالم الاسلامى اذا شاء هذا من دراسة علوم الغرب ونهج مناهجه وسلوك سبله فى جميع مايؤدى الى نهضة العالم الاسلامى القائمة على أسس من العلم وعلى هذا كان أمثال (محمد عبده) و (جمال الدين الأفغانى) .

وكان قادة الجزيرة العربية السلفيون يرون أن استقلال المشرق الاسلامى وتحرره من حكم الغرب المسيحى يجب أن يسبقه اعادة المسلمين الى عقائد السلف وأنه متى صلحت نفوس المسلمين وقويت عقائدهم أمكنهم القيام بتلك المهمة الصعبة .

وكان رجال الحركة السنوسية فى الصحراء الكبرى الأفريقية يرون أن تحرير المسلم سياسيا يجب أن تسبقه الدعوة الى الأخلاق الاسلامية المرتبطة بالعمل وظل السنوسى طوال حياته يجاهد لادراك هذه الغاية

---

(٣) المرجع السابق ، ص٢٩٣ — ٢٩٤ .

من أجل تهذيب النفوس وتنشئة الأجيال على الفضائل الاسلامية التى يمكن ترجمتها فى سلوك عملى •

ولقد مرت حركة الجامعة الاسلامية بمرحلتين :

أولا : مرحلة السلطان عبد الحميد ١٨٧٦ — ١٩٠٨م •

ثانيا : مرحلة ما بعد سقوط الخلافة الاسلامية ومحاولة التضامن فى مؤتمر الخلافة بالقاهرة •

أما عن مرحلة (السلطان عبد الحميد الثانى) فانه قد بذل جهدا كبيرا لاحياء عظمة الاسلام والخلافة الاسلامية واسترداد ما كان لها من الجلال والهيبة والخطورة فى العالم الاسلامى، وذلك عندما تكالبت الدول الأوربية على الدولة العثمانية تريد اقتسامها وأطلقت على أملاكها « أملاك الرجل المريض » وتربصوا بها لاغتنامها عند وفاته واقتسامها فيما بينهم ، فنشط السلطان عبد الحميد لمواجهة هذه الأطماع بتقوية الخلافة وتقوية الرابطة بين المسلمين لايقاظهم لصد أطماع الغرب ، وحاول الاتصال بشتى أنواع المقاومة الاسلامية لتنظيم هذه المقاومة لتكون فعالة •

وحاول الاتصال بألمانيا وكانت ألمانيا بعد انتصارها فى الحرب السبعينية (١٨٧٠م) على فرنسا ونجاحها فى توحيد الشعب الألمانى قد بدأت تحاول ايجاد مجال حيوى لها خارج أوربا ، وتحركت نحو الشرق واتصلت بالدولة العثمانية وقوت علاقاتها بها ، واستقبل عبد الحميد هذه الروح من ناحيته بالترحيب وحاول أن يستفيد من قوة ألمانيا ، وتقدمها فى مجال المشاريع التى يود القيام بها لتقوية الرابطة الاسلامية ، وذلك مثل سكة حديد الحجاز التى كان يود لها أن تمتد من العاصمة العثمانية الى مكة المكرمة عبر آسيا الصغرى وبلاد الشام وتم مدها الى المدينة المنورة •

ومن ناحية أخرى كان يريد مناوأة أطماع بريطانيا وفرنســا فى بلاده بتقوية علاقاته مع ألمانيا الناشـــئة القوية التى كانت تعــادى الامبراطوريتين البريطانية والفرنسية وتنشد أن تقاسمها فى مستعمراتهما خارج أوربا •

التضامن الاســلامى :

قطعت حركة التضامن الاسلامى شوطا لا بأس به منذ ظهرت فى مطلع القرن الهجرى المنصرم حتى وصلت الى القوة على يد المغفور له الملك (فيصل بن عبد العزيز) الذى استطاع أن يجمع قادة المسلمين فى مؤتمرات قمة منتظمة للتضامن والتآزر أمام العدو المشترك ، وذلك بعد أن حال الاستعمار دون الوحدة الاسلامية التى هدفت اليها حركة التوحيد فى الجزيرة العــربية •

وعلى الرغم من سيطرة الاستعمار فقد ظل المسلمون منذ مطـلع القرن الرابع عشر الهجرى يشعرون بشعور اسلامى دافق نحو الوحدة ويتألمون للمصائب التى ينزلها الاستعمار باخوانهم فى كل مكان ويتطلعون للتضامن والتآزر أثناء النوائب فى جو ضــاعت فيه الكيانات السياسية الصغيرة أمام جشع الامبراطوريات الاستعمارية القوية •

وظل (الحج) كل عام يغذى هذا الشعور ويقويه فهو مؤتمر سنوى للمسلمين على اختلاف أجناسهم وألوانهم يجتمعون فيه على صــعيد واحد أمام خالقهم يجددون ايمانهم • ودلت الاحصائيات فى بداية عصر الملك عبد العزيز على أن عدد المسافرين(٤) الى مكة للحج والعمرة أخذ يزداد باضطراد بفضل الأمن الذى نشره الملك عبد العزيز ، وعادت مكة تلعب دورها فى اشعال العاطفة الاسلامية للمسلمين كل عام ، ففيهــا يجتمع المسلمون من كل أنحاء العالم « مرة فى السنة أثناء الحج يلتقون

---

(٤) باول شمتز ، الاسلام قوة الغد العالمية ص١٥٠ — ١٦٥ •

مع بعضهم بعد أن يطرحوا عنهم كل أثر أجنبى خارج المنطقة الحرام المضروبة حول مكة وينسون قومياتهم وأوطانهم ، ويتذكرون فقط حقيقة واحدة ، هى الأخوة فى الله ، تجمعهم عقيدة واحدة وكتاب واحد ليس للفوارق الاقليمية مكان بينهم وهم يد على من سواهم (٥) .

وظلت المعاهدة الاسلامية فى العالم الاسلامى وفى طليعتها (الأزهر) تقوم بأمانة الحفاظ على التراث ونشره فى العالم الاسلامى فى وجه حركات التغريب والغزو الفكرى المعادية التى بدأت معاقل الاستعمار تبثها فى تلك المراكز التى انتشرت فى شتى أنحاء العالم الاسلامى على هيئة كليات ومعاهد للارساليات التبشيرية والبروتستانتية والكاثوليكية وكانت أهم مراكزها فى اسلامبول والشام ومصر والهند .

وكان (الأزهر) منذ أنشأه الفاطميون فى القاهرة سنة ٣٦١ قد نجا من انقلابات الدول والمحن المتعاقبة على مدى تاريخه الطويل . وغدا منذ العصر المملوكى جامعة المسلمين السنية التى تعنى بدراسة التراث الاسلامى على مذاهب أهل السنة والجماعة،وغدا فى مطلع القرن المنصرم مركزا لتجمع الطلائع المثقفة فى العالم الاسلامى يتجمعون فى أروقته وصحنة لكل جنسية رواق ، فهناك رواق للشوام وآخر للمغاربة والحجازيين والبغداديين والأتراك والسودانيين والجبرتية « الصومال والحبشة » واليمنيين والهنود والصينيين والجاويين وغيرهم . وبذلك تجمعت فيه الوحدة الاسلامية مصغرة لطلائع المثقين فى العالم الاسلامى يجمعهم شعار واحد هو الحفاظ على التراث الاسلامى واللغة العربية لغة القرآن الكريم فى وجه الغزو الفكرى واللغوى الأوربى الذى استباح حماهم بهدف تغيير هويتهم .

وكان هؤلاء المثقفين الأزهريين يؤبون الى أوطانهم بعد التزود بالمعرفة الاسلامية ليصبحوا دعاة فى أوطانهم ويحملون عبء مسئولية

---

(٥) المرجع السابق نفس المكان .

الدعوة الاسلامية فى جو زادت فيه الأطماع الاستعمارية فى العالم الاسلامى .

ورمقه الاستعمار بعين الريبة فوجه اليه سهامه للقضاء عليه ، ففى مؤتمر المبشرين العام الذى عقد فى القاهرة سنة ١٣٢٣ — ١٩٠٦هـ لجميع ارساليات التبشير البروتستانتية فى العالم برئاسة القسيس (زويمر) ، وصف أحد أعضاء المؤتمر ما (للجامع الأزهر) من النفوذ واقبال الألوف عليه من الشبان المسلمين فى كل أقطار العالم الاسلامى وتساءل عن سر نفوذ هذا الجامع منذ ألف سنة الى الان ثم قال :

« ان السنيين من المسلمين رسخ فى أذهانهم أن تعليم العربية فى الجامع الأزهر متقن ومتين أكثر منه فى غيره والمتخرجون فى الأزهر معروفون بسعة الاطلاع على علوم الدين وباب التعليم مفتوح فى الأزهر لكل مشايخ الدنيا » .

وأشار الى أهمية أوقاف (الأزهر) التى تمكنه من الصرف على طلابه وأساتذته وطالب بضرورة أن يعمل الغرب على انشاء جامعة نصرانية عالمية فى مصر تنافس الأزهر وتقوم الكنيسة بنفقاتها فقال :

« خصوصا وأن أوقاف (الأزهر) الكبيرة تساعد على التعليم فيه مجانا لأن فى استطاعته أن ينفق على ٢٥٠ أستاذا ، ثم تساءل عما اذا كان الأزهر يهدد كنيسة المسيح بالخطر وعرض اقتراحا يريد به انشاء مدرسة جامعة نصرانية تقوم الكنيسة بنفقاتها وتكون مشتركة بين كل الكنائس المسيحية فى الدنيا على اختلاف مذاهبهم لنتمكن من مزاحمة الأزهر بسهولة وتتكفل هذه المدرسة الجامعة باتقان تعميم اللغة العربية »(٦) .

---

(٦) شاتليه ، الغارة على العالم الاسلامى ، ترجمة محب الدين الخطيب ص٢٣ ، ٢٤ الطبعة الثانية ١٣٨٣هـ المطبعة السلفية بالقاهرة ..

ولقد واصـــل الغرب أعماله التخريبية من أجل اضعاف (الأزهر) وواتته الفرصـــة يوم أن كان الاستعمار الانجليزى قابضا على صولجانه فى مصر ويده من حديد فى الفترة من ١٣٠٠هـ — (١٨٨٢ — ١٩٥٢) فاستولت الحكومة على ماتبقى من أوقافه وغدا مؤسسة تصرف عليهـا الدولة من ميزانيتها وتقتر له ماشاء لها غرض الاستعمار وهواه وبذلك ضربته فى أهم ركيزة له وهى القاعدة الاقتصادية فأضـــعفت بذلك من مقدرته التعليمية ومقدرته على التطور الذى يقتضيه العصر • فتتأخر عن مجارات غيره من الجامعات المدنية فى التنظيم وسرعة التطور المطلوبة فى جو تتقدم فيه الوسائل العلمية بسرعة مذهلة •

ولكن غالبية علماء الأزهر هاجروا الى المملكة العربية الســـعودية وقامت على أكتافهم عملية انشاء جامعات اسلاميةتربىالأجيال الاسلامية وهى جامعـــات :

١ — الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض •

٢ — والجامعة الاسلامية فى المدينة المنورة •

٣ — وجامعة أم القرى بمكة المكرمة وفـــروع هذه الجامعات فى المملكة وخارجهــا •

جهود جمال الدين الأفغانى

حركة جمال الدين الأفغانى من أجل التضامن الاسلامى جـــزء من التيار الاســـلامى العام الذى شمل العالم الاسلامى كرد فعل لعـــودة هجوم الغرب المسيحى عليه ذلك الهجوم الذى مزق البلدان الاسلامية زمنا طويلا ومازال وتحكم فى مصيرها بسيطرته على مقدراتها •

وجمال الدين الأفغانى ولد فى أسعد أباد بأفغانستان ونشـــــأ (بكابل) وتلقى العلوم العقلية والنقليةوسافر الى الهند وحج فى سنة

١٢٧٣هـ وعاد الى وطنه بعد أن عاين واقع المسلمين المر وتفرقهم أمام اجتماع عدوهم عليهم • فتحركت فى نفسه دوافع الدعوة للتضامن الاسلامى فحمل لواءها وتنقل من أجل ذلك فى كثير من الأوطان الاسلامية كايران والحجاز ومصر والهند واسلامبول وساعدته معرفته بلغات كثيرة على ذلك كالعربية والأفغانية والفارسية والتركية والفرنسية والانجليزية والروسية •

وكون مدرسة من المفكرين فى البلاد التى ساح فيها واجه بهم التيارات الغربية الوافدة من أوربا (وأرجع كثيرا من مستحدثات الغرب الى أصولها الاسلامية ورد النهضة الأوربية الحديثة الى أصول اسلامية) •

« ولا ينتمى جمال الدين وتلاميذه فى جميع بلاد العالم الاسلامى الى تلك الفئة التى انحدر منها دعاة القومية الذين يتخذون الطابع الغربى نموذجا لهم دون نقاش ولا أدنى نقد ، فقد استولت عليهم مباهج الحضارة الغربية فاعتنقوا مبادئها قضية مسلمة لاتقبل الشك اطلاقا ، أما جمال الدين وتلاميذه فقد تخيروا منها مايتفق وطبيعة العالم الاسلامى، ولم ينقلوا ما أخذوه بصيغته ، بل صاغوه صيغة جديدة تتناسب مع ماتتطلبه الحياة الشرقية ، واعطاء ماأنتجه الفكر الأوربى صبغة اسلامية[٧]

كما أنه لاينتمى الى الدعاة الذين انبعثوا من الصحراء وحياة البداوة مثل الشيخ محمد بن عبد الوهاب والسنوسى والمهدى •

بل أخذ من كل منهج ما يناسب نهضة العالم الاسلامى المطلوبة فى عصره •

---

(٧) باول شمتز ، رجع سابق ذكره ، ص١٠٨ •

فكانت نظرته مثلا الى (النظـــام البرلمانى) الأوربى على أنه من وحى الحكمة الاسلامية فما هو الا نظام الشورى الاسلامى أحســنت صياغته فى العصر الحديث •

يمم جمال الدين الأفغانى وجهة شـــــطر القاهرة حيث (الأزهر) بمصر من ١٢٨٨ — ١٢٩٧هـ ، ١٨٧١ — ١٨٧٩م وألقى دروسه وعــرض أفكاره فى صحن الأزهر بوتقة أفكار المسلمين وأشهر جامعة اسلامية فى العالم الاسلامى يومئذ فوجدت أفكاره تربة صالحة وتجمع حوله المريدون يتشربون تعاليمه ويحملون رسالته من أجل الاصلاح السياسى ، وفى القاهرة تبين جمال الدين مدى الخطورة التى تهدد الشرق الاسلامى ففى مصر تتركز هجمات أوربا فأعلن المقاومة ضد الاستعمار الأوربى وضد الحكام المسلمين الفاسدين ، وبين جمال الدين أن الاسلام يعطى للشعب حق تقرير المصير « وأن الأحداث السياسية التى نتج عنها اقامة نظــم الحكم الموجودة اثر الهجوم الغربى على الشرق لايجوز قبولها على أنها قضاء وقدر كتب على جبين هذا الشعب •• بل يجب الكفاح ضدها حتى تستقيم أو تزول لتحل محلها حكومات عادلة ، والدفاع عن حقوق الشعب واجب مقدس فى عنق كل مسلم[٨] •

وخاطب (أبناء الشرق الاسلامى) فى مرارة بالغة آخذا بيدهم من حياة الذل والعجز والمهانة قائلا :

« وما أنتم يا أبناء الشرق فلا أخاطبنكم وأذكرنكم بواجباتكم فانكم قد ألفتم الذل ورضيتم بالمعيشة الدنيئة واستبدلتم القوة بالتأســــف والتلهف وسرتم كالعجائز لاتقدرون على الدرء والاقدام والجلب والدفع والمنع والرفع فانا لله وانا اليه راجعون[٩] •

(٨) باول شمتز الاسلام قوة الغد العالمية ص١٠٩ •
(٩) أنظر للمؤلف تاريخ الحركة الوطنية ص٢٢٤ •

ولقد نجح الأفغانى فى بث دعوة (اليقظة الاسلامية) فى الأزهر وربى تلاميذه فيه ولقنهم منهجه فى الاصلاح ومنهم (محمد عبده) و (سعد زغلول) و (محمود سامى البارودى) الشاعر و (عبد السلام المويلحى) و « ابراهيم المويلحى » و (ابراهيم اللقانى) و (عبد الكريم سليمان) و (ابراهيم الهلباوى) وغيرهم ، وعندما اتصل الأفغانى وجماعته بضباط الجيش المصرى وبثهم روحه زادت هواجس الخديوى توفيق حفيد محمد على وخشى تآزر المدنيين العسكريين فعزم على التخلص منه ، واستيقظت القاهرة ذات يوم على خبر آلم المخلصين ذلك الخبر هو أن توفيق قد أمر بنفى الأفغانى الى الهند ولم يكتف توفيق بهذا النفى بل أعلن على الناس بلاغا رسميا نشر فى جريدة الوقائع المصرية حاول فيه تشويه سمعة الأفغانى والطعن فى سلوكه الدينى ونسب اليه : « السعى فى الأرض بالفساد » وأنه « رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا »[١٠] .

وبعد خروج الأفغانى من مصر اشتد التذمر وتهيأ الشعب لثورة على التدخل الأجنبى وعلى الحاكم الفاسد فى سنوات ١٢٩٨ — ١٢٩٩هـ ١٨٨٠ — ١٨٨١ ، ١٣٠٠هـ ١٨٨٢م ولاذ الحاكم توفيق بالانجليز وطلب معونتهم ضد الثوار وكانت النتيجة هو وقوع مصر تحت الاحتلال الانجليزى الذى استمر نحو ثلاثة أرباع القرن .

بعد خروج الأفغانى من مصر وصل الى حيدر آباد بالهند ولم يستقر بها طويلا لتعقب الانجليز له فخرج منها الى (باريس) التى كانت تفتح أبوابها لثوار البلاد التى بها الاستعمار الانجليزى نكاية فى بريطانيا ، فالتقى الأفغانى بالشيخ محمد عبده الذى نفى من مصر لاشتراكه فى الثورة العرابية السالفة ، فأصدرا معا فى العاصمة الفرنسية جريدة تعبر عن التضامن الاسلامى وموجهة الى الشعوب الاسلامية

---

(١٠) الوقائع المصرية ، عدد ٣١ أغسطس ١٨٧٩ .

وهى (العروة الوثقى) أسبوعية يديرها الأفغانى ويرأس تحريرها محمد عبده وتتولى الانفاق عليها جمعية « العروة الوثقى » لها فروع فى الهند ومصر وغيرهما من أقطار الشرق الاسلامى ومهمتها العمل على انهاض الشعوب الاسلامية من ضعفها وتنبيهها من خطر الاستعمار الغربى •

يقول الأفغانى عن رسالته التى اختطها فى حياته ومضى ينفذها كالاعصار لايعرف التراجع ولا الخوف ولا الرهبة •

« لقد جمعت ماتفرق من الفكر ولمحت شعث التصور ونظرت الى الشرق وأهله •• وما آل اليه أمرهم •• فخصصت جهاز دماغى لتشخيص دائه ، وتحرى دوائه فوجدت أقتل أدوائه داء انقسام أهله ، وتشتت آرائهم واختلافهم على الاتحاد ، واتحادهم على الاختلاف ، فعملت على توحيد كلمتهم وتنبيههم للخطر الغربى المحدق بهم(١١) •

ولقد لقيت جريدة العروة الوثقى اقبالا من القراء المسلمين وصادرها الانجليز فى الهند ومصر حتى كانت تهرب الى داخل البلاد ، وأعلنت سلطات مصر الرازحة تحت تأثير الانجليز أن كل من توجد عنده العروة الوثقى يغرم بغرامة تتراوح بين خمسة جنيهات مصرية الى خمسة وعشرين جنيها • وقد نشر منها فى ثمانية أشهر ١٨ عددا صدر آخرها فى ذى الحجة ١٣٠١ هـ وبعدها احتجبت عن الصدور بسبب محاربة الانجليز لها ، وعاد محمد عبده بعدها الى سوريا ، وفى جمادى الأولى ١٣٠٣ هـ سافر الأفغانى الى « ايران » بدعوة من ناصر الدين شاه ايران ، وفى ايران تزاحم الأمراء والمجتهدون من رجال الدين حوله ولم يلبث أن بثهم روحه ودعوته فملأت الريبة قلب الشاه وتملكه الخوف من نشاط الشيخ ولمح جمال الدين هذا فخرج من ايران خائفا يترقب وسافر الى أوربا • وعلى الرغم من أنه عاد مرة أخرى الى ايران بالحاح من الشاه غير أنه

(١١) مقدمة العروة الوثقى طبعة دار الكتاب العربى بيروت ١٤٠٠ هـ •

طرده منها ولجأ الى العراق • وكان تأثير الأفغانى فى (طهران) مثل ماكان فى القاهرة يدفع الملتفين حوله الى التضامن والثورة على الظلم كما تدفع الخميرة العجين الى الفوران •

وانتهى الأمر فى ايران بثورة الشعب على الشاه وتقدم شاب من تلاميذ الأفغانى وطعن ناصر الدين شاه بسكين صائحا (خذها من يد جمال الدين) سنة ١٣١٤ واعترف الجانى بأنه تلميذ الأفغانى فطلبت الحكومة الايرانية من الدولة العثمانية تسليم الأفغانى اليها لأن الشيخ كان ألقى عصى التسيار فى (اسلامبول) بعد أن لقيت دعوته هوى فى نفس السلطان عبد الحميد الذى دعا فى نفس الوقت (بالجامعة الاسلامية) ردا على الدول الأوربية التى كانت تتربص بدولته الكبيرة لتمزيقها وتوزيعها فيما بينهم فرأى فى دعوة الأفغانى فرصة لتقوية حركة الجامعة الاسلامية فدعاه فى عام ١٣١٢هـ ١٨٩٥ الى الحضور الى اسلامبول وكان وقتها يعيش فى لندن منذ سنة ١٣٠٩هـ ١٨٩٢م فلبى الطلب وواصل نشاطه فى عاصمة الدولة حتى اغتيال ناصر الدين وطلبت ايران تسليمه لأنها اعتبرته قاتلا « حقيقيا وان كان » غير مباشر ، ولم ينفذ طلب الحكومة الفارسية لأمر خارج عن ارادة الدولة العثمانية ذلك أن الحكيم الأفغانى كان قد فارق الحياة بتاريخ ٩ من مارس سنة ١٣١٤هـ ١٨٩٧م ، وأسدل الستار على تاريخ عالم من أعلام التضامن الاسلامى أطلقت عليه انجلترا المشاغب الخطير لأنه أراد أن يوقظ النيام ، وأثر فى حوادث الشرق الاسلامى أكثر مما أثر فيه رجل آخر بأقواله(١٢) •

وظلت تعاليم الأفغانى حية بعد موته واستمر تأثيرها وأحدثت صدى كبيرا فى اليقظة الاسلامية التى كانت تزداد يوما بعد يوم •

---

(١٢) يؤكد أكثر الايرانيين وغيرهم ممن ترجموا لجمال الدين أن موته لم يكن طبيعيا ، وأنه نفخ فى شفته بمادة سامة ، سببت له حالة مرضية تشبه السرطان (مقدمة العروة الوثقى ، ص٢٧) .

المؤامرة الاستعمارية لاجهاض العالم الاسلامى :

كانت أوربا دائما تخشى أن يعود العرب الى سابق قوتهم بعد أن قهرتهم زمنا طويلا • وكانت تود أن يظل هذا الجزء من العالم ممــزقا ولا تقوم له قائمة لكى لاينتقم من الغرب مرة أخرى فتضيع بذلك المكاسب الاستعمارية التى حققها الغرب بالسيطرة على الشرق الاسلامى • يقول مورو بيرجر فى كتابه « العالم العربى المعاصر » : ان الخوف من العرب واهتمامنا بالأمة العربية ليس ناتجا عن وجود البترول بغــزارة عنـد العرب بل بسبب الاسلام يجب محاربة الاســلام للحيلولة دون وحدة العرب التى تؤدى الى قوة العرب لأن قوة العرب تتصاحب دائما مـع قوة الاسلام وعزته وانتشار(١٣) •

وفى سنة ١٩٠٧ كان رئيس وزراء بريطانيا هو سير هنرى كامبل بانرمان Sir Henry Combell Bannerman وكان مهتما بالدراســات التاريخية وحريصا على أن يمد فى عمر الامبراطورية البريطانية ، فأمر بتشكيل لجنة من كبار وأساتذة الجامعات فى شتى المجالات الاقتصادية والبترولية والزراعية والتاريخ والاجتماع وشئون الاستعمار وأعــلام السياسة فى الدول الاستعمارية ذات المصالح المشتركة فى كل من فرنسا وهولندا والبرتغال وأسبانيا وايطاليا وانجلترا وبلجيكا • واجتمعت هذه اللجنة فى لندن فى سنة ١٩٠٧(١٤) وافتتح أعمالها كامبل بابرمان طالبا

---

(١٣) مجلة روز اليوسف المصرية فى عددها الصادر بتاريخ ٢٩/٦/٦٣ وانظر أيضا : قادة الغرب يقولون ، من منشورات المختار الاســلامى من سلسلة نحو وعى اسلامى ، صص٤٤ — ٤٥ نشر القاهرة سـنة ١٩٧٧ الطبعة الثالثــة •

(١٤) حسن صبرى الخولى ، سياسة الاستعمار والصهيونية تجــاه فلسطين ، ص١١٣ ، جا ، وأنظر أيضا : أنطون سليم كنعان ، فلســطين والقانون ، تقرير كامبل بانرمان ، بحث منشور فى كتــاب المؤتمر الثــالث لاتحاد المحامين العرب الذى عقد فى دمشق سنة ١٩٥٧ ، ص٤٥٧ — ٤٨٩ •

منها بحث الوسائل الكفيلة بعدم سقوط الاستعمار الأوربى أو على الأقل تأخير مصيره فقال ما نصه :

« ان الامبراطوريات تتكون وتتسع وتقوى ثم تستقر الى حد ما ، ثم تنحل رويدا ثم تزول والتاريخ ملىء بمثل هذه التطورات وهو لايتغير بالنسبة لكل نهضة ولكل أمة ، فهناك امبراطوريات روما وأثينا والهند والصين وقبلها بابل وآشور والفراعنة • وغيرها •• فهل لديكم أسباب أو وسائل يمكن أن تحول دون سقوط الاستعمار الأوربى وانهياره ، أو تؤخر مصيره؟وقد بلغ الان الذروة ، وأصبحت أوربا قارة قديمة استنفدت مواردها وشاخت معالمها بينما لايزال العالم الآخر فى صرخ شبابه يتطلع الى مزيد من العلم والتنظيم والرفاهية هذه هى مهمتكم أيها السادة على نجاحها يتوقف رخاؤنا وسيطرتنا » •

ومن هذه الكلمة الافتتاحية تحددت مهمة اللجنة فى الاتى :

١ — اقتراح الوسائل الكفيلة بمنع سقوط الامبراطوريات الاستعمارية الأوربية القائمة يومئذ •

٢ — العمل على عرقلة العالم غير الأوربى وعدم تقدمه وتطوره بحرمانه من التعليم والتنظيم والرفاهية حتى يطمئن الاستعمار الى وجوده فيه أطول مدة ممكنة •

وقامت اللجنة بدراسة تاريخية موسعة « وانتهت من دراستها الى تطور عام لمستقبل الاستعمار الأوربى • وضعوه فى تقرير اشتهر بتقرير بانرمان قدموه الى وزارة الخارجية البريطانية التى أحالته بعد دراسته الى وزارة المستعمرات •

ويستعرض التقرير مصالح الدول الاستعمارية والمجالات الحيوية لكل دولة ومناطق نفوذها فى العالم ، وتحدث عن أهمية البحر المتوسط

على مر العصور التاريخية وأن من يسيطر عليه يستطيع التحكم فى العالم ، وأوضح مدى الأخطار التى تنزل بالدول الاستعمارية اذا هى خسرت مستعمراتها .

ثم تحدث التقرير عن منبع الخطر علي الاستعمار وحده فى منطقة البحر المتوسط وبالتحديد على شواطئه الشرقية والجنوبية حيث العالم العربى الممتد بين الخليج العربى والمحيط الأطلسى ، وتضم هذه المنطقة قناة السويس شريان الحياة لأوربا فى هذه المنطقة الحساسة يعيش شعب واحد تتوافر له وحدة التاريخ والدين واللغة والثقافة والآمال وجميع مقومات التجمع والترابط والاتحاد ، كما تتوافر له كل أسباب القوة والتحرر والنهوض نتيجة لنزعاته التحررية وثرواته الطبيعية الكافية وموارده البشرية المتزايدة ، وقدر عدد سكانه سنة ١٩٠٧ بحوالى ٣٥ مليونا من البشر ، ويمكن أن يرتفع هذا العدد فى مدى قرن واحد الى مائة مليون[١٥] .

ثم تساءل التقرير كيف يمكن أن يكون وضع العرب اذا توحدوا فعلا ، ودخلت الوسائل الفنية الحديثة ومكتسبات الثورة الصناعية الأوربية اليهم ؟ وما يحدث لو انتشر التعليم وعمت الثقافة فى أوساط هذا الشعب ؟ وماهو مصير هذه المنطقة اذا تحررت وتمكن أبناؤها من استغلال ثرواتها الطبيعية لصالحهم .

ويجيب التقرير على هذه التساؤلات بما يلى :

« عند ذلك ستحل الضربة القاضية حتما بالامبراطوريات الاستعمارية كما حلت من قبل بالاغريق والرومان » .

---

(١٥) يلاحظ ان هذا التقدير اقل بكثير مما وصل اليه تعداد العالم العربى فى اقل من قرن فقد وصل الان ١٩٨٥ الى حوالى ١٥٠ مليون نسمة .

ثم يصل التقرير الى وصف العلاج لدرء هذا الخطر المحتمل على الاستعمار ، فيوصى الدول ذات المصالح الاستعمارية المشتركة بأن تعمل على استمرار وضع هذه المنطقـــة مجزأة متأخرة ، وعلى بقاء شعبها فى حالة التفكك والجهل والتناحر ومحاربة اتحـــاد هذه الجماهير العربية أو ارتباطها بأى نوع من أنواع الارتباط الفكرى أو الروحى أو التاريخى •

واقترح التقرير وسيلة سريعة لدرء الخطـــر من المنطقة العـــربية فأوصى بالعمل على فصل الجزء الأفريقى من هـــذه المنطقة عن جزئهـــا الأسيوى » واقترح لذلك اقامة حاجز بشرى قوى وغريب على الجسر البرى الذى يربط آسيا بأفريقيا ويربطهما معا بالبحـــر المتوسط بحيث يشكل فى هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة صـــديقة للاستعمار وعدوة لسكان المنطقة[١٦] •

وكان معنى التوصية الأخيرة هو زرع شـــعب غريب عن المنطقـــة العربية شرقى قناة السويس أى فى سيناء وفلسطين باعتبارهما المناطق الوحيدة التى يمكن أن تفصل آسيا عن افريقيا كلية وتمزق الوطن العربى كله ، وكان هذا التقرير ورقة عمل للاوربيين بصفة عامة وللدبلوماسيين الانجليز بصفة خاصة تعمل فى ضوئها فى منطقة الشرق العربى •

ولقد وجدت الأحلام الصهيونية فى هذا التقرير فرصتها الذهبيـــة فتحالفت مع المخاوف الأوربية لخلق الوطن القومى اليهودى فى فلسطين لعرقلة النهضة العربية الاسلامية المـــرتقبة والاتية لا محالة ، ومن ثم ارتباط وثيق بين الصهيونية والاستعمار منذ ذلك التاريخ وهو ارتبـــاط استراتيجى مصيرى •

ولعبت اليهود دورا خطيرا فى الأحداث العالمية قبل الحرب العالمية الأولى وأثناءها ، وخاصة فى الدولة العثمانية ، وكان أثر يهود الدونمة

---

(١٦) المرجع السابق • ص١١٦ ، وانظر أيضا : ابراهيم خليل أحمد ، الاستشراق والتبشير وصلتهما بالامبريالية العالمية ص٣ — ٥ •

واضحا فى حركة انقلاب الاتحاديين سنة ١٩٠٩ ، فكان منهم أناس يعدون أركانا فى حركة جمعية الاتحاد والترقى التركية •

الاستعمار يعمق الفرقة بين المسلمين :

لما صفيت الدولة العثمانية وقضى الاستعمار وكانت رائدة العالم الاسلامى ، وألغيت الخلافة سنة ١٣٤٢هـ أصبح المسلمون يواجهون الدول الاستعمارية فرادى فكان من السهل ابتلاعهم فى اطار ما سمى بالاستعمار تحت الوصاية والانتداب ذلك النوع من الاستعمار الذى نشأ فى أعقاب الحرب العالمية الأولى •

وعلى الرغم من محاولة علماء الأزهر الشريف رأب الصدع فى الكيان الاسلامى تلك المحاولة التى تمثلت فى الدعوة الى عقد مؤتمر عالمى لقادة العالم الاسلامى بالقاهرة تحت رعاية الأزهر لبحث أمر الخلافة الاسلامية التى ألغاها مصطفى كمال من تركيا ، ومحاولة اعادتها الى حياة المسلمين السياسية أقول على الرغم من ذلك فان الاستعمار كان لهذه المحاولة بالمرصاد وضربها بسلاح التفرقة بين المسلمين ، ذات الحدين •

التفرقة فى المجال السياسى وعدم اتحادهم حيث أوعز الى الشريف حسين شريف مكة بأن يعلن نفسه خليفة على المسلمين دونما بيعة منهم ودون الاجتماع معهم فى القاهرة بل ومناوأته لهم فى فكرة الاجتماع بالاضافة الى موقف المسلمين الهنود الين كانوا خاضعين للاستعمار الانجليزى فقد أرسلوا يشككون فى فكرة المؤتمر •

والتفرقة بين المسلمين فى مجال الفكر عندما ألقى الاستعمار بينهم بحجر لتفريقهم عندما اجتمعوا على ضرورة عودة الخلافة ونشطت حركة الأفكار من أجل ذلك فألقى فى الساحة بواسطة أحد أذنابه بفكرة صيغت فى كتاب بعنوان : « الاسلام وأصول الحكم » وارتطمت هذه

الأفكار العميلة بأفكار المسلمين الأصيلة وتصارعت معها وأوجدت شرخا في الفكر الاسلامي السياسي المتعلق بنظام الحكم في الاسلام ما زال باقيا حتى يومنا هـذا .

ولاذ المسلمون في فترة ما بين الحربين الأولى والثانية الى الهدوء بعد ضربهم وتفريقهم ونمى فيهم الاستعمار « روح الاقليمية الضيقة » وغذاها فأصبحت قوية لدى حكام المسلمين ، ولكن الشعوب الاسلامية بدأت تذكر ماضيها العزيز ووضعها المهين في يد الاستعمار ونادى كثير من المفكرين بضرورة العودة الى الوحدة الاسلامية بالاستقلال أولا عن ارادة الاستعمار ومن يتتبع الصحافة الاسلامية منذ ما بعد الحرب العالمية الأولى الى الحرب العالمية الثانية يتبين له مدى عاطفة الشعوب الاسلامية نحو الخلافة وضرورة الوحدة .

وجاءت الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) نتيجة للاصطراع الأوربي على المستعمرات في بلاد المسلمين وغـيرهم من الشـعوب المتخلفة ، فطحنت هذه الحروب أول ما طحنت المستعمرين وكشـفت الاستعمار أمام الرأي العام العالمي فاضطر الى الدخول في دور جديد تحت شعار منح الاستقلال المزيف لكثير من شـعوب العالم .

لكن استنزاف الموارد في العالم الاسلامي ظل مستمرا لصـالح الغرب تحت اشراف مايسمى بشركات أو مؤسسات ظاهرها الاقتصـاد الحر وباطنها الاستغلال لصالح الاستعمار .

وفي تلك الآونة طرحت صيغة القوميات الضيقة بشـدة للتجمـع الجنسي أمام أطماع الاستعمار ، ولكن هذه صيغة أثبتت فشلها على يد مصطفى كمال أتاتورك ورضا بهلوي وابنه من بعده محمد رضا بهلـوي وجمال عبد الناصر وسبب فشلها أنها كانت خاوية بلا روح وأعني بهـا الروح الاسلامية ، وذلك لأن الاستعمار هو الذي ساهم في صنع هذه الصيغة ، وسقطت هذه الحركة في الامتحان الذي دخلته عندما دخـلت

مصر على سبيل المثال الحرب ضد اسرائيل ، فتلقت هزيمة ساحقة فى سنة ١٣٨٧هـ (١٩٦٧ م) •

وحدثت حركة رد فعل بعد هزيمة العرب أمام اسرائيل والاعتداء على المسجد الأقصى سنة ١٩٦٩ م حيث قام اليهود بحرق جزء منه فاستيقظ العالم الاسلامى ورأى أنه اذا أراد العيش الكريم وسط التكتلات العالمية (السوق الأوربية المشتركة ، الاتحاد السوفيتى ، الولايات المتحدة الأمريكية ، الصين) فانه لابد أن يتكتل مثلها ، وطرحت صيغة كومنولث اسلامى ولكنها كانت فكرة اقتصادية فحسب ولم تنتقل الى حيز التنفيذ العملى •

وطرحت فكرة الجامعة الاسلامية من جديد لتوحيد السياسة والثقافة والاقتصاد والحرب ، واحياء اللغة العربية وجعلها لغة الثقافة والتفاهم الاسلامى ، ومحو العنصرية بين المسلمين وذلك كما طرحها الشيخ محمد أبو زهرة فى كتابه عن الوحدة الاسلامية •

وطرحت فكرة للتضامن الاسلامى من الملك فيصل بن عبد العزيز وقطعت أشواطا ناجحة فى ميدان هذا التضامن •

الفصل السابع

دور الملك فيصل بن عبد العزيز

فى دعم التضـــامن الاسلامى

كانت فكرة التضامن الاسلامى قبل الملك فيصل بن عبد العـــزيز (١٣/٣/١٣٩٥هـ) مجرد أمل دعا اليه المفكرون ولكن هذا الأمل تحول على يد الملك فيصل الى حقيقة بفضل جهوده فى هذا المجال ، ففى جو سادت فيه الاقليمية الضيقة التى خلقها الاستعمار وغذاها حتى أصبحت قوية وخاصـــة لدى حكام المسلمين طرح الملك فيصل صـــيغة عبقـــرية حث قال لزعماء المسلمين فلنتضامن فى النوائب والكوارث والنـــزلات وكل دولة على حالها من ناحية نظامها السياسى ســـــواء كان ملكيا أو جمهوريا ، فأسس رابطة العالم الاسلامى لهذا الغرض فى عام ١٣٨١هـ وجعل مقرها مكة المكرمة •

وبدأت (رابطة العالم الاسلامى) تتحرك لربط ما انقطع من علائق الود بين المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها بفضل ما وضع لها الملك فيصل من أساليب حكيمة تضمن لها الانطلاق والفعالية ، ففى سنة ١٣٨٤هـ تلقت الرابطة دعوة رئيس جمهورية الصومال الى اجتماع قمة اســـلامى لوضع أسس التضامن الاسلامى ، واجتمعت وفود من العالم الاسلامى ، من أجل هذه الغاية فى مكة وقرروا تأييد دعوة التضامن الاسلامى •

وفى سنة ١٣٨٥هـ بدأ الملك فيصل بعدة رحلات الى أقطار العـــالم الاسلامى لدعم التضـــامن الاسلامى فزار ايران والأردن والســـودان وباكستان وتركيا والمغرب وغينيا ومالى وتونس ، وعلى الرغم من الحملات التى وجهت لهذه الحركة من الحاقدين على الاسلام من الشـــيوعيين

والصهاينة والاستعمار وأذنابهم فى العالم الاسلامى الا أن هذه الدعوة تقدمت الى الأمام بخطى قوية بفضل صمود الملك فيصل •

وفى عام ١٣٨٧هـ وقعت الهزيمة المرة بالعرب فى الحرب التى شنها اليهود عليهم واستولت اسرائيل على شبه جزيرة سيناء من مصر ومرتفعات الجولان من سوريا والضفة الغربية لنهر الأردن من المملكة الأردنية الهاشمية وبلغت مأساة العرب والمسلمين أقصاها باعتداء اليهود على المسجد الأقصى وحرقه فى عام ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م بهدف اعادة بناء هيكل سليمان مكانه[١] •

وفى أعقاب الحريق وجه الملك فيصل بن عبد العزيز النداء التالى للامة الاسلامية داعيا للجهاد لتحرير المسجد الأقصى باعتباره السبيل الوحيد لاسترداد كرامة المسلمين واستعادة مقدساتهم •

« فى هذه اللحظة التاريخية التى امتدت فيها يد الصهيونية الآثمة الى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ومسرى الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه ، فانى أناشد قادة المسلمين وشعوبهم فى مشارق الأرض ومغاربها أن يهبوا لتحرير مقدسات الاسلام فى القدس العزيزة متسلحين بالايمان الذى هو أقوى من أى سلاح وواضعين أمام أعينهم ما وعدهم الله به فى كتابه العزيز الذى يقول : « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » ويقول عز وجل « انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » ان الصهيونية اللئيمة الماضية فى عدوانها الاجرامى غير عابئة بالقيم الروحية والمقدسات الدينية لا تؤمن الا بمنطق القوة خصوصا بعد أن أصبحت الأمم المتحدة عاجزة عن الزام اسرائيل بتنفيذ أى قرار من قراراتها ، وان جميع الحلول السلمية التى تطلع على العالم كل يوم ما هى الا سراب تعطى الفرصة للصهيونية العالمية لتنفيذ مخططها التوسعى فى السيطرة على العالم •

---

(١) حركة التحرر الوطني الفلسطينى « فتح » الاعلام المركزى (قصة الأقصى الذى احترق) القاهرة ١٩٦٩ ، ص٣٣ •

اخوانى : لقد ناشدتكم فى موسم الحج الفائت أن تهبوا لتحرير المقدسات الدينية فى فلسطين وأناشدكم الان باعلان الجهاد المقدس بعد أن استنفذت جميع الطرق السلمية • ونحن على يقين بأن جميع الشعوب المؤمنة بالله والمتمسكة بمبادىء الحق والعدل لتؤيدنا فى قضيتنا وستهب لنصرتنا وعلينا نحن المسلمين أن نتنادى ليوم قريب نلتقى فيه جميعا على أرضنا المغتصبة وانقاذ مقدساتنا الدينية من براثن الصهيونية الغادرة ولنفوز باحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة[٢] •

وتجاوبا مع نداء الملك فيصل دعا الملك الحسن الثانى ملك المغرب الى عقد مؤتمر قمة فى الرباط للتباحث حول المؤامرات الصهيونية والاستعمارية التى تستهدف مقدسات المسلمين •

وفى يوم الاثنين ١١ من رجب ١٣٨٩هـ (٢٢ من سبتمبر ١٩٦٩) افتتح (أول مؤتمر قمة اسلامى) فى التاريخ بمدينة (الرباط) عاصمة المملكة المغربية وكانت الدعوة قد وجهت الى ٣٥ دولة اسلامية لبى النداء منها ٢٥ دولة ، وقد أعلن المؤتمر المبادىء الاتية :

الالتزام بالقيم الاسلامية وميثاق الأمم المتحدة وبالحقوق الأساسية للانسان ، ونبذ العنصرية وتأييد الحرية فى كافة أنحاء العالم وصيانة السلام والأمن الدوليين •

وتمخض المؤتمر عن توصية بعقد (مؤتمر لوزراء خارجية الدول الاسلامية) فى مارس ١٩٧٠ بمدينة (جدة) لوضع أسس لقيام أمانة دائمة لمؤتمر الدولة الاسلامية •

وقد اكتفى المؤتمر باستنكار الاحتلال الاسرائيلى للأراضى العربية

---

(٢) مؤتمر القمة الاسلامى ، صدر عن جريدة الندوة التى تصدر فى مكة المكرمة ١٤٠١هـ ص٢٣ وبه دراسة عن مؤتمرات القمة •

فى الخامس من يونيو ١٩٦٧ وندد بجريمة احراق المسجد الأقصى ودعا الدول الأربع الكبرى لبذل المزيد من الجهد المشترك لتحقيق الانسحاب الكامل غير المشروط لاسرائيل من الأراضى العربية المحتلة ، وأيد حقوق الشعب الفلسطينى المغتصبة ، وتحفظت كل من (تركيا) وايران على قرار المؤتمر بدعم المقاومة الفلسطينية[٣] .

ومهما قيل عن الاختلافات التى نشبت فى المؤتمر بين المسلمين فيكفى أن زعماء المسلمين اجتمعوا وأول الغيث قطرة واتفقوا أيضا على أن تكون لهم لقاءات اسلامية دورية . لبذل الجهود لجمع الكلمة والتضامن فى الأزمات .

وأثمرت فكرة التضامن اجتماعات دورية لقادة وزراء المسلمين وأنتجت مؤسسات ثقافية واقتصادية وسياسية ذات قدرة فعالة فى المجال الدولى الاسلامى والعالمى ، فقد اجتمع وزراء خارجية الدولة الاسلامية فى أحد عشر مؤتمر حتى مطلع عام ١٤٠١هـ بالاضافة الى ثلاثة مؤتمرات للقمة آخرها قمة مكة المكرمة ١٤٠١هـ ما عدا الاجتماعات الاستثنائية .

وكان اجتماع وزراء الخارجية الاسلامى (الأول) فى « جدة » فى ١٥ من المحرم ١٣٩٠هـ (٢٣ من مارس ١٩٧٠) افتتح جلسات المؤتمر الملك فيصل بن عبد العزيز معبرا عن آماله فى أن يخرج المؤتمر بنتائج عملية تعبر عن تطلعات جماهير الأمة الاسلامية .

وقرر المؤتمرون الاجتماع مرة كل عام لمراجعة تطبيق القرارات وتقديم التوصيات للعمل المشترك وتعيين زمان ومكان مؤتمرات القمة الاسلامية . كما قرر انشاء أمانة عامة للمؤتمر الاسلامى مقرها المؤقت فى مدينة جدة لتكون حلقة اتصال بين الدول الأعضاء ومتابعة تنفيذ

---

(٣) المرجع السابق ، ص٢٥ .

قرارات ويرأس الأمانة أمين عام يعين لمدة عامين[٤] وكان أول أمين هو السيد تنكو عبد الرحمن رئيس وزراء ماليزيا ، والحـالى هو الحبيب الشـطى من المغرب •

وفى الفترة من ١٤ — ١٨ محرم ١٣٩٢هـ (٢٩ فبراير — ٤ مارس ١٩٧٢) عقد المؤتمر « الثالث » لوزراء الخارجية فى (جدة) ووضـع « ميثاق المؤتمر الاسلامى » الذى نص على تأسيس منظمة باسم (المؤتمر الاسلامى) تضم مؤتمر القمة ومؤتمر وزراء الخارجية ويكون لها أمانة عامة ، ونص على أهداف هذه المنظمة : لتعزيز التضامن الاسلامى بين الأعضاء ودعم التعاون بين الأعضاء فى المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعلمية والقضاء على الاستعمار والتفرقة العنصرية ودعـم السلام العالمى وتحرير الأماكن المقدسـة فى فلسطين •

وقررت الدول الأعضاء بأنها تتعهد فى سـبيل تحقيق الأهـداف المذكورة فى ما سلف وتستوحى المبادىء التالية : المساواة التامة بين الدول الأعضاء فى الحقوق والواجبات ، واحترام حق تقرير المصير وعدم التدخل فى شئون الغير الداخلية واحترام سيادة كل اقليم واستقلاله ، وحل المنازعات فيما بينها بالطرق السلمية ، والامتناع عن استخدام القوة أو التهديد بها بين الدول الأعضاء •

ووافق المؤتمر على مشروع تأسيس « وكالة أنباء اسلامية » على أن يكون مركزها الرئيسى « جدة » ورعاية الجماعات الاسلامية وتقديم العون لها والاهتمام بنشر الكتب الدينية وتنشيط الدراسات الاسـلامية والألعاب الرياضـية •

---

(٤) أنظر : جريدة المدينة السعودية عدد ١٨ المحرم سنة ١٣٩٠هـ .

مؤتمر القمة الثانى :

فى لاهور(*) بباكستان من ٢٢ فبراير سنة ١٩٧٤ :

جاء هذا المؤتمر بعد انعقاد خمسة مؤتمرات لوزراء الخارجية الاسلامية فقد ضم ٣٨ بلدا اسلاميا ممثلا ٦٠٠ مليون مسلم أى حوالى ١٥٪ من سكان العالم ، وجاء تعبيرا عن ظهور قوة جديدة فى المسرح الدولى تسعى لأن تلعب دورا فى قضايا العالم ، وتجلت فى « مؤتمر لاهور » الوحدة الاسلامية بأسمى معانيها فى بيان لاهور الذى عزز التضامن الاسلامى من أجل استعادة الحقوق المغتصبة للمسلمين فى فلسطين وغيرها والتضامن من أجل القضاء على الفقر والمرض والجهل فى البلاد الاسلامية واستغلال الدول المتقدمة للدول النامية ، والتعاون من أجل التضامن الاقتصادى بين الدول الاسلامية وضمان رفاهيتها(٥) .

وفى فاس فى ١٠ من جمادى الثانية سنة ١٣٩٩هـ عقد مؤتمر وزراء الخارجية العاشر ، وفيه اتضحت هيئات التضامن الاسلامى ومؤسساته وهى :

صندوق التضامن الاسلامى ويتكون مجلس هذا الصندوق من ١٣ دولة اسلامية وبلغت حصيلته قبل قمة مكة ١٢ مليون دولار وهو مبلغ صغير يساهم فى مساعدة المدارس والجامعات الاسلامية ويحاول انشاء جامعة اسلامية فى نيجيريا هى جامعة النيجر الاسلامية ، ويقدم العون للمسلمين المنكوبين ويذكر رئيس هذا الصندوق وهو الدكتور

(*) تعنى كلمة « لاهور » باللغة الأردية أرض الطهارة ، وقد دخل الاسلام مدينة لاهور على يد حملة بقيادة محمد بن القاسم التى فتحت السند فى أواخر القرن الأول الهجرى فى العصر الأموى وابان الاحتلال البريطانى كانت لاهور عاصمة لاقليم البنجاب وبعد ظهور دولة الباكستان كانت لاهور عاصمة لباكستان الغربية .

(٥) أنظر : مؤتمر القمة الاسلامى ، مرجع سبق ذكره ، ص٤٩ — ٥٠ .

عز الدين ابراهيم قبل انعقاد المؤتمر الأخير فى مكة « ربيع الأول ١٤٠١ » بأنه طلب ألف مليون دولار على الأقل للصندوق لتمكينه من القيام بأعبائه(٦) •

ومن المنظمات الاسلامية البنك الاسلامى للتنمية ومقره الرئيسى جده ووكالة الأنباء الاسلامية ومنظمة اتحاد الاذاعات الاسلامية فى جده أيضا •

ولقد أنتجت حركة التضامن الاسلامى كثيرا من أنماط التعاون منها حركة البنوك الاسلامية التى كثر انشاؤها فى الآونة الأخيرة ، وانشاء الجامعات الاسلامية بدلا من الجامعات العلمانية التى نشأت فى ظل الاستعمار وحركة تقنين الشريعة الاسلامية للاستعاضة بها عن القوانين الوضعية الأوربية :

قمة اسلام أباد الطارئة :

فى مطلع عام ١٩٨٠ وفى شهر يناير بالتحديد اجتاح الروس أفغانستان فى نحو مائة ألف جندى بالدبابات والطائرات وأجهضوا المقاومة الاسلامية لحكومة كابول العميلة للروس وشتتوا رجالها فى الجبال وأعلنت روسيا أنها دخلت البلاد بطلب من حكومة أفغانستان التى قام على رأسها العميل الجديد (بابرك كارمل) بعد قتله لحفيظ الله أمين الذى قتل معلمه الشيوعى وأستاذ المدرسة الشيوعية فى أفغانستان (نور محمد تره كى) قبل ثلاثة أشهر من الزحف الروسى على البلاد •

فهب العالم الاسلامى بعد أن أدرك مؤخرا بعد فوات الأوان أن الأطماع الروسية فى العالم الاسلامى لاتنتهى عند حد وأن أفغانستان ليست مقصودة بذاتها فحسب بل هى فى الطريق الى غيرها وتنادى

---

(٦) ذكر ذلك فى مقابلة تليفزيونية فى المملكة العربية السعودية عام ١٩٨٠ م •

المسلمون فى كل مكان بالاجتماع من أجل أفغانســتان واجتمعوا فى اسلام أباد بباكستان فى ٨ من ربيع الأول ١٤٠٠هـ (٢٦ من يناير ١٩٨٠م)

ولم يستطع المؤتمر أن يفعل شيئا لأفغانستان السلبية ســوى اعلان الأسف لما حدث واستنكاره للعدوان الأثيم الذى يعتبر خرقا للقانون الدولى وميثاق الأمم المتحدة ، ونادى المؤتمر بالانســحاب الفورى للروس ، ولكن ذلك الطلب من مصدر ضعف وتفرق فى الكلمة ، لا من مصدر قوة ، نعم لأن بعض الدول التى اجتمعت مع المسلمين فى المؤتمر والتى تمشى فى ركاب روسيا مثل سوريا واليمن الجنوبية وليبيا والجزائر لم تقبل حضور وفد رجال المقاومة الأفغانستانية للمؤتمر ، وكان هــذا منتهى التخاذل والخوف من روسيا الذى أملاه الضعف . ولم تكتف هذه المجموعة بهذا الموقف بل هددوا بافشــال المؤتمر اذا أقدم على ادانة روسيا وقال بعضهم اذا أدنا روسيا فيجب أن ندين أمريكا أيضا ، ونتج عن هذا الموقف أن المشتركين فى المؤتمر أخذوا يتضاربون بالأقوال لتجريح بعضهم بعضا للتفريق لا للتجميع .

والمضحك المبكى أن المؤتمرين اختلفوا فى بداية المؤتمر على اللغة التى تدار بها جلسات المؤتمر ، فالدول التى كانت مستعمرات فرنســية فى الماضى طلبت بأن تكون لغة المؤتمر هى الفرنسية ، أما الدول التى كان بها استعمار انجليزى فقد أصرت على أن تكون لغة المؤتمر هى الانجليزية وبذلك كان انقسامهم فى موضوع أفغانستان انقسام ميول الى أمريكا أو الاتحاد السوفيتى ، وفى مسألة لغة المؤتمر كان انقساما استعماريا ، وليس هذا فى اللغة فقط وانما فى الاتجاهات السياسية والمشــارب الثقافيــة .

وأكد وفد المملكة العربية السعودية على جعل اللغة العربية التى

هى لغة القرآن الكريم هى لغة المؤتمر وتابعتها فى ذلك بعض الدول[٧] •

وازاء عجز قمة اسلام أباد الطارئة كان لابد من عقد قمة أخرى لتصحيح الأوضاع واعادة الترابط : فدعت السعودية الى عقد مؤتمر للرؤساء والملوك فى مكة المكرمة ، وخاصة أن اسرائيل أقدمت فى نفس السنة على اعلان القدس عاصمة دائمة لها بشطريها العربى واليهودى ، فكان هذا حافزا آخر على الاجتماع •

قمة مكة ١٤٠١هـ :

فى مكة اجتمع ملوك ورؤساء العالم الاسلامى فى مؤتمرهم الثالث[٨] فى ١٩ من ربيع الأول ١٤٠١هـ فى الوقت الذى تمادى فيه الروس فى احتلالهم لأفغانستان واستمرارهم فى تغيير طبيعة البلاد الاسلامية ، وقهرهم للروح الأفغانية الاسلامية ، كما تمادت اسرائيل فى عنادها وجبروتها ازاء رفض الحقوق العربية والفلسطينية فى الوقت الذى اندلعت فيه حرب محرمة بين المسلمين فى كل من ايران والعراق ، وألقت هذه الظروف على المؤتمر بالمسئولية •

وتم افتتاح المؤتمر فى مكة فى عصر يوم ١٩ من ربيع الأول واستكمل أعماله فى مدينة الطائف ومن ورائه تطلعات المسلمين وآمالهم فى أن يوفق المؤتمر فى اتخاذ قرارات أشد حسما فى القضايا الاسلامية ، ومغايرة للطابع الذى اتسمت به قرارات وتوصيات المؤتمرات الاسلامية السابقة مما زاد من أعباء المسئولية على المجتمعين •

---

(٧) كان قد تقرر فى مؤتمر وزراء الخارجية الاسلامية الثالث بجده سنة ١٣٩٢هـ جعل اللغات العربية والانجليزية والفرنسية هى لغات المؤتمر وأعلن ذلك فى ميثاق المؤتمر •

(٨) كانت قمة اسلام أباد طارئة ومن ثم لم تحتسب ، واذا تم احتسابها فان قمة مكة هى الرابعة • ولكن جرت العادة باحتساب المؤتمرات العادية دون الطارئة •

وبعد أن تشاور حكام ٣٨ دولة اسلامية اتفقوا على اعلان وثيقتين يعبران بهما عن الموقف الاسلامى من كافة القضايا الاسلامية •

الوثيقة الأولى : بلاغ مكة المكرمة •

الوثيقة الثانية : البيان الختامى للمؤتمر •

أما بلاغ مكة فقد كان معبرا عن تصميم المجتمعين على المضى فى توثيق التضامن الاسلامى والعزم على المقاومة الشاملة فى وجه العدوان الصهيونى ومضاعفة الجهد والسعى لرد ذلك العدوان واعادة العدة للجهاد من أجل الحقوق الاســــلامية ، وأكد البلاغ رفض كل مبادرة لاتتبنى الخيار الفلسطينى المتمثل فى الحل العادل لقضية فلسطين والتعاهد على الجهاد لتحرير القدس ، كما أكد البلاغ دعم جهاد الشعب الأفغانى الى أن تنسحب قوات الاحتلال الروسى ، وأشار بلاغ مكة الى حرص الدول الاسلامية على السعى لقيام العلاقات الاقتصادية فى العالم على أسس العدل وسيادة نظام اقتصادى جديد •

وأكد البلاغ التزام الأمة بتحكيم كتاب الله وسنة رسوله ، ودعى الى الاعتصام بتعاليم الدين والقيم الحضـــارية ، كما قرر قادة الدول الاسلامية دعوة الجمعية العمومية للامم المتحدة لعدم قبول أوراق اعتماد الوفد الاسرائيلى وتجميد عضويتها فى المنظمة الدولية ، ومطالبة الدول الأعضاء فى منظمة المؤتمر الاسلامى المعترفة بالعدو سحب اعترافها به وقطع جميع علاقاتها الاقتصادية والسياسية معه •

وأعلنوا عن قلقهم ازاء التنافس المتزايد بين القوتين الأعظم من أجل مناطق النفوذ وسعيها المتزايد لتكثيف وجودها العسكرى فى المنــاطق العربية المتخامة لدول العالم الاسلامى مثل المحيط الهندى والبحر العربى والبحر الأحمر والخليج ، وأكدوا بأن سلام الخليج واستقراره وأمنه انما هو مسئولية مطلقة لدول الخليج دون تدخل أجنبى •

كما دعوا جميع الدول التي بها أقليات مسلمة وتتعرض للاضطهاد الى تمكين هذه الأقليات من ممارسة شعائرها الدينية بحرية كاملةوالتمتع بحقوقها المتساوية على أساس المواطنة فى كنف الدولة وحرمة القانون •

ودعا البلاغ الى دعم التوسع فى نشر العلم والمعرفة وتعزيز المؤسسات التعليمية فى العالم الاسلامى وترسيخ المبادىء الاسلامية فى التربية والثقافة واشاعة مبادىء الاسلام فى العالم لابراز مافيها من تقدم وخير للانسانية ، والالتزام بدعم منظمة المؤتمر الاسلامى

ومؤسساتها حتى تنهض بالمهام الملقاة على كاهلها ، وذلك كدعم صندوق التضامن الاسلامى وصندوق القدس ووكالة الأنباء الاسلامية(٩) •

وأما البيان الختامى : فقد تضمن عدة توصيات وقرارات غير ملزمة فى المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية كان من أبرزها الالتزام بتحرير القدس العربية لجعلها عاصمة لفلسطين ، واعتبار قضية فلسطين جوهر مشكلة الشرق الأوسط واعتبارها قضية الأمة الاسلامية الأولى وطالب بضرورة انسحاب اسرائيل من الأراضى المحتلة•

كما طالب الملوك والرؤساء فى بيانهم بضرورة انسحاب القوات الأجنبية من أفغانستان ، ودعوا الى مضاعفة الجهد كى تظل أفغانستان دولة اسلامية مستقلة غير منحازة ، وشكل لجنة وزارية من وزراء خارجية غينيا وايران وباكستان وتونس وأمين عام منظمة المؤتمر الاسلامى لمواصلة السعى لحل القضية •

واتفق ملوك ورؤساء الدول الاسلامية على اعلان الجهاد المقدس لانقاذ القدس الشريف ونصرة الشعب الفلسطينى وتحقيق الانسحاب

---

(٩) أنظر : نص بلاغ مكة منشور فى مجلة رابطة العالم الاسلامى السنة التاسعة عشرة العدد الرابع ، ربيع الاخر سنة ١٤٠١هـ •

من الأراضى العربية المحتلة وأوضحت الدول الاسلامية فى قرارها هذا أن للجهاد مفهومه الاسلامى الذى لايحتمل التأويل واساءة الفهم ، وأن الاجراءات العملية لتنفيذه ستتم وفقا لذلك وبالتشاور المستمر بين الدول الاسلامية •

ومن الأشياء الطيبة التى تمخض عنها المؤتمر تكوين لجنة للوساطة الاسلامية من رؤساء بعض الدول الاسلامية برئاسة الرئيس الغينى أحمد سيكوتورى لحل النزاع العراقى الايرانى بالطرق السلمية وبدأت اللجنة فى مباشرة نشاطها بعد فض المؤتمر مباشرة ودعا المؤتمر العراق وايران الى الوقف الفورى لاطلاق النار بينهما وأعلن أن الدول الاسلامية وافقت على انشاء قوة اسلامية من أجل تطبيق وقف اطلاق النار اذا دعت الضرورة •

وقرر المؤتمر تمشيا مع سياسة التضامن فى الكوارث والمجاعات تشكيل لجنة للتضامن مع شعوب الساحل الافريقى المتضررة بالجفاف من الأمين العام ووزراء خارجية العراق والسعودية وماليزيا وفلسطين والأمارات العربية المتحدة والكويت ، وينضم اليها ممثل عن اللجنة المشتركة بين الدول المتضررة من الجفاف •

ودعا المؤتمر لايجاد حل عادل وسلمى لقضية أريتريا وتأييد كل مايبذل من مساع للتوصل الى مثل هذا الحل وتشكيل لجنة مؤلفة من السنغال وغينيا والأمانة العامة لتقوم بالجهود السلمية لحل قضية أريتريا وعرض نتائجها على المؤتمر الاسلامى القادم لوزراء الخارجية •

وعبر المؤتمر عن التأييد الكامل للسكان المسلمين المضطهدين فى القرن الأفريقى ، وطالب بالانسحاب الكامل وغير المشروط لجميع القوى الأجنبية من القرن الأفريقى •

ووافق المؤتمر على انشاء محكمة عدل اسلامية ودعا الى عقد اجتماع لخبراء من الدول لأعضاء لوضع نظام أساسى لمحكمة العدل الاسلامية ، وكلف الأمين العام للمنظمة بوضع الترتيبيات اللازمة لعقد اجتماع الخبراء ورفع النتائج الى المؤتمر الاسلامى لوزراء الخارجية •

ووافق المؤتمر على أن تكون اجتماعات القمة الاسلامية دورية كل ثلاث سنوات ، وأن تكون فترة انتخاب الأمين العام لمدة أربع سنوات غير قابلة للتجديد ، وبناء على دعوة من ملك المغرب لاستضافة مؤتمر القمة الاسلامى الرابع رحب الأعضاء بهذه الدعوة ووافق على تلبيتها(١٠)

وعلى العموم برزت فى قمة مكة عدة نشاطات وجهود ومحاولة انشاء مؤسسات اسلامية جديدة وتدعيم الموجود منها مثل : محكمة العدل الدولية ووكالة الغوث الاسلامية ووكالة الأنباء الاسلامية والبنك الاسلامى للتنمية وصندوق التضامن الاسلامى • وصندوق القدس واللجنة الاسلامية للشئون الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ومركز البحوث الاحصائية والاقتصادية والاجتماعية واتحاد الغرف التجارية والصناعية الاسلامة ، والمؤسسة الاسلامية للعلوم والتكنولوجيا والتنمية ومركز البحوث فى التاريخ والفنون والثقافة الاسلامية ، والمركز الاسلامى للتدريب الفنى والمهنى •

التضامن الاسلامى فى الميزان :

الواقع أن قمة مكة المكرمة كانت خطوة مباركة على طريق التضامن الذى أرسى قواعده الملك فيصل بن عبد العزيز من أجل حياة أفضل لسائر الشعوب الاسلامية ، لدرجة أصبحت معها الدول الاسلامية أكثر

---

(١) أنظر : البيان الختامى لقمة مكة المكرمة المنشور فى مجلة رابطة العالم الاسلامى مرجع سبق ذكره •

قدرة على الوقوف فى وجه الطامعين فى البلدان الاسلامية « وان الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » •

واذا قارنا بين أول اجتماع للمسلمين فى القاهرة عقب الغاء الخلافة عام ١٩٢٦ وبين مؤتمر مكة فان الفارق لاشك كبير ، ففى مؤتمر الخلافة بالقاهرة سنة ١٩٢٦ كان الاستعمار ومازال يهيمن فى البلاد الاسلامية ومن بينها مصر ومازال قابضا على صولجانه بها ويده من حديد فما كاد المؤتمر يلتئم حتى تفرق جميع المؤتمرين بفعل ضعف المسلمين يومئذ وتكالب الدول الاستعمارية عليهم وتوحدها ضدهم • أما فى مؤتمر مكة سنة ١٩٨١ فان الارادة أصبحت الى حد كبير حرة أكثر مما كان فى مؤتمر الخلافة بالقاهرة سنة ١٩٢٦ ، لدرجة أن حضر فى مؤتمر مكة المكرمة رؤساء ٣٨ دولة اسلامية بينما لم يحضر الى القاهرة سوى ممثلين عن دولهم من علماء وزعماء لما لايزيد عن ثلاثين دولة وجماعة اسلامية وامتنعت كثير من الدول الاسلامية عن حضوره كما سلف أن أوضحنا •

وأثمرت فى الواقع صيغة التضامن الاسلامى الذى أرسى قواعدها الملك فيصل بن عبد العزيز ، صحيح أن المنظمة الاسلامية مازالت قراراتها وتوصياتها ضعيفة وغير ملزمة للاعضاء الا أننا لايمكن أن نتصور أن يصبح المسلمون بهذه السرعة قوة بعد طول تفرق وتمزق وغفلة وأن المسألة تحتاج الى وقت لكى تتخلص دولها من آثار الاستعمار وعصور الضعف والتخريب الاقتصادى والثقافى الذى حل بدولها ، وخاصة أن التكتلات الدولية مازالت تتربص بهم سواء فى الاتحاد السوفيتى وحلفائه ، أو فى المعسكر الغربى بزعامة أمريكا •

وعلى الرغم من تضارب المصالح بين الشرق الشيوعى والغرب المسيحى الا أنهم يتفقون بشأن كثير من القضايا التى تمس المصالح الاسلامية ، وهذا ماحدث ابان اجتياح روسيا لأفغانستان فى ٢٧ من ديسمبر ١٩٧٩م (١٤٠٠هـ) فعلى الرغم من أن النفاق الأمريكى أدى

اعتراضه الظاهرى على عملية الغزو الشيوعى لأفغانستان ومنع بعض شحنات القمح الأمريكى عن روسيا ، وقاطع دورة الألعاب الأولمبية فى موسكو سنة ١٩٨٠م وغير ذلك من المظاهر الشكلية ولم يتحرك عمليا لمساندة أفغانستان ، أقول على الرغم من ذلك فان احساس المسلمين الذى لايخطئ يجعلهم يدركون بأن أمريكا متخوفة هى الأخرى من الصحوة الاسلامية التى بدأت فى العالم الاسلامى فى الآونة الأخيرة ، وهى متآمرة سرا على ضرب الأمانى الاسلامية فى كل مكان فى العالم •

وقد وصف مايكل آدمز رئيس تحرير مجلة ميدل أيست انترناشيونال « Meddle East Enternational » (أى مجلة الشرق الأوسط العالمية) • سياسة النفاق الأمريكى هذه بقوله : « ان رد الفعل الأمريكى يقتصر على سلسلة من البيانات المتضاربة التى يرفضها حتى حلفاء أمريكا بوصفها ضربا من النفاق العديم المغزى (١١) •

وان حركة انفصال باكستان الشرقية عن باكستان الغربية ليست منا ببعيد ، ففى سنة ١٣٩١هـ (١٩٧١م) قامت حرب أهلية فى باكستان الشرقية بمؤازرة الهند والاتحاد السوفيتى وزحف جيش هندى على أراضى البنغال ونجحت الهند فى فصل باكستان الشرقية عن الغربية ، وأعلنت باكستان الشرقية نفسها جمهورية مستقلة باسم (جمهورية بنجلادش) كل هذا حدث بمساعدة الروس ، وكان النفاق الأمريكى كما عهدناه • فقد أبدى الأمريكان استياءهم للغزو وأسفهم لما حدث ولم يتحرك عمليا لمساندة باكستان الحليفة له •

وقد فضحت مذكرات هنرى كيسنجر وزير خارجية أمريكا يومئذ والتى نشرت مؤخرا فى جريدة الشرق الأوسط السعودية ، فضحت

---

(١١) من مقال للكاتب الانجليزى مايكل آدمز ، فى جريدة الشرق الأوسط السعودية التى تطبع فى لندن والسعودية ، بعنوان « أين تقف ياريجان ؟ » عدد ١٩٨١/٩/٦م ص٩ •

النفاق الأمريكى ، فانها أثبتت بأن تقسيم باكستان كان مؤامرة أيدتها موسكو بالسلاح الذى أعطته للهند ، وقامت واشنطن بدور سلبى بأن منعت شحن الأسلحة الى باكستان فى وقت الحرب[١٢] الأمر الذى جعل باكستان عاجزة عن مواجهة الهند عسكريا ، ونجحت الهنـــد فى اجتياح أراضيها ، وغطت أمريكا هذه الخيانة لدولة باكستان الحليفة بالنفـــاق الأمريكى المعهود ، سلسلة من الاستنكار والاستياء والأسف لما حدث .

وعلى العالم الاسلامى أن يعتمد على تضامنه من الان فصـــاعدا وتكتله ووحدته وقوته الذاتية ، فانها كثيرة ومؤثرة ، وقد اكتشفها فعلا فى مؤتمراته المتعاقبة غير أنه مازال هيابا فى استعمالها ، ولعل فى مستقبل الأيام مايتيح له الفرصة فى التقدم الى الأمام خطوات أكثر ثباتا فى مجال الوحدة أمام التكتلات الدولية .

الجامعة الاسلامية الاقتصادية :

لعل خير انجاز قامت به حركة التضامن الاسلامى المعاصرة هـــو تنشـــيط الاقتصـــاد الاسلامى ، لأن النظام الاقتصادى الأوربى سبقه بمراحل طويلة فقد قطع شوطا فى سبيل أعلى استغلال للثروة وتنميتها بدلا من كنزها ، وكان العالم الاسلامى يتسكع فى عصوره الوسطى ، ولم يستطع أن يطور النظام النقدى الاسلامى بما يتمشى مع النظم المصرفية الدقيقة بادارات عصرية ، وأضحت التجارة والصناعة فى ظل الـــدول الاستعمارية فى بلاد المسلمين فى أيدى اليهود والنصارى من أهل البلاد أو بعض الدخلاء ، وجاءت ثروات البترول وغيرها من الثروات المعدنية فزلزلت العالم العربى والاسلامى زلزالا شديدا وتكدست أموال العرب فى بنـــوك أوربا وأمريكا .

---

(١٢) انظر : مجلة الشرق الأوسط السعودية ، عدد ١٥/٤/١٩٧٩ م

والتفت العقلاء الى هذه الثروة وضرورة اســتغلالها فى العالم الاسلامى وكان على رأسهم الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود فأطلق النظام النقدى الاسلامى من عقاله ، ودعا الى الاسراع فى انشـــاء بنوك اسلامية تطبق النظام النقدى الاسلامى ولا تتعـامل بالربا ، بل تتعامل طبقا لنظام المضاربة المعروف فى المعاملات الاسلامية الذى بموجبه يقدم صاحب رأس المال ماله الى بيوت الخبرة والناتج من المكسـب بينهما حسب أصول مضبوطة ليس منها اشتراط نسبة من الربح لصاحب المال ، وانما العائد يقسم بينهما بعد دفع أجور العمال والموظفين ، وفى جميع المؤتمرات الاسلامية أثيرت مسألة المصارف الاســلامية وضرورة انشاء نظام مصرفى اســلامى ومن بينها مؤتمر وزراء خارجية الــدول الاسلامية الثانى بكراتشى بباكستان[١٣] أكد المؤتمرون على ضرورة انشاء البنك الاسلامى العالمى للتجارة والتنمية ، وأدرج فى جدول الأعمــال فى مؤتمر وزراء الخارجية الثالث فى جدة[١٤] وقرر المؤتمر انشاء ادارة مالية واقتصادية لخدمة العالم الاسلامى بأمانة المؤتمر الاسلامى بجدة ، وتتولى دراسة واعطاء المشورة فى المواضيع الاقتصــادية والبنــوك الاســلامية[١٥] .

وفى مؤتمر القمة الاسلامى الثانى بلاهور بباكستان آنف الذكــر اتضحت معالم الجامعة الاقتصادية الاسلامية فأصــدر المؤتمرون فى بيانهم بعد أن تدارسوا الموقف الاقتصادى العالمى بصفة عامة والوضع الاقتصادى القائم فى البلاد الاسلامية بصفة خاصة فرأوا ضرورة :

---

(١٣) انعقد مؤتمر كراتشى صباح السبت ٢٧ من شـــوال ١٣٩٠ هـ (٢٦/١٢/١٩٧٠م) .

(١٤) انعقد فى الفترة من ١٤ محرم حتى ١٨ منه ١٣٩٢هـ « ٢٩ فبراير — ٤ مارس ١٩٩٧٢م » .

(١٥) مؤتمر القمة الاسلامى ، مرجع سبق ذكره ص٤٢ .

١ — القضاء على الفقر والمرض والجهل فى البلاد الاسلامية •

٢ — انهاء استغلال الدول المتقدمة للدول النامية •

٣ — تنظيم شروط التبادل التجارى بين الدول المتقدمة والدول النامية فيما يتعلق بموارد المواد الخام واستيراد السلع المصنعة والخبرة الفنية •

٤ — ضمان سيادة الدول النامية وسيطرتها الكاملة على مواردها الطبيعية •

٥ — تخفيف المصاعب الاقتصادية التى تواجهها الدول النامية نتيجة لزيادة الأسعار •

٦ — التعاون والتضامن الاقتصادى المتبادل بين الدول الاسلامية (١٦) •

وقرر المؤتمر انشاء لجنة من أجل ايجاد الوسائل والأساليب الكفيلة بتحقيق الأهداف المذكورة ، وضمان رفاهية الدول الأعضاء •

وفى الدورة الخامسة للمؤتمر فى (كوالا لمبور) عاصمة ماليزيا فى غرة جمادى الثانية ١٣٩٤هـ (٢١ — ٢٥ يونيو ١٩٧٤) حث وزراء خارجية الدول الاسلامية على اقامة رابطة للمنتجين وبورصة بين الدول الاسلامية لتأمين أسعار عادلة لمنتجاتها وحث المؤتمر على انشاء بنك للتكنولوجيا لبناء خبرة تكنولوجية وعلمية متناسقة ، وتسهيلات مشتركة للتأمين ، وأساطيل للنقل البحرى وشاحنات للبترول •

وحث المؤتمر الدول الاسلامية على تنشيط الاتفاقيات التجارية الثنائية بين الأعضاء ودراسة انشاء تعريفة تفاضلية ، كما دعا الدول

---

(١٦) المرجع السابق ص٤٠ — ٥٠ •

الاسلامية الفنية الى استثمار أموالها فى الدول الفقيرة ، واقترح الأعضاء وضع نظام اقتصادى دولى جديد .

وتم فى السبعينات انشاء عدة بنوك اسلامية فى العالم الاسلامى كان رائدها بنك فيصل الاسلامى المصرى وله فروع فى جميع أنحاء العالم الاسلامى .

والمصرف الاسلامى الدولى للاستثمار والتنمية المصرى وغيرهما وشجعت الدول الاسلامية رأس المال الاسلامى من أن يتعامل مع هذه البنوك الاسلامية ، الأمر الذى دعا المصارف الربوية فى مصر الى فتح فروع لها بالمعاملة الاسلامية خوفا من عواقب الأمور المرتقبة التى أحست بها ، وهى خوف هذه البنوك من أن يسحب النظام النقدى الاسلامى الأموال من يدها .

ولا شك فى أن هذه الخطوات نحو الجامعة الاسلامية الاقتصادية ستنعش الأوضاع الاقتصادية فى العالم الاسلامى من المحيط الأطلسى غربا الى أرخبيل الملايو شرقا وخاصة أن البلاد الاسلامية تحتوى على ثروات طبيعية هائلة فى مقدمتها ٧٠٪ من مطاط العالم الطبيعى و ٤٠٪ من الجوت العالمى و ٥٥٪ من الفوسفات و ٥٦٪ من الزيت الخام ، والنفط المخزون فى العالم أغلبيته فى أراضى اسلامية فى آسيا وافريقيا (١٧) واذا نجحت الجهود المبذولة لاقامة تعاون اقتصادى بين الدول الاسلامية فان الدول الاسلامية مجتمعة ستحتل مكانها الحقيقى فى المجتمع الدولى خاصة اذا تبنت تجديد أنظمتها الاقتصادية وتقويمها .

---

(١٧) أنظر : العدد رقم « ٣٦١٧ » من جريدة الندوة بتاريخ ٣ يناير سنة ١٩٧١ ص٥ تحقيق عن امكانيات العالم الاسلامى الاقتصادية .

الجامعة الاقتصادية بعد مؤتمر مكة :

فى مكة المكرمة انعقد المؤتمر الثالث لرؤساء وملوك العالم الاسلامى فى الفترة من ١٩ — ٢٢ ربيع الأول من عام ١٤٠١هـ (٢٥ — ٢٧ يناير ١٩٨١م) والناس فى العالم الاسلامى يتطلعون لمزيد من الانجازات فى مجال الجامعة الاقتصادية للعالم الاسلامى لأنها هى التى تنقذهم من سيطرة الدول الاستعمارية بعد تكتلها الاقتصادى فى السوق الأوربية المشتركة وغيرها •

وأعان المشتركون فى المؤتمر ادراكا منهم لمصالحهم المشتركة تصميمهم على العمل للقضاء على حالات الفقر التى ما تزال تعانى منها بعض شعوبنا الاسلامية •

وذكروا فيما سمى ببلاغ مكة : « ونعلن تصميمنا على دعم تعاوننا الاقتصادى على أساس تكامل امكاناتنا من أجل تطوير التنمية المتناسقة لبلداننا ، كما نعلن العزم وفقا لروح التضامن الاسلامى على دفع النهضة الاقتصادية للبلدان الأقل نموا بيننا ، كما نعلن حرصنا على ترشيد سياساتنا الانمائية بحيث يتوازن فيها الرقى المادى والروحى •

وندعو الى السعى لاقامة العلاقات الاقتصادية فى العالم على أسس العدل والتكافل لكى تتلاشى الفوارق الشاسعة بين الدول الصناعية وبين البلاد النامية والفقيرة ويسود نظام اقتصادى جديد قوامه العدل والتضامن تترشد فيه سياسات التنمية وتتكامل بما من شأنه القضاء نهائيا على المجاعة وأخطارها وألوان الحرمان وجميع أشكال استغلال الشعوب التى تعانى من آثار الاستعمار والتخلف وبما يحقق لها تنمية مواردها وحسن الانتفاع بها ونؤكد من جديد سيادة الدول على مواردها الطبيعية وحقها فى التحكم فى استغلالها(١٨) •

---

(١٨) أنظر : بلاغ مكة المنشور فى مجلة رابطة العالم الاسلامى العدد الرابع السنة التاسعة عشرة ، ربيع الاخر ١٤٠١هـ مرجع سبق ذكره .

وفى بيان المؤتمر الختامى اتفق ملوك ورؤساء ٣٨ دولة اسـلامية فى المجال الاقتصادى على خطة عمل لتعزيز التعاون الاقتصـادى بين الدول الأعضاء فى المجموعة الاسلامية ، وكلف الأمانة العامة لمنظمـة المؤتمر الاسلامى بالاسراع فى اتخاذ الاجراءات المناسبة لتنفيذ هـذه الخطـة •

وتم اقرار انشاء جهاز تابع لمنظمة المؤتمر الاسلامى يسمى المركز الاسلامى لتنمية التجارة ويكون مقره طنجة بالمملكة المغربية والموافقـة على النظام الأساسى للمركز وعلى ميزانيته للسنة المالية ٨١ — ١٩٨٢م، وترك المؤتمر لحكومة المغرب أن تتخذ كل التدابير الضرورية لتشـغيل المركز ، ودعى المؤتمرون الدول الأعضاء لتقديم كافة المساعدات الضرورية الى المركز لتمكينه من تحقيق الأهداف والأغراض المرجوة منه •

ودعى المؤتمر فى بيانه الختامى الى المسارعة فى عقـد اتفاقيـة تشجيع وحماية وضمان الاستثمارات فى الدول الأعضاء لأن ابرام مثل هذه الاتفاقية سيحقق الاستغلال الأمثل للامكانيات الاقتصادية الموجودة فى الدول الاسلامية ويتيح نقل الأموال بين الدول الأعضاء ويهىء لشعوبها بلوغ التقدم الاقتصادى والرخاء وفوض المؤتمر الأمين العام لمنظمـة المؤتمر الاسلامى فى عقد اجتماع رفيع المستوى لممثلى الدول الأعضاء قبل انعقاد مؤتمر وزراء الخارجية الاسلامى الثانى عشر بوضع صيغة نهائية لنص الاتفاقية توطئة لاقرارها من المؤتمر أو من الوزراء المختصين فى اجتماع يعقد لهذا الغرض •

وبحث المؤتمر مشروع انشاء اتحاد اسلامى للناقلين البحريين بجده فى المملكة العربية السعودية ووافق على هذا الانشـاء وعلى النظـام الأساسى للاتحاد ، وكلف الأمانة العامة بالعمل بتعاون وثيق مع المملكة العربية السعودية على تحقيق هذا المشروع ودعا الدول الأعضـاء الى الانضمام الى الاتحاد والتعاون معه لتمكينه من تحقيق أهدافه •

مساعدات عاجلة للدول الفقيرة :

وقرر المؤتمر أن يطلب من البنك الاســـــلامى للتنمية أن يمنح مســـاعدات عاجلة ومتزايدة الى الدول الأعضـــاء الأقل نموا بما فى ذلك تمويل التجارة بشروط أكثر تيسيرا ومرونة • وحث الأعضاء على تقـــديم مساعدات لتلك الدول فى شتى الميادين وخاصة عند الطوارىء والأزمات•

وطلب من الأمانة العامة متابعة تنفيذ هذه القرارات والعمل على ضبط الاحتياجات الخاصة لهذه الدول وتقييم مايحصل من تطـــور فى تنفيذ البرامج لفائدة هذه الدول •

وقرر المؤتمر تدعيما لهذه السياسة الاكتتاب فى رأس مال البنك الاسلامى للتنمية بمبلغ ١٢١٠ مليون دينار اسلامى وهو المبلغ الـــذى يمثل الحصة غير المكتتب بها فى رأس المال المسموح به وقيمتـــه ٢٠٠٠ مليون دينار اسلامى •

وقد قرر المؤتمر أن يطلب من الأعضاء تغطية رأس مال صـــندوق القدس والتضامن الاسلامى ودعم الميزانية السنوية لهذين الصندوقين فطلب لصندوق التضامن الاسلامى سنويا ما لايقل عن خمسين مليون دولار والحث على تقديم التبرعات لهذا الصندوق ، وطلب تخصـــيص موارد اضافية له كطوابع البريد وغيرها ، وتنظيم حملات ســـنوية لجمع التبرعات فى كل دولة ، كما قرر المؤتمر تأكيد اقامة وقفية لفائدة الصندوق برأس مال قدره مائة مليون دولار ودعوة الدول الأعضاء الى تغطية هذا المبلغ باسهامات تطوعية •

وفى الطريق الى انشاء وكالة الغوث الاسلامية طلب المؤتمر من

صندوق التضامن الاسلامى القيام بدراسة هذا المشروع والاسراع فى تقديم العون لحكومة الجزائر لاعادة بناء مدينة الأصنام الجزائرية التى هدمها زلزال مدمر ، وناشد الأعضاء للمساهمة فى اعادة بناء منطقة الأصنام وطلب من الأمين العام متابعة هذا الموضوع وبدأ بذلك التعاون الفعلى يظهر الى الوجود •

وفى مجال المؤسسات الثقافية قرر المؤتمر التزام المنظمة بانجاز : (١) مركز غينيا بيساو الاسلامى و (٢) مركز أحمد باباقى توبكتو و (٣) جامعة النيجر الاسلامية و (٤) جامعة أوغندا الاسلامية ، وطلب من صندوق التضامن الاسلامى استمرار دعم هذه المشاريع ماليا حتى تخرج الى الوجود ، طلب من الأعضاء تقديم دعم مباشر بهذا الخصوص •

وقرر المؤتمر مناشدة جميع الدول الأعضاء للمساهمة فى توفير رأس المال المطلوب للمؤسسة الاسلامية للعلوم والتكنولوجيا ، والمقدر بمبلغ خمسين مليون دولار فى المرحلة الأولى ، وطلب من الأمانة العامة استعمال الاجراءات التنفيذية لانشاء المؤسسة وشرح أهدافها للدول الأعضاء وحثهم عى تقديم الدعم المادى والمعنوى لها •

وحث المؤتمر الأعضاء على انشاء ودعم المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة واتخاذ الوسائل الكفيلة بانشائها ، ودعا الدول الأعضاء الى المسارعة فى اعلان الانضمام اليها(١٩) •

---

(١٩) أنظر : مجلة رابطة العالم الاسلامى ، العدد الرابع ، السنة التاسعة ربيع الاخر ١٤٠١هـ نص البيان الختامى لمؤتمر مكة المكرمة .

وفيما أسماء المؤسسات الاقتصادية التى تكونت حتى أنعقاد مؤتمر مكة المكـــرمة :

١ ــ صندوق التضامن الاسلامى •

٢ ــ صنـــدوق القدس •

٣ ــ اللجنة الاسلامية للشئون الاقتصادية والاجتماعية والثقافة •

٤ ــ مركز البحوث الاحصائية والاقتصادية والاجتماعية •

٥ ــ اتحاد الغرف التجارية والصناعية الاسلامية •

٦ ــ البنك الاســـلامى للتنمية •

الفهرس

صفحة

صفحة

مطبعة الجبلاوى

٢٠٢ شارع الترعة البولاقية ـ شبرا

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٤/٧١٦٥